

البابا شنودة الثالث

عالمه
Aty Wagih

حياة البوينا والتقاوة



البابا شنودة الثالث

حياة
السَّوْبَةِ والنِّقَاوَةِ

LIFE OF REPENTANCE AND PURITY

By

H. H. Pope Shenouda III

1st Print
June 1983
Cairo

الطبعة الأولى
يونيه ١٩٨٣
القاهرة

شالكاوهنت (البا)

الكتاب : حياة التوبة والنقاوة .

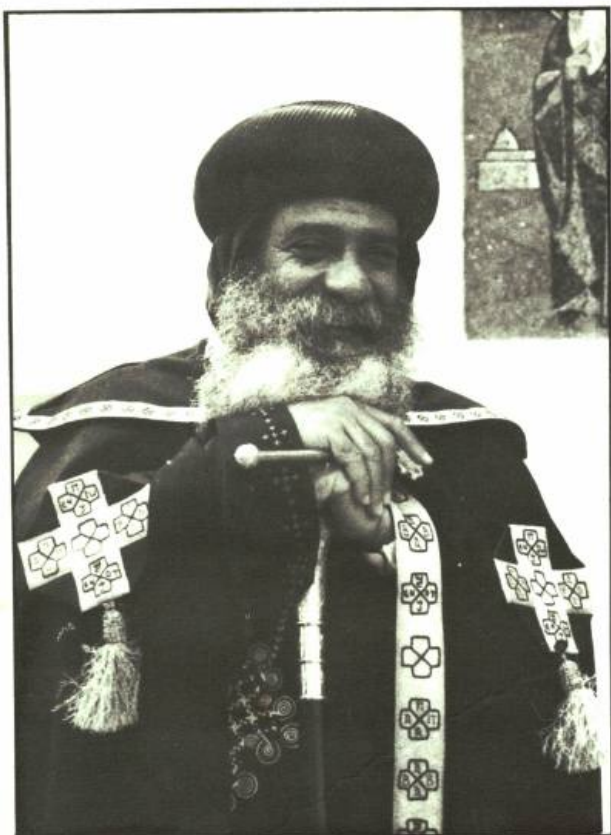
المؤلف : البابا شنودة الثالث .

الطبعة : الأولى ١٩٨٣ .

المطبعة : الأنبا رويس بالعباسية .

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٧١ / ١٩٨٢ .

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف .



الباپا شنوده الثالث

H.H. Pope Shenouda III

قصة هذا الكتاب

ليست التوبة يا إخوتي هي عمل المبتدئين في الحياة مع الله ، إنما التوبة هي للجميع ، حتى للقديسين ، وهي جزء من صلواتنا اليومية .

كل إنسان محتاج إلى التوبة ، مهما عظم مركزه ، ومهما علا قدره وارتفع في الحياة الروحية . كلنا محتاجون إلى التوبة ، بل إننا محتاجون إليها في كل يوم ، لأننا في كل يوم نخطئ . ولا يوجد إنسان بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض .

بالتوبة نهيء أنفسنا لسكنى الرب . وبالنقاوة نعاين الله أى نراه (متى ٨: ٥) .

التوبة هي بدء الطريق إلى الله ، وهي رفيق الطريق حتى النهاية .

ولذلك كانت التوبة من أولى الموضوعات التى ألقى فيها محاضرات عديدة من بداية عملي كأسقف للتعليم من حوالى عشرين سنة .

عشرات المحاضرات ألقيتها عن التوبة في القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس ، وفي اجتماعات الشباب والأسرات الجامعية . كما ألقى محاضرات أخرى مركزة في كنيسة الملاك بدمهور ، وفي كنيسة مارجرجس بالمحلة الكبرى ، وفي بعض البلاد الأخرى ، وبخاصة في السنوات من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٩ .

وكنت أشتى منذ زمان ، أن يصدر كتاب عن حياة التوبة .

ولقد جمعت محاضراته فعلاً ، وقدم للمطبعة في أغسطس ١٩٧١ ، وتم طبع ثلاث ملازم منه . ثم جاءت مسئوليات البطريركية فشغلتني عنه وعن إصدار أى كتاب آخر لمدة طويلة ، كانت فيها أعباء العمل متشعبة جداً لم تعطني فرصة للكتابة على مدى سنوات . إلى أن شاء الله أخيراً أن أقدمه للمطبعة بعد اثنتي عشرة سنة .

وبسبب تأخير صدور كتاب (حياة التوبة) هذا ، كان كثير من أحيائي يستعجلوني ، قائلين في لطف : ها قد تأخرت توبتنا بتأخير صدور الكتاب . أفترضى

أن تحمل مسؤولية هذا التأخير أمام الله ؟ وكنت أجيهم بالعبارة التي أكررها باستمرار « صلوا لكي يعطيني الرب وقتاً »...

ثم أعطاني الرب وقتاً ، وقدمت الكتاب إلى المطبعة ، وها هو قد وصل أخيراً إلى يديك . ولعل تأخره كان فرصة لأن أضيف إليه محاضرات أخرى ألقيتها في الكاتدرائية الكبرى فيما بعد في السبعينات .

وبعد ، أتظنون أنني استطعت جمع كل ما قلناه عن التوبة ؟

كلا ، بلا شك . فموضوع التوبة متنوع ومتشعب ، وقد دخل في موضوعات أخرى كثيرة من الحياة الروحية ، ودخل في تأملاتنا عن المزامير وقطع الأجيبة ، وسفر الرؤيا ، وسفر النشيد ، ورومية ١٢ ، ورجال الكتاب المقدس ، وفي محاضراتنا عن الخلاص...

وقد أصدرنا بعض كتب أخرى صغيرة ، غير هذا الكتاب ، تحت عنوان « سلسلة حياة التوبة والنقاوة » .

صدرت منها كتب (اليقظة الروحية) ، (السهر الروحي) ، (الرجوع إلى الله) ، وكتاب (مخافة الله) في طريقه إلى المطبعة أيضاً .

على أنني لكي أستكمل لك هذه المجموعة عن حياة التوبة .

أتوقع أن أصدر لك قريباً كتاب (الحروب الروحية) .

الذي ربما يصدر في مجموعة من الكتب الصغيرة أولاً ، ثم يجمع في كتاب كبير . ليشمل الحروب الروحية بوجه عام ، ثم حرب كل خطية تعطل التوبة ، على حدة ... ويبقى موضوع (التوبة والنقاوة) مفتوحاً ... إنه حياة ...

شكوه الثالث

الباب الأول

ماهى التوبة ؟

- ١ - ما هى التوبة .
- ٢ - غموا التوبة وكما لها .
- ٣ - دعوة إلى التوبة .
- ٤ - لا تيأس .
- ٥ - التوبة بين الجهاد والنعمة .
- ٦ - أهمية التوبة .
- ٧ - عوائق التوبة .
- ٨ - التوبة والكنيسة .

ما هي التوبة؟

• ما دامت الخطية هي انفصال عن الله ، فالتوبة إذن هي رجوع إلى الله (١).

والرب يقول في ذلك « إرجعوا إلي ، أرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) . والإبن الضال حينما تاب ، رجع إلى أبيه (لو ١٥ : ١٨ ، ٢٠) . حقاً إن التوبة هي حين الإنسان إلى مصدره الذي أخذ منه . وهي اشتياق قلب ابتعد عن الله ، ثم شعر أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر...

• وما دامت الخطية خصومة مع الله ، تكون التوبة هي الصلح مع الله (١) . وهذا ما ذكره معلمنا القديس بولس عن عمله الرسول ، قال « إذن نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) .

والتوبة لا تقتصر على الصلح ، إذ بها يعود الله فيسكن في قلب الإنسان ، ويتحول هذا القلب إلى سماء . أما غير التائبين ، فكيف يسكن الله في قلوبهم حيث تسكن الخطية ؟! والكتاب يقول « أية شركة للنور مع الظلمة ؟! » (٢ كو ١٤ : ٦) .

• والتوبة أيضاً هي يقظة روحية (١) .

لأن الإنسان الخاطيء هو إنسان غافل ، لا يحس ما هو فيه . لذلك يخاطبه الكتاب قائلاً « إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم » (رو ١٣ : ١١) . ولعله بهذا المعنى اعتبرت التوبة هي رجوع الإنسان إلى نفسه .

أو هي رجوع النفس إلى حساسيتها الأولى ، ورجوع القلب إلى حرارته ، ورجوع الضمير إلى عمله . وحسناً قيل عن الإبن الضال في توبته « فرجع إلى نفسه » (لو ١٥ : ١٧) . أى أنه عاد إلى وعيه ، وإلى تفكيره السليم ، وإلى إدراكه الروحي .

(١) أنظر كتاب (الرجوع إلى الله) ، وكتاب (اليقظة الروحية) . فكل موضوعاتها مركزة على هذه النقطة وحدها .

• ومادامت الخطية تعتبر موتاً روحياً ، كما يقول الكتاب عن الخطاة إنهم «أموات بالخطايا» (أف ٢ : ٥) ، تكون التوبة إذن انتقالاً من الموت إلى الحياة حسب تعبير القديس يوحنا الإنجيلي (١ يو ٣ : ١٤) . وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول «إستيقظ أيها النائم ، وقم من الأموات ، فيضئ لك المسيح» (أف ٥ : ١٤) . والقديس يعقوب الرسول يؤكد نفس المعنى إذ يقول «من رد خاطئاً عن طريق ضلاله ، يخلص نفساً من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥ : ٢٠) .
إن التوبة قيامة للروح ، لأن موت الروح هو انفصال الروح عن الله ، كما قال القديس أوغسطينوس ...

* التوبة هي قلب جديد طاهر ، يمنحه الرب للخطاة ، يجنبه به .
هي عمل إلهي يقوم به الرب في داخل الإنسان ، حسب وعده الإلهي القائل «وأرث عليكم ماء طاهراً ، فتطهرون من كل نجاساتكم ... وأعطيكم قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم ... وأجعلكم تسلكون في فرائضي ، وتحفظون أحكامي وتعملون بها» (حز ٣٦ : ٢٥-٢٧) .

* التوبة هي التحرر من عبودية الخطية والشیطان ...
ومن أغلال العادات الخاطئة ، ومن السير وراء الشهوات ...
ولا يمكن أن ننال هذه الحرية بدون عمل الرب فينا . ولذلك يقول الإنجيل «إن حرركم الإبن ، فبالحقيقة أنتم أحرار» (يو ٨ : ٣٦) . إنها حقاً حرية لأن «كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية» (يو ٨ : ٣٤) .
نحصل على هذه الحرية ، إن كنا بالتوبة نثبت في الحق ، وليس في الباطل .
والحق يحررنا (يو ٨ : ٣٢) .

* التوبة إذن هي ترك الخطية ، ولكن من أجل محبة الله .
ومن أجل محبة البر . لأنه ليس كل ترك للخطية يعتبر توبة . فقد يبعد الإنسان عن الخطية بسبب الخوف ، أو الخجل ، أو العجز ، أو المشغولية (مع بقاء محبتها في القلب) ، أو بسبب أن الظروف غير متاحة . ولا تعتبر هذه توبة ...
أما التوبة الحقيقية ، فهي ترك الخطية عملاً وفكراً وقلباً ، حباً في الله ووصاياهم وملكوته ، وحرصاً من الثائب على أبعديته ...

✱ التوبة الحقيقية هي ترك الخطية ، بلا رجعة .

وهكذا تروى قصص القديسين الذين تابوا ، مثل القديس أوغسطينوس ، والقديس موسى الأسود ، والقديسات مريم القبطية وبيلاجية وتائيس وسارة... إن التوبة كانت في حياة كل هؤلاء وغيرهم ، هي نقطة تحول نحو الله ، إستمرت مدى الحياة ، بلا رجعة إلى الخطية .

ويذكرنا هذا بقول القديس شيشوى «لا أتذكر أن الشياطين قد أطفوني في خطية واحدة مرتين»... ربما الخطية الأولى كانت عن طريق جهل ، أو تهاون ، أو ضعف ، أو عدم دراية بحيل الشياطين ، أو عدم حرص . أما بعد التوبة واليقظة ، فهناك كل التدقيق في الحياة ، والإحتراس من الخطية .

أما الذى يترك الخطية ثم يعود إليها ، ثم يتركها ثم يعود ... فهذا لم يتب بعد . إنما هذه مجرد محاولة للتوبة ، كلها يقوم فيها الخاطئء تشده الخطية إلى أسفل . إن صك حرите لم يكتب بعد...

✱ التوبة هي صرخة من الضمير ، وثورة على الماضى .

إنها اشتراز من الخطية ، وندم شديد ، ورفض للحالة القديمة ، مع خجل ونزى منها . لذلك قيل عن التوبة إنها «قايض لا يستحى» .

✱ التوبة هي تغيير شامل لحياة الإنسان .

ليست هي انفعالاً وقتياً نحو الله ، إنما هي تغيير جدى وجذرى في حياة الإنسان ، فيه يشعر هو وكل من يعاشره أن حياته قد تغيرت ، وأفكاره تغيرت ، وكذلك مبادئه وقيمه ونظراته إلى الحياة ، وطباعه وأسلوبه في الحديث ، ومعاملاته للناس ، وعلاقته بالله . ونفسه أيضاً من الداخل قد تغيرت . وأصبح قلباً رافضاً للخطايا السابقة التى كان يحبها . ودخلت محبة الله إلى قلبه . وصار له منهج روحى يشعر فيه بلذة روحية .

ولهذا كله ، قيل بصدق عن التوبة :

✱ التوبة هي استبدال شهوة بشهوة .

هي شهوة للحياة مع الله ، بدلاً من شهوة الخطية والجسد . وهنا لا تقتصر التوبة على الجانب السلبي ، الذى هو ترك الخطية ومحبتها ، إنما

تدخل من الناحية الإيجابية في محبة الله وملكوته وطرقه...
إنها حرارة تسرى في الإنسان ، وتشعله بالرغبة في حياة طاهرة .
ولهذا قيل عن التوبة أيضاً :

✱ التوبة تجديد للذهن .

تجديد الطبيعة يكون في المعمودية (رو ٦ : ٤) . أما تجديد الذهن فإنه يكون
في التوبة ، عملاً بقول الرسول « تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم ، لتختبروا ما
هى إرادة الله الصالحة » (رو ١٢ : ٢) .

✱ التوبة هى المفتاح الذهبى ، الذى يفتح به باب الملكوت .

أو هى الباب الحقيقى الموصول إلى السماء أو إلى الملكوت . لأنه بدون التوبة لا
يملك الله في قلوبنا... إن التوبة هى زيت في مصابيح العذارى ، يجعلهن أهلاً
للدخول إلى العرس (متى ٢٥) .

✱ والتوبة هى القناة التى توصل إستحقاقات الدم من الصليب .

إن الطريقة الوحيدة التى تمحى بها خطايانا بعد المعمودية . لذلك قال البعض
عنها إنها « معمودية ثانية »... إنها جحد للشيطان مرة أخرى . إنها فض للشركة التى
بين الخاطئ والشيطان ، ليدخل في شركة مع الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) .

✱ التوبة جرة نار يلقطها أحد السارافيم من فوق المذبح .

ومحو بها إثم الخاطئ قائلًا له « قد انتزع إثمك ، وكُفِّر عن خطيئتك » (أش
٦ : ٧) . إنها الوسيلة الوحيدة التى تمحى بها خطايانا من كتاب دينونتنا... وما
أجل قول الرب في ذلك : أنساها « لا أذكر خطيئتهم بعد » (أر ٣١ : ٣٤) .
ومن أهمية التوبة في نوال المغفرة ، قول الرب « إن لم تتوبوا فجميعكم هكذا
تهلكون » (لو ١٣ : ٣) .

✱ التوبة هى طريق الهروب من الغضب الآتى .

على شرط أن تكون توبة حقيقية ، وأن تتناسب مع خطورة الخطية .
إن توبة أهل نينوى ، استطاعت أن توقف حكم الله عليهم بالهلاك . فلما تابوا
رجع الله عن حكمه ، وعن الشر الذى أراد أن يفعله بهم فلم يفعله (يون ٣ : ١٠) .
وهكذا في أحكام أخرى لله (أر ٢٦ : ١٣ ، خر ١٨ : ٢١ ، ٢٢) .

حقاً ما أجل قول أحد القديسين : إن الله سوف لا يسألك : لماذا أخطأت ؟
إنما سيسألك : لماذا لم تتب ؟

✱ التوبة إذن هي إبقاء الله عليك وعدم أخذك في خطيتك .
إن الله من عمق عبه ، أعطى الكل فرصاً للخلاص ، مهما كانت خطاياهم .
فإنه لا يأخذ أحداً في وضع هالك ، قبل أن يعطيه فرصة ليتوب .
فالتوبة هي منحة إلهية وهبها الله للخطاة ، لكي تطهرهم ، وتريح ضمائرهم
المثقلة بخطاياهم . وتعيد إليهم السلام الداخلي ، وتردهم إلى ربّهم الأولى التي
كانت لهم قبل الخطيئة .

✱ إنها يد الله الممدودة ، يطلب أن يصالحك .
إنها فرصة لصفحة جديدة ، يفتحها الله في علاقته معك ، يغفر لك الماضي كله ،
ويفسلك فنيئض أكثر من الثلج (مز ٥٠) . فرصة تقوى فيك الرجاء ، وتبعد عنك
اليأس مهما ساءت حالتك .
ولذلك قيل عن التوبة إنها باب الرحمة ، وإنها باب الغفران ، وإنها باب الحياة ،
وإنها جسر يوصل بين الأرض والسماء .
هذا من جهة عمل الله فيها وما يقدمه من مغفرة . أما من جهة الإنسان فنقول
عنها :

✱ التوبة هي استجابة من الإنسان لدعوة الله إليه .
إنها استجابة من الضمير ، لصوت الله فيه .
واستجابة من الإرادة ، لعمل النعمة معها .
إنها عدم مقاومة للروح الذي يعمل فينا لخلاصنا (أع ٧ : ٥١) ، وعدم إحزان
لروح (أف ٤ : ٣٠) ، وعدم إطفاء للروح (١ تس ٥ : ١٩) .

✱ سئل مار اسحق عن التوبة ، فقال : هي قلب منسحق .
إنها النفس المنسحقة الراجعة إلى الله . إنها الركب الجاثية ، والعيون الدامعة ،
والقلوب المنكسرة . إنها أم الدموع والإنسحاق والإلتضاع ، لأن التوبة تلد كل
هؤلاء ... تحطم كبرياء الخاطيء ، وتفتت قلبه الصخري ، وتدخله إلى حياة
الإلتضاع .

قال مار اسحق أيضاً : ذبيحة التوبة التى نقدمها لله ، هى القلب الذى اتضع وانسحق ، وانكسر بدموع الصلاة أمام الله ، طالباً المغفرة عن ضعفه وميل طبيعته .
أوليس هذا أيضاً ما قيل فى المزمور الخمسين - مزمور التوبة - « الذبيحة لله روح منسحق . القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله » .

*** قال الشيخ الروحاني : التوبة هى عذاب عظيم للشيطان مضادها .**
لأنها تخلص وتعتق المسيبين الذين سباهم بشره . وتعبه الذى تعبته فى سنين كثيرة ، تضيقه التوبة فى ساعة واحدة . زرع الشوك الذى زرعه بأرضنا ، ورنى بحرص فى سنين كثيرة ، فى يوم واحد تحرقه وتطهر أرضنا .
إنما تجعل الزناة بتولين .

من لا يحبك أيها التوبة - يا حاملة جميع التطويبات - إلا الشيطان ، لأنك غنمت غناه ، وأضعت كل ما اقتناه .

يا أم الغفران ، إن الآب المملوء رحمة ، لا يغضبك إذا طلبت إليه ، لأنه وهبك أن تكونى شفيعة للخطاة ، وسلم لك مفاتيح الملكوت .

بعد أن زار يوحنا الدرجى دير التائبين ، ورأى إنسحاق نفوسهم بالتوبة ، وشدة جهادهم ، وحرارة صلواتهم ، قال :

طوبت الذين أخطأوا وتابوا ناثحين ، أكثر من الذين لم يسقطوا ولم ينوحوا على أنفسهم .

التوبة هى فرح فى السماء ، وعلى الأرض .
لأنه مكتوب « يكون فرح فى السماء بخاطيء واحد يتوب » (لو ١٥ : ٧ ، ١٠) .
فإن أردت أن تفرح السماء ، تُب ...

وهى فرح على الأرض أيضاً : فرح للتائب وللراعى وللكنيسة كلها .
التوبة فرح لأنها دعوة للمأسورين بالإطلاق (أش ٦١ : ١) .
إنها فرح بالتحرر من عبودية الشيطان والخطية ، وفرح بلذة الحياة الجديدة النقية ، وفرح بالمغفرة ...

*** وفرح لأن التوبة هى حياة النصر أو أنشودة الغالبين .**
فيها ينشد التائب مع داود « مبارك الرب الذى لم يسلطنا فريسة لأسنانهم ...

نَحْتِ أَنْفُسَنَا مِثْلَ الْمَصْفُورِ مِنْ فَخِ الصَّيَادِينَ . الْفَخُ انْكَسَرَ ، وَنَحْنُ نَحْبُونَا » (مَز ١٢٤ : ٧ ، ٦) .

عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ لَيْسَتْ هِيَ الْغَايَةُ فِي الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَإِنَّمَا :

✱ التَّوْبَةُ هِيَ بَدَايَةُ رَحْلَةٍ طَوِيلَةٍ إِلَى حَيَاةِ النِّقَاوَةِ .

التَّوْبَةُ هِيَ بَدَايَةُ الْعَلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ . هِيَ بَدَايَةُ طَرِيقِ طَوِيلٍ غَايَتُهُ الْقُدَّاسَةُ وَالْكَامِلُ . فَالَّذِي لَمْ يَبْدَأِ التَّوْبَةَ حَتَّى الْآنَ ، أَيْ لَمْ يَبْدَأِ أَوَّلَ الطَّرِيقِ ، كَيْفَ تَرَاهُ سَيَصِلُ إِذْنًا إِلَى نَهَائِهِ .

وَالَّذِي يُؤْجَلُ أَوَّلَ خُطْوَةٍ إِلَى حِينِ الشَّيْخُوخَةِ أَوْ سَاعَةِ الْمَوْتِ ، كَيْفَ تَرَاهُ يَصِلُ إِلَى قَوْلِ الرَّبِّ « كُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ ، كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ هُوَ كَامِلٌ » (مَتَّى ٥ : ٤٨) .

نُمُو التَّوْبَةِ وَكَمَالِهَا ..

التَّوْبَةُ كَأَيَّةِ فَضِيلَةٍ ، يَنْمُو فِيهَا الْإِنْسَانُ وَيَتَدَرَّجُ . وَيُظَلُّ يَنْمُو حَتَّى يَصِلَ إِلَى كَمَالِهَا . فَمَا هِيَ نَقْطَةُ الْبَدَايَةِ فِي التَّوْبَةِ ؟ هَلْ هِيَ تَرْكُ الْخَطِيئَةِ مِنْ أَجْلِ غَفَاةِ اللَّهِ .

هَنَّاكَ نَقْطَةُ قَبْلِ تَرْكِ الْخَطِيئَةِ ، وَهِيَ الرِّغْبَةُ فِي التَّوْبَةِ . لِأَنَّ كَثِيرِينَ لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَتُوبُوا . بَلْ يَجِدُونَ لَذَّةً فِي الْخَطِيئَةِ تَدْعُوهُمْ لِلْبَقَاءِ فِيهَا . أَوْ إِنْ طَبَاعُهُمْ جَمِيلَةٌ لَا أَعْيُنُهُمْ لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَغْيُرُوهَا ... لِذَلِكَ فَجَرَدَ الرِّغْبَةَ فِي التَّوْبَةِ هِيَ نَقْطَةُ حَسَنَةٍ ، تَتَلَقَّهَا النِّعْمَةُ الَّتِي تَسْأَلُ : أَتُرِيدُ أَنْ تَتُوبَ ؟ وَتَعْمَلْ عَمَلَهَا فِي الْإِنْسَانِ . وَتَكُونُ أَوَّلَ خُطْوَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ هِيَ تَرْكُ الْخَطِيئَةِ بِالْفِعْلِ .

لَكِنْ أَهَمُّ مِنْ تَرْكِ الْخَطِيئَةِ بِالْفِعْلِ ، تَرْكُهَا بِالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ . فَهَنَّاكَ مِنْ يَتْرَكَ الْخَطِيئَةَ بِالْعَمَلِ . وَلَكِنْ مَحَبَّتُهَا مَاتَزَالُ فِي قَلْبِهِ ، يَحْنُ إِلَيْهَا ، وَيَنْدَمُ عَلَى فُرْصٍ مَعِينَةٍ كَانَتْ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يَخْطِئَ وَلَمْ يَفْعَلْ ! مِثْلَ هَذَا الْإِنْسَانِ ، رُبَّمَا تَرَكَ الْخَطِيئَةَ مِنْ أَجْلِ وَصِيَّةِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ يَكْرَهُهَا ... الْمَفْرُوضُ أَنَّهُ يَتَدَرَّجُ فِي التَّوْبَةِ حَتَّى تَنْتَزِعَ الْخَطِيئَةُ مِنْ قَلْبِهِ .

وكمال التوبة هو كراهية الخطية .

أى يصل إلى الوضع الذى يكره فيه الخطية من كل قلبه ، ويشمئز منها ، ولا يحتاج إلى بذل أى جهد في مقاومتها ، لأنها لم تعد تتفق وطبيعته . وهنا يصل الإنسان إلى حافة النقاوة . ونقاوة القلب موضوع طويل ، سنفرد له فصلاً خاصاً في الباب الرابع (علامات التوبة) ، أو ربما نخصص له الباب الخامس .
على أن ترك الخطية التى تتعب الإنسان ، أو البارزة في حياته ، وكراهيتها ... تأتى بعده درجة أخرى وهى :

ترك الخطايا التى تتكشف له بالثمور الروحية .

ذلك لأن الله منحنو علينا ، لا يكشف لنا كل خطايانا وضعفانا دفعة واحدة حتى لا تقع في صغر النفس . وإنما كلما نسمع عظات روحية ، وكلما نقرأ في كتاب الله وفي الكتب الروحية ، تتكشف لنا ضعفات في أنفسنا وتقصيرات تحتاج إلى علاج وإلى جهاد وإلى توبة .
وهكذا ندخل في عملية تطهير وتنقية ، قد تستمر مدى الحياة .

لأن الشيطان قد يترك ميداناً ، ويحارب في ميدان آخر .

والمفروض أن نكون مستعدين له في كل الميادين . حتى الخطية التى نكون قد استرحنا منها فترة ، قد يعاود القتال فيها . وهذا تستمر التوبة معنا مدى الحياة ...
كما أن التوبة ، لا يجوز أن تقتصر فقط على مكافحة السلبات التى هى فعل الخطايا ، وإنما :

هناك توبة عن النقائص ، الخاصة بالثمور الروحية .

فالمفروض في الثائب أن يصنع ثماراً تليق بالتوبة (متى ٣ : ٨) . وهذا يدخل في ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . فإن كان لا يأتى بشمر ، فهو محتاج إلى توبة ... إلى توبة عن خطية عدم الإثمار ، لأن الكتاب يقول « من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل ، فثلك خطية له » (يع ٤ : ١٧) .

التوبة إذن ليست مرحلة وتنتهى ، إنما تستمر معنا .

لأنه ليس أحد بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض . فكلنا نخطئ ونحتاج إلى توبة . وهكذا تصير التوبة بالنسبة إلينا عملاً يومياً ، لأننا في كل

يوم نخطيء. و«إن قلنا إننا لم نخطيء، نضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١ يو ٨: ١).

إنما هناك فرق بين توبة الخطاة وتوبة القديسين .
الخطاة يتوبون عن خطاياهم كسر صريح للوصايا ، وتدلل على عدم محبة الله .
أما القديسون فيتوبون عن تقصيرات طفيفة سببها الضعف البشري . ويتوبون عن
نقائص يشعرون بها لشهوتهم في حياة الكمال التي يرون طريقه طويلاً أمامهم ،
وما زالت أمامهم مراحل ليعبروها حتى يصلوا ، كل ذلك مع حفظ قلوبهم في محبة
الله .

وقد وضعت لنا الكنيسة صلوات يومية نطلب فيها التوبة .
ففي قطع الأجيبة ومزاميرها كل يوم ، نلاحظ الصلوات الآتية :
١ - الإعراف بالخطية واستحقاق العقوبة ، كما في (مز ٦ ، ٥٠) ، وقطع
الغروب .

٢ - طلب المغفرة ، كما في قطع وتحليل السادسة ، وباقي الصلوات .
٣ - طلب إنقاذ الرب للمصل من الخطية ذاتها ، كما في تحليل الثالثة .
٤ - طلب إرشادات لمعرفة الطريق كما في (مز ١١٩) ، وقطعة (تفضل
يارب) .

٥ - لوم النفس وتبكيها على سقوطها وتهاونها كما في قطع النوم .
٦ - إيقاظ النفس للتوبة ، وتذكيرها بالموت والدينونة وبعث المسيح الثاني ، كما
في قطع النوم ، وأناجيل وقطع نصف الليل .

هذا يدل على أننا نطلب التوبة كل يوم وكل ساعة .
وكمثال لذلك يقول المصل في قطع صلاة النوم «هوذا أنا عتيد أن أقف أمام
الديان العادل مرعوب ومرتعب من أجل كثرة ذنوبي... فتوبني يا نفسي مادمت في
الأرض ساكنة» ، «أى جواب تجيبي وأنت على سرير الخطايا منطرحه، وفي
إخضاع الجسد متهاونة»...

وفي صلاة الغروب «إذا كان الصديق بالجهد يخلص، فأين أظهر أنا
الخطيء؟». وفي صلاة نصف الليل «أعطني يارب ينبيع دموع كثيرة، كما
أعطيت في القديم للمرأة الخاطئة».

وفى صلاة السادسة « مرق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا ونجنا » .
وفى صلاة الثالثة « طهرنا من دنس الجسد والروح . وانقلنا إلى سيرة روحانية
لكى نسمى بالروح ولا نكمل شهوة الجسد » .
ويعوزنا الوقت إن دخلنا فى تفاصيل التوبة فى صلوات الأجيبة ، فهذا يحتاج إلى
كتاب خاص .

بعد كل هذا ، هل يجزئ أحد أن يقول إن التوبة مرحلة إجتزناها وانتهت ،
ودخلنا فى السماويات ، وفى طلب المواهب والمعجزات !!

الذى يظن أنه اجتاز مرحلة التوبة ، لم يفحص ذاته جيداً .
أو لم يفحص ذاته فى ضوء الوصايا ، وبروج الإلتضاع ... من منا مثلاً وصل إلى
عجة الأعداء ؟ (متى ٥ : ٤٤) . أو وصل أن يلهج فى ناموس الرب النهار والليل ؟
(مز ١) . أو من منا وصل إلى الصلاة كل حين دون أن يل ؟ (لو ١٨ : ١) ...
الوصايا كثيرة ، ولم ننفذ منها شيئاً ... أخشى أن أتكلم عن التفاصيل ، فيقع البعض
فى صغر النفس . فالصمت أفضل ...

إذن التوبة لازمة لكل منا ، وفى كل يوم من حياتنا .
ليت كل واحد منا يقرأ ويتأمل فى الدرجات الروحية التى وصل إليها
القديسون ، ليعلم كيف هو خاطئ ! والأعجب أن القديسين الذين وصلوا إلى تلك
الدرجات كانوا يقولون إنهم خطاة ومحتاجون إلى توبة ، وكانوا يكونون على
خطاياهم ... ماذا نفعل نحن إذن ؟!

دعوة إلى التوبة ..

إن الله المحب للبشر ، بدافع من محبته لأولاده ، يدعوهم للتوبة .
ذلك لأنه « يريد أن الجميع يخلصون » (١ قى ٢ : ٤) . وهو لا يشاء أن
يهلك أحد ، بل أن يقبل الجميع إلى التوبة (٢ بط ٣ : ٩) . وهو من أجل خلاصهم
مستعد أن يتغاضى عن أزمنة الجهل (أع ١٧ : ٣٠) . بل إنه يقول فى محبته العجيبة
« هل مسرة أسر موت الشرير ... إلا يرجوعه ... فيحيا » (حز ١٨ : ٣) . هو يحبنا ،
ويريدنا بالتوبة أن نتمتع بمحبته .

يريد بالتوبة أن يشركنا في ملكوته ، ويمتتنا بحبته .

إنها ليست مجرد أوامر يصدرها الله على أفواه أنبيائه القديسين ، بل هي دعوة حب للخلاص «توبوا وارجعوا، لتحى خطاياكم» (أع ٣ : ١٩) . «من رد خاطئاً عن طريق ضلاله يخلص نفسه من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥ : ٢٠) . إذن هذا الأمر من أجلنا نحن ومن خلاصنا ، الذى جعله يتجسد ويتألم لأجلنا ، والذى لا نستطيع أن نناله إلا بالتوبة .

لذلك نرى في دعوته لنا للتوبة ، مشاعر الحب ...

إذ يقول « إرجعوا إلى ، أرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) ، « توبوا وارجعوا » (حز ١٤ : ٦) ، « إرجعوا إلى بكل قلوبكم ... إرجعوا إلى الرب إلهكم » (يوثيل ٢ : ١٢ ، ١٣) . ويقول في محبته على لسان أرمياء النبي «أجعل شريعتي في داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم . وأكون لهم إلهاً ، وهم يكونون لى شعباً ... أصفح عن إثمهم ، ولا أذكر خطيتهم بعد » (أر ٣١ : ٣٣ ، ٣٤) .

وفي دعوته لنا للتوبة ، وعد بتطهيرنا وغسلنا .

إنه يقول « اغتسلوا ، تنقوا ، عزلوا شر أفعالكم ... وهلم نتحاجج يقول الرب : إن كانت خطاياكم كالقرمز ، تبيض كالثلج ... » (أش ١ : ١٦ ، ١٨) . ويقول «أرش عليكم ماءً طاهراً فتطهرون . من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم . وأعطيك قلباً جديداً ... » (حز ٣٦ : ٢٥ ، ٢٦) .

وهو يدعونا للتوبة ، لأننا نحن نحتاج إليها .

فهو يقول « ما جئت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم » (يو ١٢ : ٤٧) ، « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (مر ٢ : ١٧) . نعم إن « إبن الإنسان جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (متى ١٨ : ١١) .

هذه التوبة إذن من صالحنا . وليست أمراً مفروضاً علينا .

ولنا نحن كامل الاختيار . الله يدعونا للتوبة ثم يقول «إن شتم وسمعت ، تأكلون خير الأرض . وإن أبيتم وتمردتم ، تؤكلون بالسيف » (أش ١ : ١٩ ، ٢٠) . والصالح لنا أن نسمع ونطيع ، من أجل نقاوتنا ، ومن أجل أبديتنا ، ومن أجل أن نتمتع بالله .

هوذا الرسول يسمى دعوته لنا للتوبة « خدمة المصالحة » وينادى « تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ ، ٢٠) . فهل نحن نرفض أن نتصالح مع الله ؟! وهل من صالحنا رفض المصالحة ؟!

التوبة نافعة ، مهما كان أسلوبها ، باللين أو بالشدة .
ولهذا يقول القديس يهوذا الرسول « إرحموا البعض مميزين . وخلصوا البعض بالخوف ، محتفظين من النار ، مبغضين حتى الثوب المدنس من الجسد » (يه ٢٢ ، ٢٣) .

كان القديس يوحنا المعمدان شديداً في مناداته بالتوبة (متى ٣ : ٨-١٠) .
ويقول القديس بولس الرسول لأهل كورنثوس « الآن أنا أفرح ، لا لأنكم حزنتم ، بل لأنكم حزنتم للتوبة » (٢ كو ٧ : ٩) . ولذلك كان بعض القديسين في عظاتهم يجعلون الناس يبكون ، وكان ذلك نافعا لهم . كما كانت عقوبات الكنيسة نافعة للتوبة وللخلاص ...

لذلك كانت الدعوة للتوبة ، أهم موضوع في الكتاب .
لكي يتنقى الناس ، ولكي يخلصوا ... ولما كانت التوبة لازمة للخلاص ، لذلك أرسل السيد المسيح قدامه يوحنا المعمدان ، يهتف الطريق أمامه بالتوبة ، فنادى بالتوبة قائلاً « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . هذا الملكوت الذى لا يمكن أن تنالوه إلا بالتوبة . وقدم للناس معمودية التوبة ...

وهكذا عمل التوبة سبق عمل الفداء . والمعمدان سبق المسيح .
والسيد المسيح نفسه نادى للناس بالتوبة « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٤ : ١٧) . وكان يقول « قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مر ١ : ١٥) . ولما أرسل الإثنى عشر « خرجوا يكرزون أن يتوبوا » (مر ٦ : ١٢) . وقبيل صعوده أمر أن « يكرز باسمه للتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من اورشليم » (لو ١٤ : ٤٧) .

كان أول كارز بالتوبة هو نوح . وتبعه أنبياء كثيرون .
مثل أشعيا (أش ١) ، وحزقيال (حز ١٨) ، ويونان (يون ٣) ، ويوثيل

(يوه ٢)، وأرمياء (أر ٣١) ... وهى أيضاً واضحة كل الوضوح فى أسفار العهد الجديد.

والدعوة إلى التوبة هى عمل جميع الرعاة والمعلمين والوعاظ ورجال الكهنوت وكل المرشدين الروحيين ... وهى واضحة فى أقوال الآباء.

لقد اهتم الآباء جداً بالدعوة إلى التوبة :

قال القديس الأنبا أنطونيوس : أطلب التوبة فى كل لحظة .

وقال القديس باسيليوس الكبير : « جيد ألا تخطئ . وإن أخطأت ، فجيد ألا تؤخر التوبة . وإن تبت ، فجيد ألا تعود إلى الخطية . وإن لم تعد ، فجيد أن تعرف أن هذا بمعونة من الله . وإن عرفت فجيد أن تشكره على ما أنت فيه » .

وقال مار اسحق : « فى كل وقت من هذه الأربع والعشرين ساعة من اليوم ، نحن محتاجون إلى التوبة » . وقال أيضاً « كل يوم لا تجلس فيه ساعة بينك وبين نفسك ، وتتفكر بأى الأشياء أخطأت ، وبأى أمر سقطت ، وتقوم ذاتك فيه ... لا تحسبه من عدد أيام حياتك » .

إن الدعوة إلى التوبة لازمة للكل . ومما يستلفت النظر:

إن الدعوة للتوبة ، وجهت حتى إلى ملائكة الكنائس السبع .

فالرب يقول لملاك كنيسة أفسس « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ ٢ : ٥) .

وكلمة « تب » يقولها أيضاً لملاك كنيسة برجامس (رؤ ٢ : ١٦) ، وملاك كنيسة ساردس (رؤ ٣ : ٣) ، وللملاك كنيسة لاودكية (رؤ ٣ : ١٩) . وقد أرسل الله ناثان النبي لينادى بالتوبة إلى داود النبي مسيح الرب ...

إن دعوة الله بالتوبة تحمل شعور الإشفاق على أولاده .

فهو يريد الذين ضلوا أن يرجعوا إليه ، ليكون لهم نصيب فى الملكوت وفى ميراث القديسين ، وفى شركة الكنيسة . لأن السلوك الخاطئ يمنع شركتنا بالله (يو ١ : ٦) ، ومنع شركتنا مع بعضنا البعض « ولكن إن سلكتنا فى النور ، كما هو فى النور ، فلنا شركة مع بعضنا البعض . ودم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية » (يو ١ : ٧) .

والله يقبل التائبين . وأمثلة ذلك كثيرة في الكتاب :

لقد قبل الإبن الضال في سوء حالته (لو ١٥) . وقبل المرأة السامرية التي كان لها أكثر من خمسة أزواج (يو ٤) . وقبل اللص اليمين على الصليب (لو ٢٣ : ٤٣) . وصل من أجل صالبيه لتغفر لهم خطيئهم (لو ٢٣ : ٣٤) . وقبل زكا رئيس العشارين (لو ١٩ : ٩) . ومنحه الخلاص هو وأهل بيته . وقبل متى العشار وجعله رسولاً من الإثني عشر (متى ١٠ : ٣) . ويكنى قوله :

من يقبل إليّ ، لا أخرجه خارجاً (يو ٦ : ٣٧) .

بل أكثر من هذا ، أن الرب هو الذى يقف على الباب ويقرع منتظراً من يفتح له (رؤ ٣ : ٢٠) . فإن كان يفعل هذا ، فبالحرى يفتح لمن يقرع أبواب رحمته الإلهية .

ومن جهة مراحم الرب على الخطاة ، صدق من قال :

إن مراحم الرب أقوى من كل دنس الخطية .

إن أشبع الخطايا وأكثرها - بالنسبة إلى مراحم الله - كأنها قطعة طين قد ألقيتها في المحيط ... إنها لا تعكر المحيط ، بل يأخذها ويفرشها في أعماقه ، ويقدم لك ماءً رائقاً . وقبل الله للتوبة ، إنما يكشف عن أعماق محبته الإلهية .

لذلك لا نستكثر خطيئتنا على فاعلية دمه ...

ولا نستكرها على عظم محبته وعظم رحمته .

وقد قال أحد الشيوخ القديسين : لا توجد خطية تغلب محبة الله للبشر . إنه هو

الذى يبرر الفاجر (رو ٤ : ٥) .

أقول هذا حتى لا ييأس الخطاة إذا نظروا إلى خطاياهم .

لا تيأس ..

في هذه النقطة أذكر خطاباً وصلني من أحد الشبان منذ ٢٢ عاماً .

قرأته فتأثرت كثيراً ، لدرجة أنني بكيت ... ثم أرسلت له رداً ، أذكر أنني قلت له في مقدمته « وصلني خطابك يا أخى المحبوب ، وبخيل إليّ أنني قرأته مراراً قبل أن أراه ... إنه صورة حياة أعرفها ، وقصة قلوب كثيرة ... » .

نعم ، إنها حرب تتعب كثيرين . أفكارها معروفة ، تتكرر في اعترافات الناس وفي أسلثتهم الروحية . وسنحاول أن نتناول هنا كل فكر منها ، لنرد عليه .

١ - الشكوى الأولى : أنا يئست . لا فائدة منى .

إعلم يا أخى أن كل أفكار اليأس هى معاربة من الشيطان . إنه يريدك أن تيأس من التوبة ، سواء من إمكانيتها أو من قبولها ، حتى تشعر أنه لا فائدة من الجهاد ، فتستسلم للخطية ، وتستمر فيها وتهلك نفسك ... فلا تسمع للشيطان فى شيء مما يقوله لك . وكلما تحاربك فكرة من أفكار اليأس ، رد عليها بقول ميخا النبي :

لا تسمى بى يا عدوى ، فإنى إن سقطت أقوم (مى ٧ : ٨) .

واعلم أن اليأس من التوبة ، هو أكثر خطورة من السقوط فى الخطية . وباليأس مات يهوذا هالكاً . واليأس يقود إلى الاندماج فى الخطية بالأكثر ، فيتدرج الخاطيء من سيئ إلى أسوأ . وربما فى اليأس يحاربه الشيطان بأن يبعد عن أب اعترافه ، وعن كل إرشاد روحى وعن الكنيسة كلها ... لكى ينفرد به بلا معونة !! إن حرب اليأس حارب بها الأنبياء والقديسون . فقال داود النبي :

كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه (مز ٣) .

ولكنه يرد على هذا فيقول « أنت يارب هو ناصرى ، مجدى ورافع رأسى ... » . إن داود لم ييأس من سقطته ، بل بكى عليها وتاب . ورد الله إلى رتبته الأولى . بل كان الله يفعل خيرات كثيرة مع عبيدين ، وهو يقول « من أجل داود عبيدى » (مل ١ : ١١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦) .

فلا تيأس إذن ، وتذكر الذين تابوا من قبل ...

وإن كنت قد يئست من نفسك ، فإن الله لم ييأس من خلاصك . لقد خلّص كثيرين ، ولست أنت أصعب منهم جميعاً . وحيث تعمل النعمة فلا مجال لليأس . تقدم إذن إلى التوبة بقلب شجاع ، ولا تصغر نفسك .

٢ - يقول : كيف أتوب ، وأنا عاجز تماماً عن القيام من سقطتى ؟

لا تحف . الله هو الذى سيحارب عنك . والحرب للرب (١ صم ١٧ : ٤٧) . ولا تهتم بمقاومتك ، ضعيفة أم قوية . فإله قادر أن يخلص بالكثير أو بالقليل ... إن

الله أقوى من الشيطان الذى يحاربك ، وسيطرده عنك . فلا تنتظر إذن إلى قوتك ، إنما إلى قوة الله .

واصرخ وقل : توبنى يارب فأتوب (أر ٣١ : ١٨) .

وإن كنت عاجزاً عن أن تقيم نفسك ، فالرب قادر أن يقيمك . إنه هو الذى « يقيم الساقطين ، ويحل المقيدى » (مز ١٤٥) ، « رجاء من ليس له رجاء ومعين من ليس له معين » . كن كالجرىح الذى كان ملق على الطريق بين حى وميت ، عاجزاً عن أن يقوم . ولكن السامرى الصالح أثاه وأقامه (لو ١٠ : ٣٠) ... أو كن كالموق الذين أقامهم الرب ، ولا قدرة لهم ولا حياة .

٣ - تقول : حالى رديئة جداً ، وفاقدة الأمل ...

أثراها فاقدة الأمل ، أكثر من العاقر التى قال لها الرب « ترغى أبنتها العاقر التى لم تلد ... » (أش ٥٤ : ١) . وأعطاها أكثر من ذات البنين ؟! إن حالتك قد تكون فاقدة الأمل من وجهة نظرك أنت . أما الله فله رجاء فيك . لا تجعل أملك إذن فى نوعية حالتك ، إنما فى غنى الله الذى يعطى بسخاء ، وفى حبه وفى قدرته .

٤ - تقول : ولكنى لا أريد التوبة ، ولا أسعى إليها .

طبعاً ، هذا أسوأ ما فى حالتك . ومع ذلك فلا تيأس . يكتفى أن الله يسعى لخلاصك . وهو يريد لك أن تخلص . وصلوات قديسين كثيرين ترفع من أجلك ، مع تشفعات ملائكة . والله قادر أن يجعلك تريد هذه التوبة . وتذكر قول الرسول « لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة » (فى ٢ : ١٣) . صلّ وقل : أعطنى يارب الرغبة فى أن أتوب ...

إن الخروف الضال لم يبحث كيف يرجع ، ولكن صاحبه بحث عنه وأرجعه إليه . وكذلك كان الحال مع الدرهم المفقود (لو ١٥) .

٥ - تقول : هل من المعقول أن أعيش طول عمرى بعيداً عن الخطية ، بينما

قلبي يحبها ؟! لو تبت عنها ، سأرجع إليها !

إن المغالطة التى يلقى بها الشيطان فى اليأس ، هى أنك ستعيش فى التوبة بنفس هذا القلب الذى يحب الخطية ! كلا ، فسيمطيك الرب قلباً جديداً (حز ٣٦ : ٢٦) . وسينزع منك محبة الخطية . وحينئذ لن تفكر أن ترجع إليها . بل على

العكس، إن الله سيجعلك في توبتك تكرة الخطية وتشمئز منها. شعورك الحالي سيتغير...

٦ - تقول : حتى إن تبت ، ستبقى أفكارى ملوثة بصور قديمة .
لا تخف . ففي التوبة سيقى الله فكرك . وتصل إلى «تجديد الذهن» الذى قال عنه الرسول (رو ١٢ : ٢) ... كم كانت الصور الرديئة التى فى ذاكرة أوغسطينوس ، وفى ذاكرة مريم القبطية ! ولكن الرب معاها ، ليتقدس الفكر بحبته ...
وثق أن الذين عادوا للتوبة ، كانوا فى حالة أقوى . بل كثير منهم منحهم الرب مواهب ومعجزات مثل يعقوب المجاهد ، ومريم ابنة أخى إبراهيم المتوحد ، ومريم القبطية ...

والتائب محبته أكثر ، كالحاطة التى أحبت كثيراً ، لأنه غفر لها الكثير (لو ٧ : ٤٧) . ودأود فى توبته كان أعمق حباً واتضاعاً .

٧ - تقول : وهل يغفر الرب لى ؟ وهل يقبلنى ؟

إطمئن ، فإنه يقول « من يقبل إلئى ، لا أخرجه خارجاً » (يو ٦ : ٣٧) . وقد قال داود النبى « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا ... كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . لأنه يعرف جبلتنا ، يذكرنا أننا تراب نحن » (مز ١٠٣) .

إنه لا يقبلنا فقط ، بل يغسلنا فنيض أكثر من الثلج (مز ٥٠) . ولا يعود يذكر لنا خطايانا (أر ٣١ : ٣٤ ، حز ٣٣ : ١٦ ، عب ٨ : ١٢) .
تذكر أن نفسك غالية عند الرب ، من أجلها تجسد وصلب .

٨ - تقول : ولكن خطايائى بشعة جداً ...

أجيبك بقول الكتاب « كل خطية وكل تجديد يغفر للناس » (متى ١٢ : ٣١) . حتى الذين تركوا الإيمان ورجعوا إليه ، غفر لهم . وكذلك الذين وقعوا فى بدع وهرطقات وتابوا ، غفرت لهم . وبطرس الذى أنكر المسيح وسب ولعن وقال لا أعرف الرجل ، غفر له . وليس هذا فقط ، بل أعيد إلى درجة الرسولية والرعاية .
حتى الذين كانوا فى موضع القدوة ، مثل هرون رئيس الكهنة الذى اشترك مع بنى إسرائيل فى صنع العجل الذهبى ليعبدوه (خر ٣٢ : ٢ - ٥) ، لما تاب غفرت

له . وهوشع الكاهن العظيم ، إنتهر الرب من أجله الشيطان ، وألبسه ثياباً جديدة (زك ١: ٤-١) .

٩ - تقول : ولكنى تأخرت كثيراً . فهل هناك فرصة ؟
هكذا قال أوغسطينوس في اعترافاته « تأخرت كثيراً في حبك » . والرب قبله .
إنه قبل أصحاب الساعة الحادية عشرة ، وكافأهم بنفس المكافأة (متى ٢٠ : ٩) .
وقد قبل اللص اليمين على الصليب ، في آخر ساعات حياته . وطالما نحن في الجسد ،
هناك فرصة للتوبة . لذلك نقول في صلاة النوم « توبى يا نفسى مادمت في الأرض
ساكنة... » . لأن الرجاء في التوبة لا يتبدد إلا في الهاوية ، حيث قال أبونا إبراهيم
للغنى « بيننا وبينكم هوة عظيمة » (لو ١٦ : ٢٦) .
فما دمت في الجسد ، أمامك فرصة للتوبة ، فانتزها .

١٠ - تقول أخشى أن تكون خطيئى تحديفاً على الروح القدس .
أقول لك إن التجديف على الروح القدس ، هو الرفض الكامل الدائم مدى
الحياة لكل عمل للروح القدس في القلب ، فلا تكون توبة ، وبالتالي لا تكون
مغفرة . ولكن إذا تبت ، تكون قد استجبت لعمل الروح فيك . ولا تكون خطيئتك
تجديفاً على الروح (١) .

التوبة بين الجهاد والنعمة ..

إن كلامنا عن عمل الله في التوبة ، ومعمونة النعمة ، لا تعنى أن يتكاسل
الإنسان ويترأخى ، منتظراً أن الله يقيمه ، فهذا الرسول يوبخ أمثال هؤلاء قائلاً :
لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .
إذن من المفروض أن يقاوم الإنسان حتى الدم كل أفكار الخطية ، وكل
شهواتها ، وكل طرقها ، ويبعد عن العثرات ، ويستخدم كل الوسائط الروحية التي
تثبت محبة الله في قلبه . وأيضاً...

(١) أنظر كتابنا (سنوات مع أسئلة الناس) من ص ٢١ - ص ٢٣ .

يدخل في حرب روحية ، ضد أجناد الشر (أف ٦) .

وفي هذه الحرب يقاتل ويصمد ، ولا يستسلم للعدو ، ويلبس سلاح الله الكامل لكي يقدر أن يثبت ضد مكاييد إبليس (أف ٦ : ١١) . ويكون في كل ذلك ساهراً على خلاص نفسه (أف ٦ : ١٨) . فالرسول يقول : إصحبوا واسهروا ، لأن إبليس خصمكم كأسد زائر .

فقاوموه راسخين في الإيمان (١ بط ٥ : ٨ ، ٩) .

إن الله يريد منك أن تقاوم ... وفي مقاومتك سوف تسندك النعمة بكل قوة . ولكن إظهر محبتك لله بمقاومتك الخطية . وصلّ ليعطيك الرب قوة على مقاومتها . وهكذا تشترك مع الله في العمل .

الإبن الضال لم ينتظر حتى يأتيه الآب في الكورة البعيدة ليأخذه منها ، إنما رجع إلى نفسه ، وشعر بسوء حالته ، وعرف الحل ، ونفذ ، ورجع إلى الآب فقبله (لو ١٥) . وأهل نينوى صاموا ، وتذللوا ، وجلسوا على الرماد ، وصرخوا إلى الله بشدة ، ورجعوا عن أفعالهم ، فقبلهم الله إليه (يون ٣) .

والله ، لكي ينهنا إلى واجبتنا في التوبة ، يقول :

« إرجعوا إليّ ، فأرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) .

ويقول على لسان أشعياء النبي « إغتسلوا ، تنقوا ، إغزلوا شر أفعالكم ... وهلم نتحاجج يقول الرب ... » (أش ١ : ٦) . ويقول في سفر يوشع النبي « إرجعوا إليّ بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم ... » (يوح ٢ : ١٢ ، ١٣) .

إذن هناك واجب على الإنسان يقوم به في عمل التوبة .

ولا يكفي بأن يلقى نفسه عند قدمي الرب ، دون جهاد في الداخل والخارج ! أو كما يقول البعض « عملك الوحيد هو مجرد تقبل عمل النعمة فيك ! هل هذا الرأي يتفق مع توبيخ الرسول « لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية » (عب ١٢ : ٤) ؟ !

إذن فلنجاهد . ولكن لا نعتمد على أنفسنا ، بل نطلب يد الله العاملة معنا . وبجهادنا نثبت رغبتنا في التوبة ، وجدية توبتنا .

أهمية التوبة ..

أهم ما في التوبة ، أنه بدونه لا يتم الخلاص .
يقول الرب « إن لم تتوبوا ، فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٣) . وقد
« أعطى الله الأمم التوبة للحياة » (أع ١١ : ١٨) .
وقد يقول البعض إن السيد المسيح قدم لنا دمه للخلاص والمغفرة . فما لزوم
التوبة إذن ؟ ألا يكفي دم المسيح ؟ فنجيبه :
إن التوبة هي التي تنقل إستحقاقات دم المسيح في المغفرة .
فالخلاص مقدم للكل . ودم المسيح كافٍ للكل . ولكن لا ينال منه إلا
التائبون . حقاً إن دم المسيح « يطهرنا من كل خطية » ... ولكنه لا يطهرنا إلا من
كل خطية نتوب عنها . وقد اشترط الرسول لهذا التطهير أمرين وهما « إن سلكنا في
النور » (١ يو ١ : ٧) ، وأيضاً « إن اعترفنا بخطايانا » (١ يو ١ : ٩) . وهذان
الشرطان متعلقان بحياة التوبة ...

ولذلك فالتوبة تسبق المعمودية ، إذ فيها مغفرة للخطايا .
وفي هذا قال بطرس الرسول لليهود يوم الخمسين « توبوا وليعتمد كل منكم على
إسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا » (أع ٢ : ٣٨) . والكنيسة في معمودية الكبار
تشرط الإيمان والتوبة والإعتراف . وقوانين الكنيسة تمنع عماد غير التائبين . أما
بالنسبة للصغار ، فيكتفى بطقس (جحد الشيطان) لينوب عن التوبة .

ومن أهمية التوبة ، إنها تلازم الإيمان أو تسبقه .
وقال القديس مرقس الإنجيلي أن السيد المسيح كان يركز قائلاً « قد كمل
الزمان ، واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مر ١ : ١٥) . والإيمان
بدون توبة لا يخلص أحداً ، لأن عدم التوبة يهلك الإنسان (لو ١٣ : ٣) .

والتوبة تسبق تناول من الأسرار المقدسة .
ففي العهد القديم قال صموئيل النبي « تقدسوا وتعالوا معي إلى الذبيحة »
(١ صم ١٦ : ٥) . وفي العهد الجديد يقول القديس بولس الرسول « ... ليمتحن

الإنسان نفسه، وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس. لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق، يأكل ويشرب دينونة لنفسه، غير ميمز جسد الرب... لأننا لو حكننا على أنفسنا، لما حُكم علينا» (١ كو ١١: ٢٧-٣١).

والتوبة تسبق جميع أسرار الكنيسة المقدسة .

وذلك لكى يستحق الإنسان فاعلية الروح القدس فيه . ولكى ينال مغفرة بالتوبة، تؤهله لنعمة الروح القدس العاملة فى الأسرار.

إن توبة الإبن الضال ، سبقت دخوله بيت أبيه (لو ١٥) .

والتوبة هى شرط لازم لمغفرة الخطايا .

وفى ذلك يقول القديس بطرس الرسول « فتوبوا وارجعوا لتحى خطاياكم » (أع ٣: ١٩). وما أجل قول مار اسحق « ليست خطية بلا مغفرة إلا التى بلا توبة ». التوبة إذن لازمة قبل وبعد المعمودية . قبل المعمودية لتؤهل لنوالها . وبعد المعمودية لمغفرة الخطايا التى تحدث بعد المعمودية .

عوائق التوبة ..

لا يوجد شيء يحاربه الشيطان أكثر من التوبة ...

ذلك لأنها تضع كل تبعه السابق . لذلك تبدو أحياناً صعبة على البعض . لأنه حينما يريد الإنسان أن يتوب، يضع الشيطان أمامه كل ما يمكن من العثرات والعراقيل التى تمنع أو تعطل توبته، ومنها:

١ - العثرات ، سواء كانت إغراءات أو فرصاً لم تكن متاحة من قبل، حتى تضعف أمامها الإرادة . ويمكن أن تكون البيئة إحدى العوائق التى تعطل التوبة بما تقدمه من عثرات ومن مفاهيم خاطئة .

٢ - مقارنة الخطيئة نفسه بمستويات ضعيفة .

يظن مع هذه المستويات أنه فى حالة حسنة لا تحتاج إلى توبة، أو تقف أمامه الأعداء، كأن يقول « كل الناس هكذا... فهل أشد عن الكل؟! ». طبعاً ليس عذراً أن تكون الغالبية مخطئة . فقد كان نوح محتفظاً بیره فى عالم كله شر . وكذلك كان يوسف الصديق وموسى النبي فى أرض مصر، ولوط فى سدوم .

٣ - ضعف الشخصية ، بحيث يمكن أن تنقاد للوسط المحيط .

والمفروض أن تكون للإنسان شخصيته الثابتة التي لا تنجرف مع الاتجاه العام .
إن سمكة صغيرة يمكن أن تقاوم التيار وتسير عكسه ، لأن فيها حياة . بينما كتلة ضخمة من الخشب - قدر هذه السمكة مئات المرات - يمكن أن يجرفها التيار ، لأنه لا إرادة لها . فكن قوى الشخصية ليتمكنك أن تتوب . والرسول يقول « لا تشاكلوا هذا الدهر » (رو ١٢ : ٢) .

٤ - التأجيل : إن الشيطان لا يحاربك حرباً مكشوفة بالإمتناع عن التوبة ، بل يدعوك إلى التأجيل بتقديم إغراءات معينة .

وللتأجيل خطورات منها : إن فرص التوبة قد تفلت . وكذلك فإن الخطية كلما استمرت ، تأخذ سلطاناً وتثبت أقدامها . وربما بالتأجيل مجرد الرغبة في التوبة لا توجد ، والتأثيرات الروحية التي تدفع إليها قد تفقد مفعولها .

٥ - اليأس : والشعور بأن التوبة صعبة وغير ممكنة . وكما يقرل يوحنا الدرجي : إن الشياطين - قبل السقطة - يقولون لك إن الله رؤوف ورحيم . أما بعد السقطة فيقولون إنه ديان عادل ، ويخوفونك لتيأس من مغفرة الله فلا تتوب . وقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن عائق اليأس وعلاجه .

٦ - البر الذاتي ، الذي فيه لا يشعر الإنسان أنه مخطيء .

التوبة هي تغيير حياة حياة . والذي حياته جميلة في عينيه ، كيف يغيرها ؟ إنه إن لم يشعر بسوء حالته ، فلا يمكن أن يتوب ويغير حياته .

كذلك لا يتوب ، من لا يبكت نفسه ، ومن يرفض تبكيت الآخرين .

ومن يظن أنه دائماً على حق ، وأن عبارات (توبوا ، وارجعوا) هي موجهة إلى غيره . وكذلك من يترك أذنيه لسماع كلام المديح ويصدق ، ومن يفسر وصايا الله حسب هواه ، ويرفض أن يتبكت ضميره بسببها .

التوبة سهلة للمتواضعين . وصعبة على الأبرار في أعين أنفسهم .

إنها سهلة للعشار المنسحق الشاعر بخطاياها ، وصعبة على الفريسي الذي يفتخر في صلاته قائلاً : أشكرك يارب إني لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطئين الزناة ... التوبة سهلة للمرأة الخاطئة التي بللت قدمي المسيح بدموعها . وصعبة على سمعان الفريسي الذي ظن أنه ليس خاطئاً مثلها . ولذلك حسناً أن الرب أظهر له

أنه هو وهى مديونان . ولكنه ليس له نفس حبا ، إذ يرى دينه أقل بكثير (لو ٧) .
التوبة سهلة على الذين يعرفون أنهم خطاة ، ويعترفون أنهم خطاة .

أما الأبرار فى عين أنفسهم ، فعلى أى شىء يتوبون ؟! مادام لا يعترفون بأنهم
أخطأوا فى شىء ! حقاً : لا يحتاج (الأصحاح) إلى طبيب ، أى الذين يظنون فى
أنفسهم أنهم أصحاء ... !

هؤلاء ، حتى إن جابههم أحد بخطية ، إما أن ينكروها ، أو يفسروها تفسيراً
ملتوياً ، أو يحملوا مسئوليتها على غيرهم ، أو يجادلوا ويرروا أنفسهم ... ولكنهم لا
يعترفون بخطأ ، وبالتالي لا يتوبون ...

ربما الذين يقفون أمام الناس كقدوة لهم ، من الصعب أن يقولوا إنهم
محتاجون إلى توبة . ليت هؤلاء يكونون أيضاً قدوة للناس فى الاعتراف بالخطأ
وبالإحتياج إلى توبة . لذلك نقول إن التوبة قد تكون سهلة للموعوظ ، وصعبة على
الواعظ والخدام والمرشد ومن فى مستواهم .

٧ - من عوائق التوبة أيضاً عدم وجود مخافة الله فى القلب .
وكما قال مار اسحق : حيث لا توجد المخافة ، لا توجد التوبة أيضاً .
البعض ينفرون من المخافة باسم المحبة . ولبعدهم عن المخافة يقيمون فى
اللامبالاة ، ويسقطون فى خطايا . وهذه الخطايا يبرهنون على أنه ليست لهم المحبة
التي تطرح المخافة إلى خارج (١ يوحنا ٤ : ١٨) .
مخافة الله تشعر الإنسان بخطاياه ، فتدفعه إلى التوبة ...
وستقدم لك عنها كتاباً خاصاً إن شاء الله .

التوبة والكنيسة

الكنيسة لها عمل كبير فى توبة كل إنسان : يدخل فى نطاقه عمل التعليم
والإرشاد ، وعمل الرعاية والإفتقاد ، ونقل أعمال الروح القدس وعطاياه من أجل
خلاص كل أحد ، ونقل استحقاقات الدم الكريم .
فالكنيسة هى التى تدعو الخطاة إلى التوبة .

هى التى تقوم بما أسماه القديس بولس الرسول « خدمة المصالحة » و« كلمة المصالحة » تنادى الخطاة أن « تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ - ٢٠) . وذلك عن طريق الوعظ والتعليم ، وتقدم كلمة الله للناس ... وربما لولا عمل الكنيسة هذا ما تاب أحد .

والكنيسة تدعو إلى التوبة فى كل ما تقوم به من أعمال الرعاية .
بزيارة الناس ، وحل مشاكلهم بكل أنواعها ، الروحية والإجتماعية ... كأب حنون يهتم بأولاده ، ويقرهم إلى أبوة الله .

والكنيسة هى الوسط الروحى الذى يساعد على حياة التوبة .
بعيداً عن أوساط العالم المملوءة بالعثرات ، بحيث أن كل من يتوب يجد الكنيسة البيئة الصالحة التى يحيا فيها حياة روحية . وربما لولا الكنيسة ، لكان كل شعور روحى ينبت فى الإنسان تخنقه أشواك العالم فيذبل ويحرف .

والكنيسة تقدم للتائب سر الإعتراف وتمنحه الحل والمغفرة .
وفى سر الإعتراف يشرح التائب كل ما فى قلبه ، وتستريح نفسه من أسرارها المكبوتة ، ويقدم إلى الله كل ضعفاته وسقطاته فى سمع الكاهن ، لينال عنه جلاً من الله ، من فم الكاهن .

وذلك بحكم السلطان الذى قال فيه الرب « من غفرتم له خطاياه ، غفرت له .
ومن أمسكتموها عليه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٣) . وأيضاً بحكم قوله « كل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء . وكل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء » (متى ١٨ : ١٨) .

وهكذا يخرج التائب من اعترافه ، وقد استراح ضميره .
إذ يكون قد سمع كلمة الحل والمغفرة من وكيل الله ، له سلطان أن يقوها ، حسب السلطان المعطى له من الله .

وهكذا يملك السلام على قلبه ، ويبدأ بدءاً جديداً .
والكنيسة فى سر الإعتراف تعطى الإرشاد الروحى .
حسباً قال الكتاب إنه من فم الكاهن تطلب الشريعة (حج ٢ : ١١) ، وهكذا

يشرح الأب لإبنه في الإعراف الطريق الروحي السليم الذي يسير فيه ، لأنه لا يوجد أحد يستغنى عن المشورة ، والكتاب يقول « هناك طريق تبدو للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت (أم ١٤ : ١٢) ، كما يقول « على فهمك لا تعتمد » (أم ٣ : ٥) .

وفي الكنيسة يجد التائب القلب الذي يأتّمه على أسرارهِ .
فالأسرار الشخصية الخاصة بحياة الإنسان الروحية ، والتي تشمل سقطاته وضعفاته ، لا يستطيع أن يأتّم عليها كل أحد . وربما لا يستطيع كتمانها تماماً لأن هذا الكبت قد يتعبه . ولكن عند الأب الكاهن يجد ضمان السرية ، ويجد الحلول الروحية ، ويجد اليد المخلصة التي تقوده في حب وفي إخلاص .

والكنيسة تقدم للتائب كل بركات سر الأفخارستيا .
هذا السر العظيم الذي قال عنه الرب « من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه » و« يحيا بي » (يو ٦ : ٥٦ ، ٥٧) . وخارج الكنيسة لا يجد بركة هذا السر العظيم الذي يعينه في توبته ، ويغذيه روحياً ، والذي « يعطى عنا خلاصاً ، وغفراناً للخطايا ، وحياة أبدية لكل من يتناول منه » (يو ٦ : ٥٤) .

ولكن لعل إنساناً يقول : مادامت التوبة تؤدي إلى المغفرة ، فما حاجتي إلى الكنيسة ، وإلى الإعراف والتناول والتحليل ؟ فنجيبه :

بالتوبة تستحق المغفرة ، وبالإعراف والتناول تناها .
وفرق بين استحقاق المغفرة ونوال النعمة .
كما أن التوبة تشمل في داخلها الإعراف أيضاً . والتحليل جزء من سر التوبة . والتناول امتداد لفاعلية ذبيحة المسيح .

يقول : إن تبت ومت قبل قراءة التحليل ، فما مصيري ؟
إن مت هكذا برحك الله . والتحليل يقرأ عليك في صلاة الجنائز .



الباب الثاني

دوافع التوبة

الفصل الأول : إن عرفت من أنت ، تسمو عن الخطية ..

الفصل الثاني : إن عرفت ما هي الخطية تهرب من الخطية ..

الفصل الثالث : إن عرفت نتائج الخطية ، تنفر من الخطية ..

الفصل الرابع : إن عرفت عقوبة الخطية ، تخاف من الخطية ..

الفصل الخامس : دوافع أخرى للتوبة ..

الفصل الأول

نريد أن نجعل توبتنا مبنية على أساس سليم ،
وعلى فهم صحيح للحياة الروحية والعلاقة مع الله .
وأهم دافع لنا إلى التوبة هو أن نعرف قيمة أنفسنا ،
أن يعرف الواحد منا مقدار نفسه ، ومن يكون ...
فاعرف يا أخى نفسك : من أنت ؟

ان عرفت من أنت

تسمو عن الخطية

فلو عرفت المقدار العظيم الذى لك ، والمركز الكبير الذى تشغله ، لكنت تربأ
بنفسك السامية أن تنزل إلى مستوى الخطية . وهكذا لا يمكن أن تسقط ...
فن أنت ؟

انت نعمة قدسية قد خرجت من فم الله

أنت يا أخى لست حفنة من تراب كما يظن البعض ... أنت نفخة قدسية
خرجت من فم الله وحلت فى التراب . وهكذا صرت « نفساً حية » (تك ٢: ٧) .
ولست مجرد تراب أو طين ... يليق بك إذن أن تغنى فى فرح وتقول :

أنا فى الطين سكنتُ	ما أنا طين ولكن
من فم الله خرجت	لست طيناً أنا روح
أحيأ حيث كنت	وسامضى راجعاً لله

إن وجودك فى هذا التراب - أيها الأخ المبارك - هو مجرد فترة غربة قصيرة ،
ترجع بعدها إلى الله ، وتثبت فيه إلى الأبد . فاعرف غربتك ، وعش كروح ، تسمو
عن المادة والعالم وأعمال الجسد ...

أنت ابن الله ، أنت صورته ومثاله

أنت - يا أخى - صورة الله . فهكذا قال الكتاب فى قصة الخلق « وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

فإذا كنت أنت صورة الله وشبهه ، فكيف تخطيء ؟! هل إذا تدنست بالخطية تظل محتفظاً بصورتك الإلهية ؟! كلا ، طبعاً . إذ لا يمكن أن يراك إنسان فى النجاسة والسقوط ويقول « هذا صورة الله »! ...
لذلك فإن القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه « تجسد الكلمة » ، يقرر أن الإنسان عندما سقط ، تشوه ، وفقد صورته الإلهية . وأتى السيد المسيح ليعيد إلينا صورتنا الأصلية ...

لوعرفت أنها الأخ أنك صورة الله ، لا يمكن أن تخطيء ...
ولو عرفت أنك ابن الله ، فلن تخطيء كذلك ، لأن الابن يجب أن يشبه أباه ...

ما أسهل أن نفتخر افتخاراً باطلاً ونقول إننا أولاد الله ، وأعمالنا لا تدل على ذلك ... كما كان اليهود يفتخرون باطلاً بأنهم أولاد إبراهيم ، وأنجبل الرب كبرياءهم بقوله « لو كنتم أولاد إبراهيم ، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم » (يو ٨ : ٣٩) . فإن كان أولاد إبراهيم يجب أن يعملوا أعمال إبراهيم ، فكيف يجب أن يكون أولاد الله الذين على صورته ومثاله ؟ ...

هل غن غنيا كأولاد الله ، حتى ندعى أولاده ؟
ما أسهل أن نخاطب الله فى صلواتنا قائلين « أبانا الذى فى السموات » ، ونحن لا نسلك كبنين لذلك الأب السماوى !!

تذكر يا أخى باستمرار أنك ابن الله ، واسلك فى حياة البر حتى تستحق أن تدعى ابناً لذلك البار ، واضعاً أمام عينيك قول الكتاب « إن علمتم أنه بار هو ، فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١ يو ٢ : ٢٩) .
إذن إن كنت لا تصنع البر ، فلست تستحق أن تدعى ابناً لله ...

أخاف أن تكون عبارة « أولاد الله » سبب تبكيت لنا ، ههنا وفي اليوم الأخير ... من أجل هذا يشرح لنا القديس يوحنا الرسول هذا الأمر فيقول « أيها الأولاد ، لا يضلكم أحد . من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار . من يفعل الخطية فهو من إبليس ، لأن إبليس من البدء يخطيء » (١ يوحنا ٣ : ٧ ، ٨) ، أى أن من يفعل الخطية ، هو ابن للشيطان ، هو من إبليس وليس من الله ... يا للهول !

ثم يسجل لنا الرسول قاعدة جوهرية يقول فيها :
« كل من هو مولود من الله لا يفعل الخطية ، لأن زرعته يثبت فيه . ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله » (١ يوحنا ٣ : ٩) .

بهذا المقياس يمكنك أن تقيس أيها الأخ نفسك عندما تقول إنك ابن الله . وهكذا فإن الرسول يختم كلامه بقوله « بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) ... » (١ يوحنا ٣ : ١٠) .

إن شعورك بأنك ابن الله ، يذكرك بالطبيعة السامية التي وضعها الله فيك ، والتي عناها الرسول بقوله عن المولود من الله أن « زرعته يثبت فيه » . لذلك قال أيضاً « المولود من الله يحفظ نفسه ، والشرير لا يمس » (١ يوحنا ٥ : ١٨) .

ففي كل مرة تخطيء ، ينبغي أن تنسحق في أعماقك ، شاعراً أنك غير مستحق للقلب ابن الله .

لذلك فإن الكنيسة المقدسة تجعل المصلّي يقول للرب كل يوم في صلاة الغروب « أخطأت إلى السموات وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً » . ولماذا « لست مستحقاً أن أدعى لك ابناً » ؟ ... لأنني أخطأت ، والمولود من الله لا يخطيء ...

لا بد أن نفهم جيداً المعنى العملي لبنتوتنا لله ...
ندخل إلى أعماق هذا القلب . ونسأل أنفسنا في كل عمل نعمله ، وفي كل كلمة نقولها ، وفي كل فكر نرضى به ... هل نحن نعمل ونتكلم ونفكر ، كما يليق بأولاد الله ؟ ... إن بنوتنا لله ليست مجرد لقب . وإنما يجب أن نسلك بما تتطلبه هذه البنوة من مشابة الإبن لأبيه ...

إن « الله روح » (يو ٤ : ٢٤) . « والمولود من الروح هورج
(يو ٣: ٦). فإن كنت أيها الأخ إنساناً جسدانياً ، تمالك حسب الجسد وليس
حسب الروح ، فكيف تكون ابناً لله الذى هورج ؟ وكيف تكون مولوداً من
الروح ...

إن الذى يعيش فى الخطية ، لا يستطيع مطلقاً أن يقول إنه ابن الله ، بل لا
يستطيع أن يدعى أنه يعرف الله ، مجرد معرفة ... وهذا يوضحه الرسول فى عبارته
المخيفة التى يقول فيها :

« كل من يخطف ، لم يبصره ولا عرفه » (١ يو ٣ : ٦) ... لأنه « من
قال قد عرفه - وهو لا يحفظ وصاياه - فهو كاذب وليس الحق فيه » (١ يو ٢ : ٤)
هل فى حياة الخطية يمكنك أن تقول : أنا أعرف الله ؟ كلا ، إنه يبيحك ويقول :
إذهب عني ، لا أنا أعرفك ، ولا أنت تعرفني ...

لذلك يا أخى ، إن تذكرت أنك ابن الله ، فينبغى أن تسلك كما يليق بالدعوى
التي دعيت إليها (أف ٤ : ١) . أسلك مثله ، فى طريقه « كما سلك ذاك تسلك أنت
أيضاً » (١ يو ٢ : ٦) . كما عاش المسيح على الأرض ، تعيش أنت ... فى ملء
القداسة ، فى ملء الطهارة ، فى ملء البركة ... لأنه ترك لك مثلاً تحتذي به
(يو ١٣ : ١٥) ...

أما إن عشت فى الخطية ، فتأكد فى أعماقك أنك لا تستحق البنة لله ، لأن
صورة أولاد الله ليست هكذا ...

وفى كل مرة تقول له « أبانا الذى فى السموات » ، ينبغى أن يوبخك
ضميرك ، وتنسحق فى داخلك ، وتقول له : إن كان من تواضعك يارب ومن
عبتك ، قد دعوتنى ابناً لك ... إلا أننى بأعمالى برهنت على أننى لا أستحق أن ادعى
لك ابناً ... إجعلنى كأحد أجرائك ... إن أبوتك لى - وإن كانت تشرفنى جداً - إلا أنها
تسحقنى حقاً ، وتشعرنى بالفارق الكبير بين ما أنا كائن فيه وما ينبغى أن أكونه ...

أنت يا أخى لست فقط إبن الله ، ونفخة قدسية قد خرجت من فم الله ، وإنما أنت أيضاً هيكل لله ، والله يسكن فيك . وهكذا يقول لنا الرسول «أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله ساكن فيكم . إن كان أحد يفسد هيكل الله ، فسيفسده الله . لأن هيكل الله مقدس الذى أنتم هو» (١ كو٣: ١٦، ١٧) . «أنتم هيكل الله الحى . كما قال الله إني سأسكن فيهم وأسير بينهم» (٢ كو٦: ١٦) ...

شهوة الله منذ البدء أن يسكن فيك ، ينظر إلى قلبك ويقول «ها هو موضع راحتي إلى الأبد . ههنا أسكن لأنى اشتيتته» (مز١٣٢: ١٤) ... تقول له «عندك يارب الكنائس ، عندك الهياكل والمذابح . سكناك فى السماء ، وسواء السموات هى عرشك» فيقول لك : ولا واحدة من هذه تعجبنى مثل سكنائى فى قلبك «يا إبنى أعطنى قلبك» (أم٢٣: ٢٦) ...

أنت أيها الأخ المبارك أهم عند الله من كنيسة مبنية ... إن تهدمت إحدى هذه الكنائس فما أسهل على البشر أن يعيدوا بناءها ، بجمع المال تبني ... أما إذا تهدم إنسان مثلك ، فلا يمكن أن يعاد بناؤه إلا بدم المسيح . لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا رئيس آباء ولا نبيأ ، يقدر أن يردك إلى ربتك الأولى ، ليس غير دم المسيح ، فبدونه لا يكون لك خلاص ... أنت يا أخى أهم عند الله من كنيسة مبنية . أنت كنيسة حية ، أهم من الطوب والحجارة ، أنت هيكل للروح القدس ...

لقد سمح الله أن يتحطم هيكل سليمان ، ولا يترك فيه حجر إلا وينقض ... أما أنت فن أجلك أرسل الله الرسل والأنبياء والملائكة ، وعين الرعاة والكهنة والمعلمين ، ورتب كل وسائل النعمة ، وقدم استحقاقات الفداء العظيم «لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦) .

إن كنت إذن بيتاً لله ، والله يسكن فيك ، فتذكر قول الكتاب «بيتك يارب تليق القداسة» (مز٩٣: ٥) . واعرف أنك بالخطية تنجس بيت الله ، الذى هو أنت ...

أذكر إذن قول الرسول : « كنونوا أنتم أيضاً مبنيين - كحجارة حية - بيتاً روحياً ، كهنوتاً مقدساً ، لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح » (١ بط ٢ : ٥) ...
إن السيد المسيح يبحث عن مكان يسكن فيه ، وهذا المكان هو أنت . وعندما قال الرب عن نفسه أنه « ليس له أين يسند رأسه » (لوقا : ٩ : ٥٨) ، لم يكن يقصد فقط البيوت المادية ، وإنما بالأكثر قلوب الناس ...

إن قلبك هو المكان الذي يريد الرب أن يسند فيه رأسه ... حقاً إن لذته في بنى البشر ... (أم ٣١ : ٨) . وهو ما يزال يقرع على بابك لتفتح له ... وفي اشتياقه إلى قلبك يقول « إن أحبنى أحد يحفظ كلامي ، ويحبني أبى ، وإليه أنقى ، وعنده تصنع منزلاً » (يوحنا : ١٤ : ٢٣) . وهكذا يأق الآب والإبن ويسكنان في قلبك ، وأنت من قبل هيكल للروح القدس ...

فيصير قلبك بهذا الوضع مسكناً للثالوث القدوس ... هنا ويعقد الصمت لساني ، هبة ، وإجلالاً ، لهذا القلب المقدس ... « ما أروع هذا المكان !!! ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء » (تك ٢٨ : ١٧) ... هذا هو المسكن الإلهي العجيب الذي يأتي إليه الله من بعيد « طافراً على الجبال ، قافراً على التلال » (نش ٢ : ٨) ، ينادى نفسك الغريزة في حب « افتحي يا أختي ، يا حبيبتي يا حامتي ، يا كاملاتي ، لأن رأسي قد امتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) .
فإلى متى تنتظر يا أختي ولا تفتح ... !

تصور يا أختي أن الله الذي لا تسعه السموات كلها ، ولا الكون أجمعه ، الله الذي قال عنه داود « للرب الأرض وملؤها ، المسكونة وكل الساكنين فيها » (مز ٢٤ : ١) ، الله هذا يقرع على بابك ، ويشتهيك مسكناً له ... هو يريد أن يعيش في قلبك ، وتعيش أنت في قلبه ، يثبت فيك وأنت فيه ، وتصير كنيسة مقدسة له ...

أذكر أنني في يوم ما أرسلت خطاباً إلى أحد الأخوة الباركن ، قلت له فيه « سلم على الكنيسة المقدسة التي في قلبك » . لأنني كنت أعرف أن في قلبه كنيسة تصعد منها رائحة بخور ، وتخرج منها ألحان وتسابيح ، وترتفع فيها ذبائح روحية ... ألم يقل المرتل « فلتستقم صلاتي كالبخور قدامك ، وليكن رفع يدي ذبيحة مسائية » (مز ١٤١ : ٢) .

إن عرفت يا أختي هذا ، أنك هيكل للروح القدس ، فلا تغطي ، لئلا تحزن روح الله الذي فيك وتغطي حرارته ...

بل إن أتاك الشيطان يوماً بخطية ، تقول له :

إذهب عني بعيداً ، فلست أنا لك ...

أنا بيت لله ، أنا مسكن لله ... أنا موضع مقدس للرب ...

أنا الذي يقرع الله على بابي ، لكي أفتح له ...

أنا هيكل للروح القدس ، أنا كنيسة مقدسة ...

أنا الذي يأتي إليه الآب والإبن ، وعنده يصنعان منزلاً ...

أنا مسكن للمثلوث القدوس ..

هل أنا شيء هين ، يمكن أن ينجسه الشيطان ؟! كلا ،

أنا سماء ثانية ... عرش لله يجلس عليه ...

أنت يا أختي لست هذا كله فقط ، بل أيضاً :

أنت أخت للمسيح ، شريك للمسيح ، وراثة معه

تواضع عجيب من الرب أن يدعونا أخوة له ... نحن لا نجرؤ أن نناديه بهذا اللقب ، لأننا لم نصل إلى مستوى العبيد الباطلين الذين فعلوا كل ما أمروا به (لوقا : ١٧ : ١٠) . ولكننا أمام تشريفه لنا ، يجب أن نسلك كما يليق بالدعوة التي دعينا إليها ...

عجيب أن يقال عن الرب الإله إنه « بكر وسط أخوة كثيرين » (روا : ٢٩) ... أخوة كثيرين ؟! يا للعجب ... ! والعجيب أيضاً أنه « لا يستحي أن يدعوهم أخوة » (عب ١١ : ٢) . وأعجب من الكل أن يقال عنه أنه « يشبه أخوته في كل شيء » (عب ١٧ : ٢) ... وهكذا نرى السيد المسيح يقول للمرعتين « إذهبا قولا لأخوتي أن يمشوا إلى الجليل ، هناك يرونني » (متى ٢٨ : ١٠) . ويكرر نفس العبارة للمجدلية « إذهبي وقولي لهم » (يو ٢٠ : ١٧) .

ولم يقل هذا التعبير عن الرسل فقط ، بل قاله عن الكل ... « من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى ، وأختى ، وأمى » (متى ١٢ : ٤٨) . وقال عن الخير الذى يعمل مع الفقراء والمساكين « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر فى قد فعلتم » (متى ٢٥ : ٤٠) .

إذن فأنت يا أخى للمسيح ، وأنت أيضاً وريث معه ... للمواعيد ، وللمجد العتيد . إن كان قد قيل عنه فى مثل الكرامين الأردباء إنه هو الوارث (متى ٢١ : ٣٨) ، فقد قيل كذلك «إننا ورثة أيضاً ، ورثة الله ، ووارثون مع المسيح » (رو ٨ : ١٧) .

إعرف يا أخى إذن مقدارك من أنت : أنت أخ للمسيح ، وأنت وريث معه وليس هذا فقط بل أنت شريك له كذلك ...

« إن لنا شركة معه » (١ يوحنا ١ : ٦) . إنه اشترك معنا فى اللحم والدم (عب ٢ : ١٤) . ونحن إنما نؤدب « لكى نشترك فى قداسه » (عب ١٢ : ١٠) . نشترك معه فى الآمه ، لكى نشترك فى الفرح باستعلان مجيئه (١ بط ٤ : ١٣) . قد دفنا معه (فى المعمودية) لكى نقوم معه (رو ٦ : ٤ ، ٥) . وسنعيش حياتنا عاملين معه (١ كو ٣ : ٩) . ونتألم معه ، لكى نتمجد معه (رو ٨ : ١٧) . وسنأتق مع على السحاب (يه ١٤) ونكون معه فى كل حين (١ تس ٤ : ١٧) وحيثما يكون هو نكون نحن أيضاً (يو ١٧ : ٢٤) .

إنها شركة لك مع المسيح تبدأها الآن أيها الأخ المبارك وتستمر معك إلى الأبد . فاحرص على هذه الشركة المقدسة لأنك بالخطية تفقدها .

إنك لا تستطيع أن تستمر شريكاً للمسيح إن كنت تسير فى الخطية ... لأن الكتاب حينئذ سيوبخك بقوله «أية خلطة للبر والإثم ١؟ وأية شركة للنور مع الظلمة ١؟ وأى اتفاق للمسيح مع بليعال ١؟ ...» (٢ كو ٦ : ١٤ ، ١٥) . إنك عندما تفعل الخطية ، تكون كمن يقول للرب : لقد فككت الشركة التى بينى وبينك . وقد بحثت لى عن شريك غيرك . أنا الآن شريك للشيطان ، ولم أعد شريكاً لك بعد ... ! أنظروا أى مجد يكون لنا عندما نسير فى طريق الله ، وأى نزول وانحدار وسقوط عندما نبعد عنه ...

فكيف يمكن أن تفعل الخطية ، أنت يا شريك المسيح ، شريكه في العمل وفي الآلام وفي المجد؟! أنت الذى تلبس المسيح في المعمودية (غل ٣: ٢٧) ، ونحميا ، لا أنت ، بل المسيح الذى يحيا فيك (غل ٢: ٢٠) ...
وأنت لست فقط شريكاً للمسيح وإنما أيضاً :

أنت شريك للروح القدس ، شريك للطبيعة الإلهية

وهكذا فإنه من البركة التى يعطينا إياها بولس الرسول أن تكون «شركة الروح القدس ، مع جميعنا» (٢ كو ١٣: ١٤) . هذه البركة التى نأخذها من الكنيسة في آخر كل اجتماع ، وفي بداية القداس أيضاً ...

أنت شريك للروح القدس ، ليس في الجوهر ، وإنما في العمل . إنه يعمل فيك ، ويعمل معك ، ويعمل بك ، من أجل خلاص نفسك ، ومن أجل خلاص الناس ، في نشر ملكوت الله ، وفي بنيان جسد المسيح . أنت لا تعمل وحدك ، وإلا كنت معتمداً على ذراعك البشرية ، «وإن لم يكن الرب البيت ، فباطلاً تعب البنائون» (مز ١٢٧: ١) . الروح القدس هو يشترك معك في العمل ... وهو لا يعمل وحده ، وإنما يشرك معك ، لتأخذ بركة ... أنت إذن شريك للروح القدس ، شريك للطبيعة الإلهية ، في العمل ...

والروح القدس يعمل معك دائماً للخير . وعندما تعمل الشر أو الخطية ، إنما تعمل وحدك ، وتكون قد رفضت شركة الروح القدس ...

لذلك يقول الكتاب عن حالة الخطية «لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم» (أف ٤: ٣٠) ، ويقول أيضاً «لا تطفئوا الروح» (١ تس ٥: ١٩) . وإذا استمر الإنسان في حالة الخطية ، فربما يتعرض لما خاف منه داود النبي حينما قال «روحك القدوس لا تنزع مني» (مز ٥٠: ١١) ...!

يا أخشى ما أعجب أن يقال عنك أنك «شريك الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١: ٤) ... بل ما أعجب أن يعاتبنا الرب بقوله : «أنا قلت أنكم آلهة (١) ، وبنو

(١) ليس معناها أننا آلهة ، من طبيعة الله ، وإنما من حيث أننا صورة الله ومثاله . آلهة هنا بمعنى سادة ، كما قال الرب لموسى «قد جعلتك إلهاً لفرعون» (خر ١٧: ١) . ليس كخالق له ، حاشا ، إنما كسيد له ...

العلی کلکم» (مز ۸۲: ۶) ... یا لهذا المركز الكبير، و یا لهذه الشهادة العظيمة... ! أو بعد هذا كله نخطيء؟ أیصح أن نخطيء إله؟! ویتمرغ فی الدنس، وفي التراب، وفي النجاسة...!

هل عندما نخطيء تكون شريكاً للطبيعة الإلهية؟! كلا، بل شريكاً للشيطان لأن الكتاب يقول «الذى يفعل الخطية هو من إبليس، لأن إبليس من البدء يخطيء». بهذا أولاد الله ظاهرون، وأولاد إبليس (ظاهرون)» (۱ یو ۳: ۱۰). إننا عندما نخطيء ننسى مجدنا العظيم، ونفقد مراكزنا... ولذلك فإن الله بعد أن قال لنا «أنا قلت إنكم آلهة...» أكمل قائلاً «ولكنكم مثل البشر تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون» (مز ۸۲: ۷)... ومن هو هذا الرئيس الذى سقط؟ إنه الشيطان، الذى كان قبلاً رئيس ملائكة...!

إن الإنسان الذى يخطيء، هو إنسان لا يعرف مقدار ذاته. لذلك قيل عن الخاطئ إنه جاهل. عجيب أنه بعدما أكل من شجرة المعرفة صار جاهلاً! لأنه التمس المعرفة بعيداً عن الله، أو التمس معرفة تفصله عن الله. فلا يعرف ما هى ذاته، ولا من هو الله، ولا ما هى العلاقة بينها...

يا أخى، إعرف ذاتك، من أنت، حينئذ لا تخطيء...

أنت عضو جسد المسيح، من لحمه وعظامه

إن الكنيسة هى جسد المسيح، والمسيح رأسها. ونحن - جماعة المؤمنين - هم الكنيسة. إذن فنحن جسد المسيح (أف ۴: ۱۱). بل إننا «أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه» كما يقول الرسول (أف ۵: ۳۰).

كل عضو فيك، هو عضو المسيح. ولذلك ففى كلام الرسول عن خطية الزنى قال «أستمت تعلمون أن أجسادكم هى أعضاء المسيح. أفأخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية؟! حاشا...» (۱ كور ۶: ۱۵).

فكيف نخطيء ونحن جسد المسيح؟!

كيف نخطيء إلى الرب الذى يعتبرنا كشخصه تماماً ، كل ما يمينا يسه ؟! ...
أليس أنه عندما عاتب شاول الطرسوسى ، لم يقل « لماذا تضطهد المؤمنين » ، وإنما
قال له « لماذا تضطهدنى » (أع: ٩: ٤) ، لأنه يعتبرنا كشخصه تماماً . وعندما يطوب
الرحماء فى اليوم الأخير ، سوف لا يقول لهم : أنتم أطعمتم الجياع وسقيتم العطاش ،
وإنما سيقول لهم « كنت جوعاناً فأطعمتمونى ، وعطشاناً فسقيتمونى »
(مت: ٢٥: ٣٥) . إلهنا هذا المحب ، الذى يعتبرنا كشخصه تماماً ، كيف يمكن أن
نخطيء إليه ، ونجرح قلبه الحساس الخنون ؟!

إن الشخص الخاطيء ، إنما يقطع ذاته من جسد المسيح ، لأن جسد المسيح
مقدس كله ...

وعصويتنا فى جسد المسيح بوضوحها قوله « أنا هو الكرمة ، وأنتم
الأغصان » (يو ١٥: ٥) ، فعمارة الكرمة تصعد وتسرى إلى الأغصان فتمنحها
الحياة ... وكل غصن فى الكرمة تكون له صورة الكرمة ، وله ثمر الكرمة ، وله طبيعة
الكرمة ، فهو صورة مصغرة من الكرمة نفسها ، وهو والكرمة شئ واحد .

فهل أنت غصن حقيقى فى هذه الكرمة الإلهية ؟ وهل أنت تصنع ثمرأ
بليق بغصن حى ؟ إن المفروض فى أغصان الكرمة أن تعطى ثمارأ تماثلها ، أن
تثمر عنبأ يفرح الرب به ويشرب من نتاجه جديداً فى ملكوت الآب
(مت: ٢٦: ٢٩) . ماذا تظنه كان يقصد عندما قال للمرأة السامرية « أعطينى
لأشرب » (يو: ٤: ٧) . أترأه كان يريد منها ماءً ، أم كان يريد أن يشربها هى ،
كان عطشاناً إلى نفسها ليضمها إلى ملكوته . كان يريد أن يشرب من نتاج
الكرمة ، من عصيره الذى سكب فى قلب تلك المرأة ...

فهل تسرى فيك عصارة الكرمة أيها الأخ المبارك ؟ هل تمشى عصارتها فى كل
عروقك ، وتجعلك تروق وتثمر ؟ وهل أنت تثمر عنبأ أم شوكأ ؟ فإن كنت تعطى
شوكأ ، فلست إذن عضواً فى الكرمة . وبقينا أن العصارة التى تسرى فيك ليست
هى من الكرمة ... إعلم إذن أن الغصن الذى لا يصنع ثمرأ ، لا ينفع ولا يصلح ،
بل يقطع ويلقى فى النار (يو ١٥ : ٦) ...

وإذا قطع ، لا يصبح بعد عضواً فى الكرمة ... لقد انتهى أمره !!

إن الإنسان السائر في الخطية ، هو غصن معاند ، قد رفض عصارة الكرمه ، رفض أن تسرى العصارة في عروقه ، فجف وسقط ، أو قطع وأتى في النار . أما الصالح ، فهو على العكس يفتح شرايينه جيداً لكي تدخل فيها عصارة الكرمه ، وبهذا ينتج ثمرأ ، فينقيه السيد الرب ليأتي بثمر أكثر...

ما هو نتاج الكرمه الذى تريد أن تشربه منا يارب ؟
هو ثمركم ، أريد أن أتغذى بثماركم ، بثمر الروح فيكم (غل ٥: ٢٢) . هذا الثمر هو عمل الله فيكم . هو نتيجة تمشى عصارى في عروقكم . من أجل هذا إن تذكرتم على الدوام أنكم أغصان في كرمي ، وأعضاء في جسدي ، فليس فقط سوف لا تحطون ، وإنما بالأكثر سوف تثمرون ، وأفرح بثماركم .
هل عرفت يا أخى مقدارك العظيم . أنت لست فقط عضواً في جسد المسيح ، إنما أيضاً :

أنت تشارك جسد الرب وتناول دم

أنت تأكل جسد المسيح وتشرب دمه ، فتثبت فيه ، ويجرى في عروقك دم المسيح الطاهر النقي القدوس . ما أسماك وما أطهرك ! ... كتب أحد الأشخاص في مذكرته بعد تناوله :

هذا الفم المقدس الذى تناول جسد الرب ودمه :
كلمة زائدة لا تخرج منه ،
ولقمة زائدة لا تدخل فيه ...

تذكر يا أخى باستمرار أن فك يتناول جسد الرب ودمه ، حينئذ لا يمكن أن تخرج منه شتيمة ، أو أغنية عالمية ، أو مزاح باطل ، أو كذب ، أو قسم ، أو غضب ، أو باقى خطايا اللسان ...

وتذكر أن جسدك هذا يحل فيه جسد المسيح ، حينئذ تخاف أن تنجس هذا الجسد أو تجعله أداة للخطية ...

أيها الأخ المبارك ، لا تنس نفسك ، أذكر من أنت ، وماذا يليق بك ، فلا تخطئ ...

الفصل الثاني

لكي يتوب الإنسان ، لا يكفي أن يعرف من هو ...
إنما يجب أن يعرف أيضاً ما هي الخطية ...
ما هي طبيعتها الخاطئة ، وعقوبتها ، ونتائجها ، وأضرارها ...
لذلك نقول لك :

أن تعرف ما هي الخطية

تهرب من الخطية

الخطية هي موت ..

حقيق أن « أجرة الخطية هي موت » (رو ٦ : ٢٣) ، « والخطية إذا
كملت تنتج موتاً » (يع ١ : ١٥) . ولكن بالإضافة إلى أن عقوبة الخطية هي
الموت ، نقول إن الخطية ذاتها هي حالة موت ، موت أدبي وروحي .

والشواهد على ذلك كثيرة :

ففي مشال الإبن الضال ، قال الأب « لأن إبني هذا كان ميتاً فعاث ، وكان
ضالاً فوجد » (لو ١٥ : ٢٤) . فوصفه بأنه في حالة الخطية « كان ميتاً » . ولم يصبح
حيّاً إلا بعد رجوعه ...

والقديس بولس الرسول يقول عن الأرملة المنتعمة إنها « ماتت وهي حية »
(١ تي ٥ : ٦) . كما يقول عنا جميعاً « كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا » (أف ٢ :
١) . « ونحن أموات بالخطايا ... » (أف ٢ : ٥) .

وعندما أخطأ ملاك (راعي) كنيسة ساردس ، أرسل إليه الرب رسالة على فم
القديس يوحنا الراثي يقول له فيها « أنا عارف أعمالك ، أن لك إسماعاً أنك حي
وأنت ميت » (رؤ ٣ : ١) .

فالإنسان الخاطيء هو شخص ميت ، لأنه انفصل عن الحياة الحقبة
بانفصاله عن الله ، والله هو الحياة...

ألم يقل السيد المسيح « أنا هو القيامة والحياة » (يو ١١: ٢٥) . « أنا هو
الطريق والحق والحياة » (يو ١٤: ٦) . حقاً « فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور
الناس » (يو ١: ٩) . فالذى انفصل عن المسيح بالخطية ، إنما يفصل عن الحياة ،
فيفقد ميته ، مهما كانت فيه أنفاس تتردد . لذلك صدق القديس أوغسطينوس عندما
قال :

موت الجسد ، هو انفصال الروح عن الجسد ،
وموت الروح ، هو انفصال الروح عن الله .

فالخاطيء إذن هو إنسان ميت ، مهما ظن أنه حي وأنه يتمتع بالحياة !! إن
الخطاة لا يفهمون الحياة فهماً سليماً . يظنونها مجرد تمتع بالعالم ولذاته . وهكذا
عندما تتحدث إلى أحد الخطاة عن التوبة ، يجيبك قائلاً « أتركي أتمتع بالحياة » .
يظن هذه المتعة الجسدية حياة ، وهي موت ! كما قيل عن الأرملة المتنمة أنها ماتت
وهي حية .

فإن كانت الخطية موتاً ، ألا يجدر بنا أن نسأل أنفسنا :
أحقاً نحن أحياء ؟! كم هي إذن سنو حياتنا على الأرض ؟

غالب الظن أننا سنجيب على هذا السؤال بنفس إجابة أبينا يعقوب ، عندما
قال لفرعون « أيام سنى غربتى ... قليلة وردية ... ولم تبلغ إلى أيام سنى حياة آبائى »
(تك ٤٧: ٩) .

حياتنا تقاس فقط بالأيام التى قضيناها مع الرب ثابتين فى محبته . أما فترات
الخطية فى حياتنا فهى فترات موت . لا تقل إذن « أنا فى الأربعين من عمري » !
فرمى حياتك كلها لم تبلغ عشر سنوات مع الله . يا أخى إسأل نفسك : هل أنت
حتى أم ميت ؟!

أخشى ما أخشاه أن تنطبق على أحد فينا العبارة التى قالها الرب لملاك كنيسة

ساردس :

« أن لك إسماً أنك حى وأنت ميت » ... ! (رؤ ٣ : ١) .

ترى إن نزل ملاك الآن ليعد الأحياء الموجودين فى الكنيسة ، من منا يجده حياً ، ومن منا يجده ميتاً ؟! يا للخجل ، عندما نعرف حقيقتنا ، أحقاً نحن أحياء أم أموات بالخطية ؟

بهذا يحكم كل منا على نفسه :

كل يوم متمر وثابت فى الرب ، هو يوم حى
وكل يوم مر فى الخطية ، هو يوم ميت .

وهذا يمكن أن تعرف عمرك وكم سنة لك ...

فلا تسمح يا أخى أن يضيع يوم من أيام حياتك ، وموت ويدفن إلى الأبد .
لأن الأيام التى تذهب لا يمكن أن تعود . أما الأيام الحية فهى خالدة ... هناك لحظات فى حياة الإنسان تقتدر كثيراً فى فعلها . الدقيقة تساوى سنوات أو قد تساوى أجيالاً ...

لذلك عش حياتك كاملة ، دسمة ، غنية ، مشمرة ... تصور ساعة فى حياة بولس الرسول ، لها ولا شك قيمتها وقوتها ، وربما تكون هذه الساعة أطول من حياة إنسان آخر بأكملها .

يا أخى ، لا تفتخر باطلاً ، ولا تقل بغير حق : أنا ابن الله ، أنا صورته ومثاله . أنا هيكل للروح القدس ، أنا شريك للطبيعة الإلهية ، أنا عضو فى جسد المسيح ... !! كلا ، إن كنت خاطئاً فأنت ميت ، ولست شيئاً من هذا كله ... تقول لله « أنا ابنك » ، فيقول لك « اذهب عني ... لا أعرفك » ...
إن الخطية هى موت ... وهى أيضاً ضلال ، وضياغ ، وتوهان ...

الخطية ضلال وضياغ ..

فى الأصحاح الخامس عشر من الإنجيل لمعلمنا لوقا البشير ، توجد ثلاثة أمثال تشرح لنا كيف أن « الخطية هى ضلال وضياغ وتوهان » . مثال الإبن الضال ، ومثال الخروف التائه ، ومثال الدرهم المفقود ...

الإبن الضال ، ضل نتيجة لشهوات قلبه ، بقصد ومعرفة وتدبير ...
والخروف الضال ، تاه عن غياب وعدم معرفة وقلة خبرة ...
والدرهم المفقود ، أضاعه غيره ، أو وقع وظل واقعاً لا يتحرك ...

إنه أمر مؤسف حقاً ، أن ينظر الله في كيسه ، فلا يجدهك ... أمر مؤسف ، أن
يعد الله دراهمه و فلا تكون في وسطها ... ويظل الله يبحث عنك في كيسه وفي كل
موضع ، أين تراك وقعت ، فلا يعثر عليك ... وأخيراً يعلنها حقيقة مؤلمة : لقد كان لى
درهم ، ولكنه ضاع ... نعم ، ضاع وفقد ولم يعد له وجود ... أخشى عندما يحصى الله
شعبه ، ألا توجد أساء مكتوبة في سفر الحياة ، لأن الخطية قد أضاعها .

أتعرف هذا يا أخى ، أنك عندما تسير في طريق الخطية ، تكون قد
ضعت ، ولم تعد في يد الله ... ! نعم ، إن الخطية هى ضياع ، هى ضلال ، هى
توهان . والخطيئ هو إنسان تائه ، سواء تاه بإرادته ، أم بجهله ، أم أتاهه غيره ...

إن الإبن الضال عندما خرج من بيت أبيه ، ظن أنه قد وجد نفسه وقد وجد
حريته ، وقد وجد ثروته ومتعته وأصحابه ... ولكنه فى الواقع ، لم يكن قد وجد نفسه
بل أضاعها ...

والخروف الضال ربما شعر أنه قد ترك الخطيرة الضيقة المغلقة ، إلى الفضاء
الرحب الواسع المفتوح . وأخيراً وجد أنه تاه ، وابتعد عن راعيه وعن أحبائه ...

إن الخطيئ يفهم الحرية والمتعة فهماً خاطئاً ... وبنفس الوضع :^{١٤} يظن الخطية
نصرة تكون له هزيمة ...

الخطية هزيمة لا نصرة ..

لنفرض أن إنساناً أهانك فأهنته ، واشتدت عليه فغلبته ، وأفحمته وأسكتته ،
واعتمدى عليك فاعتديت عليه بالمثل أو بأضعاف ذلك ، أتراك إذن قد انتصرت ؟!
كلا ، بل انهزمت ، لأنك قد انغلبت من الإثارة ، وانفعلت ، ولم تقو على
الإحتمال ، وغلبتك الخطية .

ربما تقول « أنا دافعت عن كرامتي ... أنا لم أترك هذا الإنسان يظني على ، بل أوقفته عند حده وانتصرت عليه ». قد تكون هكذا منتصراً في عيني نفسك ، ولكنك في واقع الأمر مهزوم: قد هزمتك خطية الغضب ، وهزمتك خطية المجد الباطل ، وهزمتك خطية الإدانة ، وخطية الانتقام ، وعدم المحبة . وعدم الإحتمال ... لذلك يقول الكتاب في (رو ١٢: ٢١):

« لا يغلبك الشر ، بل إغلب الشر بالخير »

إن الإنسان الخاطيء ، هو إنسان مغلوب من الخطية ، وما أكثر الأسباب : هناك إنسان ينهزم أمام الجسد ، وآخر ينهزم أمام الكرامة ، وثالث ينهزم من شهوة الطعام ، ورابع ينهزم أمام المال ، وآخر أمام الغضب ، وآخر أمام الحقد ... الخ .

قد ينظر إنسان إلى امرأة ويشتهاها ، فيزني بها في قلبه . وفي كل ذلك يظن أنه قد لذذ نفسه وتمتع بذلك المنظر . ولكنه في الحقيقة يكون قد انهزم أمام الخطية وسقط . منظر واحد قد غلبه وجعله يقع في الشهوة ... وقد تنظر الملائكة إليه من السماء وتقول :

« مسكين هذا الإنسان الضعيف ، لم يستطع أن يحتمل منظرًا من المناظر فسقط ... باع الملكوت وخسره من أجل منظر ناه » .

فالإنسان الخاطيء هو إنسان مهزوم ومغلوب مهما أحاط نفسه بمظاهر القوة الزائفة ، والإنسان البار قد يبدو - في نبهه ، وسموه - مهزوماً أمام الناس ، ويكون في قمة انتصاره . والأمثلة على ذلك كثيرة ...

قايين مثلاً عندما قام على هابيل وقتله ، هل كان في قتله لأخيه منتصراً أم مهزوماً؟ ربما ظن في نفسه في بادئ الأمر أنه قد انتصر على أخيه ، لأنه استطاع أن يضربه ويلقيه على الأرض ويقتله . ولكنه في حقيقة الأمر كان مهزوماً . لقد انهزم أمام الحسد والغيرة . انهزم أمام الغضب والحقد ، وفقد محبته ، وهزمه شيطان القسوة ، وهزمته خطية القتل ... وهذا الذي ظن نفسه قوياً ، عندما وقف أمام الله ، ارتجف وارتعب فقال قايين للرب : « ذنبي أعظم من أن يحتمل . أنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفي ، وأكون تائهاً وهارباً في الأرض . فيكون كل من وجدني يقتلني » (تك ٤: ١٣ ، ١٤) .

مسكين قايين ... إنسان ضعيف غلبته الخطية . كذلك كان هيرودس الملك أيضاً عندما قبض على يوحنا المعمدان وألقاه في السجن ، وأراد أن يسكت هذا الصوت الصارخ في البرية فلم يفلح ففقطع رأسه . فهل كان هيرودس قوياً عندما قتل يوحنا ، أم بالحرى كان ضعيفاً أمام شهوته وعزته وكبريائه وانقياده للنساء ... ؟! أكبر دليل على ضعفه ، أنه ظل يخاف من يوحنا حتى بعد موته . فلم يظهر المسيح ظن هيرودس أنه يوحنا قد قام من الأموات (مت ٢: ١٤) .

وهكذا أنت أيضاً عندما تتسلط على غيرك ، وتهينه وتشتمه وتجرحه وتهكم عليه ، ويبدو هو ضعيفاً ذليلاً أمامك لا يستطيع أن يقابلك بالمثل ... أترك نظن نفسك قد انتصرت ؟! كلا ، بل هزمتك كل هذه الخطايا ، وغلبك الشر...

إن الخاطيء يظن النصره حيث توجد الهزيمة ، ويظن اللذة حيث يوجد الضياع ، ويظن القوة حيث يوجد الضعف ... لذلك قال الكتاب « لأنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون » (مت ١٣: ١٣) .

وبنفس هذا المقياس الخاطيء نظر البعض إلى صليب المسيح له المجد . فظن غير الفاهمين أن صلبه كان دليلاً على الضعف والهزيمة أو دليلاً على انتصار أعدائه عليه ، وكان الواقع عكس ذلك تماماً .

لقد كان صالבו المسيح في موقف الهزيمة وليس في موقف النصره . لقد انهزموا أمام حسدهم وغيرتهم منه . وانهزموا أمام شياطين الكذب والقسوة والجبن ونكران الجميل . أما السيد المسيح فاستطاع أن ينتصر في محبته وبذله ، ويقدم لنا الخلاص ، ويعظم مملكة الشيطان ، ويفتح الفردوس لمنتظريه ويتم عمل الفداء العظيم ... كانت منتصراً على طول الخط ، بعكس صاليه الذين رجع كثيرون منهم وندموا ...

كانت أحكام الناس غتلة ، فالخطية هي ضعف وهزيمة ... وماذا عن الخطية أيضاً :

الخطية انفصال عن الله

الخطية انفصال عن الله ، لأنه « آية شركة للنور مع الظلمة ، وأى اتفاق للمسيح مع بليعال » (٢كو ٦ : ١٤ و ١٥) .
وهكذا نرى أن الإبن الضال - فى خطيته - قد خرج من بيت أبيه وانفصل عنه .

والخطية ليست مجرد انفصال عن الله ، وإنما هى خصومة معه ..
إن العالم عندما أخطأ ، وقع فى خصومة مع الله عبر عنها طقسياً بالحجاب المتوسط الذى كان يفصل المؤمنين عن قدس الأقداس . لذلك عندما جاء السيد المسيح ، أقام صلحاً بيننا وبين الله ، ونقض الحاجز المتوسط ، وقيل عنه فى القداس « صالحت الأرضيين مع السمايين » . صالحهم لأن الخطية كانت قد سببت خصومة بينهم وبين الله . من أجل هذا نصلى صلاة الصلح قبل أن نبدأ القداس ... قبل أن نتناول نصطليح أولاً مع الله .

الإنسان الخاطئ بينه وبين الله خصومة . قد أغضب الله وأحزنه وانفصل عنه : ترك بيته وكهننته ، وترك كتابه ووصاياهم ، وترك جسده ودمه ، وترك الكلام معه أيضاً - هناك خصومة إذن ...

وكما ازدادت الخطية ، ازدادت الخصومة ، وازداد الانفصال عن الله . لقد وصلت هذه الخصومة بين الله والناس إلى حد مريع فى أيام أرمياء النبي ، لدرجة أن الله قال لنبيه « لا تصل لأجل هذا الشعب . ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، لأننى لا أسمع لك » (أر ١٢ : ١٤) . ووصلت الخصومة إلى درجة أن قال الله « وإن وقف موسى وصموئيل أمامى ، لا تكون نفسى نحو هذا الشعب » (أر ١٥ : ١) .

ووصلت الخصومة إلى حد أن قال الله للعذارى الجاهلات « الحق أقول لكن إني لا أعرفكن » (مت ٢٥ : ١٢) . وقال لآخرين « إني لم أعرفكم قط . إذهبوا عني يا فاعلى الإثم » (مت ٢٣ : ٧) . « لا أعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عني يا جميع فاعلى الظلم » (لو ١٣ : ٢٧) ... « لا أعرفكم » !! يا للهول ، ويا للخيال ...
الله يشكر معرفته بالإنسان ، وينكر صلته به ، ويتبرأ منه ومن خلطته ، ويبعده عنه ... أى ألم هذا ، وأية فضيحة ...

وفي الخصومة ، قد تصل الخطية في بشاعتها إلى درجة العداوة مع الله . وهكذا يقول القديس يعقوب الرسول « أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله . فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله » (يع ٤ : ٤) . وهذا المعنى يؤيده أيضاً القديس يوحنا الرسول بقوله « إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب » (١ يوح ٢ : ١٥) .

بعكس ذلك محبو الله ، في صداقتهم له ، وذالهم عليه ...

مِشْتَان بَيْنَ : دَالِمْ وَخَصُومَةٍ

إن عرفنا مقدار الدالة التي بين الله وعبيه . تملكنا الغيرة ، ويلتهب قلبنا فنود أن نكون مثلهم . وسنحاول هنا أن نستعرض بعض أمثلة :

قيل عن أبينا إبراهيم إنه خليل الله . ونحن نستشفع به في الصلاة ، فنقول لله في صلاة الساعة السادسة « من أجل إبراهيم حبيبك ... » .

إنه حبيب الله ، صديقه ، بينه وبين الله دالة ...

عندما أراد الله أن يحرق سدوم ، قال الرب « هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله ؟! » (تك ١٨ : ١٧) . ياللعجب !! إن الله لم يرد أن يحرق سدوم قبل أن يخبر إبراهيم أولاً ويتفاهم معه في الموضوع ... ومن يكون إبراهيم هذا يارب ؟ أليس حفنة من « تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧) . كلا - يحيب الرب - إنه حبيبي وصديقي . لا بد أن أخبره أولاً وآخذ رأيه . لا يصح أن يفاجأ بالموضوع كباقي الناس ...

وتعبر الله إبراهيم . ويتفاهم معه إبراهيم بدالة « أقتلك البار مع الأثيم ... حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر ... حاشا لك . أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً ؟! ... إنه أسلوب قد لا نستطيع أن نكلم به بعض البشر خوفاً منهم ، ولكن إبراهيم يكلم به الله بكل جرأة ودالة . ويظل يتفاوض معه : عسى أن يكون خسون باراً في المدينة ... ربما نقص الخمسون باراً خمسة ... عسى أن يوجد هناك أربعون ... ثلاثون ... عشرة ... ويستجيب الرب ويقول « لا أهلك من أجل العشرة ... »

(تك ١٨ : ٣٢) .

إنها صداقة مع الله ... عجب أن يوجد أناس لهم صداقة مثل هذه مع الله ، يتفاهم معهم ، ويتفاهمون معه ...

• نفس الوضع الذى حدث لإبراهيم مع الله ، حدث لموسى أيضاً ... صنع اليهود عجلاً من ذهب وعبدوه . فغضب الرب جداً من هذه الخيانة التى خانوه بها ، بعد سلسلة من المعجزات عملها معهم ، وبعد سلسلة من الإحسانات قدمها إليهم . وفكر الله أن يهلك هذا الشعب . ولكنه رأى أن يخبر موسى أولاً . وبعد أن شرح الرب لموسى كيف أن هذا الشعب صلب الرقبة قال له « أتركنى ... لأفنيهم » (خر ٣٢: ١٠) .

ونحن نقف في خشوع أمام كلمة « أتركنى » ... ما معنى هذا الكلام أياها الرب إلهنا القادر على كل شيء ... هل أنت محتاج أن يتركك موسى لتفعل ؟ هل هو ممسك بك لينعك ؟ وهل هو يستطيع ؟

على أن عجبنا يزداد ، ليس فقط من كلام الله ، بل بالأكثر من رد موسى ... فكما قال يعقوب للرب وهو يصارعه « لا أتركك ... » (تك ٣٢: ٢٦) ، هكذا قال موسى للرب ... في جراءة ودالة المحبة قال له « إرجع يارب عن هو غضبك ، واندم على الشر » (خر ٣٢: ١٢) ... كلام جرىء عجيب ... من يستطيع أن يقوله للرب ، بل من يستطيع أن يقوله لأحد الرؤساء على الأرض ...؟! ويعلن موسى احتجاجه : لئلا يقولوا قد أخرجهم بخبث من أرض العبودية ، لكي يهلكهم في القفر ...

والعجيب أن الله لم يغضب من موسى ، بل وافقه ... ونفذ له ما يريد ... ويقول في ذلك الكتاب « فندم الرب على الشر الذى قال أنه سيفعله » (خر ٣٢: ١٤) ... ما هذا يارب ؟ يجيب إنهم أصدقاؤى ، لهم دالة عندى . عجبا ! أى رجل هو موسى هذا؟! بل أية دالة هى هذه بين الله وأحبائه ... إن قرأ خاطيء عنها ، يشعر بحرارة الغيرة تلهب قلبه ... ليترك ما هو فيه ، ويصير مثل هؤلاء ...

• مثال آخر نقرأه عن موسى :

يقول الكتاب إنه كان على الجبل مع الرب « أربعين نهاراً وأربعين ليلة » (خر ٣٤: ٢٨) ، هل تظنون أن كتابة الوصايا العشر على اللوحين كانت تستغرق كل هذه المدة من الله؟! هل تحتاج كتابتها إلى يوم من الله ، إلى ساعة أو دقائق ، أو لحظة ...؟!

إنما الله قد استبق موسى أربعين يوماً على الجبل ، لأنه صديقه وحبيه
وكليمه ... الله يفرح بوجود موسى معه لأنه ابنه ... وموسى يفرح بالوجود في حضرة
الرب يتمتع به ...

والأقولوا لى آية مهمة كانت تقتضى الأربعين يوماً ... كل الوصايا التى أخذها
موسى من الله لا تستغرق أكثر من يوم واحد . أما الباقى ، فهو فترة دالة وصداقة
وعبة ...

إن الله له أصدقاء وأحباء ، قال لهم علانية «لا أعود أسمىكم عبيداً ...
بل أحباء» (يو ١٥ : ١٥) . قيل إنه «كان يحب مرثا وأختها ولعازر»
(يو ١١ : ٥) . وعندما بكى على لعازر ، قال الناس «أنظروا كيف كان
يحبه» (يو ١١ : ٣٦) . والقديس يوحنا الإنجيلى قيل عنه مراراً «التلميذ
الذى كان يسوع يحبه» .

• إن الله له أحباء ، هم دالة كبيرة عنده وفى أيديهم يضع مفاتيح
السما ... يستطيعون أن يفتحوا السماء ويفلقوها كما يشاءون ...

كلمة عجيبة نسمعها من إيليا النبى الذى قال «لا يكون طل ولا مطر فى هذه
السنين إلا عند قولى» (١ مل ١٧ : ١) ... عبارة (إلا عند قولى) عبارة عجيبة
وقوية . فلم يقل إيليا «عندما يشاء الله» أو «عندما يأذن الله» ، بل قال فى ثقة
وحزم «إلا عند قولى» ... وفعلأً أغلقت السماء حسب قوله ، وظلت مغلقة ثلاث
سنين وستة أشهر ... وكان جوع وتعبد لكل الناس ... ولكن ظلت السماء مغلقة تنتظر
قول إيليا ... وعندما تكلم مرة أخرى ، أمطرت السماء ...

مفاتيح السماء هذه التى فى أيدي القديسين ، تكلم عنها الشيخ الروحاني فى
حديث عن صلاتهم ومفعولها ، فقال عنهم إنهم يكونون «ليس كمن يصلى ، وإنما
كمن يتقبل الصلاة ، كإبن أوّمن على خزائن أبيه ، يفتحها ويعطى منها
للناس ...» .

نسمع مثل هذا عن القديس المنتيح الأنبا ابرآم أسقف الفيوم ، يأتيه إنسان فى
مشكلة فيقول له «روح يابنى هاتلقيا اتحلت» . تأتيه امرأة تطلب نسلأً ، فيقول
لها «ماتزعليش السنة الجاية يكون عندك إبن ...» ، يقول هذا حتى بدون صلاة ،

ويحدث ما يقول عنه . إنها بركات يوزعها على الناس ، وهبات أخذها من الآب السماوى يعطيها بجنان لطالبيها ... ألا تملكتنا الغيرة عندما نسمع عن أمثال هؤلاء ومكانتهم عند الله ...

● وأحباء الله هؤلاء ، لا يكتفى بمنحهم هذه الهبات ، إنما أيضاً يدافع عنهم ، ولا يقبل فيهم كلمة سوء ...

مثال ذلك : موسى النبي ... تزوج امرأة كوشية ، وكان يبدو أن هذا ضد الشريعة ، لأن الرب قد منع الزواج بالنساء الغريبات . وفعلاً تضايق بسبب هذا الزواج هرون أخو موسى ومرم أخته ، وتكلما عليه ... فصمت موسى ، لأنه كان حليماً جداً . ولكن الرب لم يصمت ، ولم يقبل أن يقول أحد كلمة رديئة عن حبيبه موسى حتى لو كان القائل هو هرون رئيس الكهنة ومرم النبية أخت موسى وهرون ...

فاستحضر الله هؤلاء الثلاثة ، وويخ مرم وهرون توبيخاً شديداً وقال لهما « إن كان منكم نبى للرب ، فبالرؤيا استعلن له وفى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى . فأنا إلى فم وعياناً أتكلم معه ... فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى ؟ » (عد ١٢ : ١-٨) ، وضرب الله مرم بالبرص ، فإذا هى برصاء كالثلج ... فأخرجوها خارج المحلة سبعة أيام ...

ما هذا يارب الذى تفعله ؟! يقول :

إنه موسى عبدى ، حبيبى الذى ائتمنه على كل بيتى ، وأكلمه فأ فلم ... كيف أسمع هؤلاء أن يهينوه وأنا صامت ؟! لا بد أن ينالوا عقوبة ، لكى يوقروه ، وكل من يسمع يوقره أيضاً ... لعل مثل هذا يفهم من قول الله لأبينا ابراهيم « وإبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه » (تك ١٢ : ٣) ...

إنها كرامة عجيبة يعطيها الله لأحباؤه . ليس فقط أن يكونوا مباركين ، بل أكثر من هذا أن يكونوا هم أنفسهم بركة (تك ١٢ : ٢) ... كما كان إيليا بركة فى بيت الأرملة ، وكما كان يوسف بركة فى بيت فوطيفار وفى أرض مصر ، وكما كان أليشع بركة فى بيت الشوفية ...

• ومن الكرامة المعجبية التي يعطيها الله لأولاده ، المعجزات التي يجربها على أيديهم ...

معجزات كان يمكن أن يعملها الله بنفسه ولكنه يعهد بها إلى أحبائه ، ليكرمهم في أعين الناس ... إنسان مريض مثلاً يصل إلى الله أن يشفيه . فبدلاً من أن يشفيه الله بنفسه ، يرسل إليه الله أحد القديسين فيشفيه ... يرسل سيدتنا العذراء أو مارجرجس أو القديسة دميانة . ويمجد الناس العذراء ومارجرجس والقديسة دميانة ... ويفرح الرب ... وينشد في آذان هؤلاء القديسين : من يكرمكم يكرمنى ... أنا أكرم الذين يكرموننى ...

ونسأل الرب : إلى أى حد تكرمهم ؟ فيقول :

يجلسون على اثني عشر كرسيّاً حولي ، ويدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر (مت ١٩ : ٢٨) ... نقول له يارب كيف يجلسون معك في مجدك ، أنت الذي تقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة ؟ يقول « أنا أكرم الذين يكرموننى » . ونسأله : كيف يجلس هؤلاء يارب على كراسى القضاء في يوم الدينونة ، بينما أنت الديان وحده ، ديان الأرض كلها ، الذي تدين الأحياء والأموات ، وقد دفعت إليك كل الدينونة من الآب (يوه : ٢٢) ؟ يجيب إن لنلق في بني البشر ... إننى أحبهم ، وسأكرمهم أكثر ...

إن كنت أنا ديان الأرض كلها ، فسيدنون الأرض ...

وإن كنت أنا ملك الملوك ، فهم سيملكون معى ...

وإن كنت سأجىء في مجدى على السحاب ، فسيأتون على السحاب معى

سيكونون في كل حين معى ، حيث أكون أنا يكونون هم أيضاً ...

الله يكرم كل هؤلاء ، بحبته لهم ، ويسكنهم معهم ، وبدفاعه عنهم ، وبإعطائهم مفاتيح السماء والأرض ، وإعلان كرامتهم للناس حتى يكرمهم أيضاً ، وبالذلة التي يعطيهم إياها حتى يكلموه من جهة أحكامهم ...

هذه فكرة موجزة عن الدالة التي يجدها الأبرار عند الله ، والكرامة التي يمنحها

لهم ...

وعلى الجانب الآخر نجد الخطية عكس هذا ...
الخطية هي : حرمان من الله ،
وحرمان من الملائكة ،
وحرمان من مجمع القديسين .

الخطية حرمان من الله

إن الإنسان الخاطيء إما يحرم نفسه من الله ، يفصله ذاته وقلبه عن الله ...
فالخطية قبل كل شيء هي عدم محبة الله . لأنه واضح قول الرب « من »
يعبئ ، يحفظ وصاياى » (يو ١٤ : ٢٣ ، ٢٤) . وواضح أيضاً قول الرسول « إن
أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » (١ يو ٢ : ١٥) . الذى يحب الله يلتصق
به ، وبكل ما يقربه إليه ... أما الذى يميل بقلبه إلى الخطية فإنه يبعد عن محبة الله ،
لأنه لا يستطيع أن يحب الله والخطية فى وقت واحد .

والخطية هي أيضاً عصيان الله ، وثورة على الله ، وتمرد عليه :
هى عدم مخافة الله ، تطورت إلى استهانة بوصايا ، وإلى كسر لها ، أمام الله
الذى يرى الإنسان أثناء ارتكابه للخطية ، فى سهولة . فهى إذن عدم حياء من
الله ...

أما الأبرار فليسوا كذلك . هوذا يوسف الصديق عندما عرضت له الخطية يقول
فى إباء وخشية « كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطئ إلى الله » (تك ٣٩ :
٩) ... لقد كان الله أمامه حينما عرضت الخطية عليه . وهكذا اعتبر أن الخطية هى
ضد الله ذاته ، وأنه بها « يخطئ إلى الله » ... وليس فقط إلى المرأة وإلى زوجها ...
وهذا المعنى نفسه قال داود النبي لله « إليك أخطأت ، والشر قدامك صنعت »
(مز ٥٠ : ٤) .

مادامت الخطية إذن موجهة إلى الله ، وقدام الله ، فهى إذن تمرد عليه ... إنها
ثورة على ملكوته ، وثورة على قداسته وصلاحه ، ومحاولة لطرده من القلب ، وتمليك
غيره مكانه ...

ولما كان الله غير محدود ، لذلك كانت الخطية الموجهة إليه غير محدودة ،
عقوبتها غير محدودة مثله . وإن قدمت عنها كفارة لا بد أن تكون كفارة غير

محدودة. وهذا أصبح غفرانها لا يتم إلا بذبيحة المسيح ، ويوضع هذه الخطية على كتفيه ليحملها عنا ، بكل ما فيها من نجاسة وعار...
الخطية تمرّد على الله ، وهى أيضاً معاندة لروح القدس .

روح القدس في حياة المؤمن

روح الله الذى فيك ، يريدك أن تحيا في القداسة التى تليق بأولاد الله وهو يعمل فيك للخير والبر. فإن سرت في طريق الخطية، تكون معانداً للروح ...

لذلك يقول الكتاب « ولا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم » (أف : ٤ : ٣٠) . إذن فكل من يرتكب إحدى الخطايا ، إنما يحزن روح الله ...
ويقول الكتاب أيضاً « لا تطفئوا الروح » (١ تس ٥ : ١٩) .

إن روح الله عندما يعمل في قلب إنسان . يلهبه بالحب ، ويلهبه بالحماس نحو الخير، ويلهبه بالغيرة المقدسة على نشر ملكوت الله ... لأن إلهنا نار آكلة (عب ١٢ : ٢٩) . وكل من يحوى الله في داخله إنما يحوى ناراً ملتهبة ... لذلك قيل عن الله : « الذى خلق ملائكته أرواحاً ، وخدامه ناراً تلتب » (مز ١٠٤ : ٤) .
ولهذا أمرنا الرسول أن نكون « حارين في الروح » (رو ١٢ : ١١) . لأن كل من يعمل فيه روح الله ، لا بد أن يلهب بالحرارة الروحية . أليس أن روح الله عندما حل على التلاميذ الأطهار، إنما حلّ عليهم بالسنّة « كأنها من نار » (أع ٣ : ٢) ؟!

لذلك كله ، نقول أن من يفعل خطية ، إنما يطفىء الروح كقول الكتاب ... وإطفاء هذه الحرارة ، يقوده إلى الفتور . وإذا استمر في الفتور يصل إلى برودة روحية ، بحيث لا يؤثر فيه شيء من الوسائط الروحية التى تلهب غيره من الناس ...

ومع كل هذا يظل روح الله فيه ، ولكن حزيناً ، وحرارته منطفئة...
ولكن أخوف ما نخافه على الخاطيء أن يفارقه روح الله ... كما فارق شاوول الملك فبغته روح ردىء من قبل الرب (١ صم ١٦ : ١٤) . هذه الحالة المحزنة هى التى صرخ بسببها داود في صلاته قائلاً « لا تطرحنى من قدام وجهك ، وروحك القدوس لا تنزعه منى » (مز ٥١ : ١١) ...

هذه الحالة الخطيرة هي التي يسمونها « التجديف على الروح القدس »..
التجديف على الروح القدس ، هو الرفض الكامل الدائم لعمل الروح القدس في القلب... من كثرة الشر ، يصل الإنسان إلى حالة من قساوة القلب ترفض كل عمل للروح حتى الموت... وحينئذ لا يمكن أن يتوب ، لأن التوبة تأتي نتيجة لعمل الروح القدس فيه ، لأن الروح يبكى الإنسان على الخطية (يوحنا ١٦ : ٨) . وإذا لا يتوب لا يمكن أن ينال مغفرة . لأن القديسين قد قالوا « ليست خطية بلا مغفرة ، إلا التي بلا توبة » . وهكذا قيل إن خطية التجديف على الروح القدس لا مغفرة لها...

لكننا لم نصل بعد إلى هذا الوضع المملوء بأساً ... ما يزال روح الله يعمل فينا للتوبة... فعلينا أن نستسلم لعمل الروح ، ولا نرفضه ، بعناد...
إن كنا قد أحزنا روح الله من قبل ، فلا نستمر في إحزانه...
وإن كنا قد أطفأنا حرارته فينا ، فلا نستمر في إطفائها...
لا يصح أن نستمر في عنادنا ، لئلا يفارقنا الروح ، فنشبه الهابطين في الحب...
ليتنا نكره الخطية ، التي تعاند عمل روح الله فينا . فإن الخطية خاطئة جداً ، إنها فساد للطبيعة البشرية .

الخطية تفسد الطبيعة البشرية

من أجل هذا قيل عن الخطاة أنهم « زاغوا وفسدوا » (مز ١٤ : ٣)...
إن الإنسان هو صورة الله ومثاله . ولكنه في حالة الخطية لا يكون كذلك ، بل يكون قد فسد ، وفقد صورة الله...
لذلك أنا لا أوافق ذلك الذي يسقط ، فيدافع عن سقوطه قائلاً « هكذا شأن الطبيعة البشرية »... « أنا معذور ، طبعى كده » !
كلا ، ليست هذه هي الطبيعة البشرية كما خلقها الله الصالح ، الذي بعد أن خلق كل شيء ، نظر إليه فإذا هو حسن جداً (تك ١ : ٣١) .
طبيعتك البشرية يا أخى هي في أصلها صالحة جداً . إنما أنت تشكوفي سقوطك من طبيعتك بعدما فسدت بالخطية... هذا الفساد هو الذى شكاه منه

الرسول قائلاً « أما أنا فجسدى مبيع تحت الخطية ... وعي أنا الإنسان الشقي ، من يتقذى من جسد هذا الموت » (رو ٧: ١٤، ٢٤) ...

إن الخطية تتلف طبيعتنا ، وتجعل مستواها السامى ينحط ...
لذلك فالخطية إغطاط ... تصورووا إنساناً في مركزه العالى كإبن لله ، يحط نفسه إلى المستوى الذى يصير فيه إبناً لإبليس ...
ويبلغ من الحطة أن يتحول النور الذى فيه إلى ظلام ...
وينسى مركزه العالى ، ويعمل كأحد أولاد الناس ...
الخاطيء إنسان ينحط في نظر نفسه ، وتقل قيمته أو تنعدم في نظر نفسه ...
وسأضرب لكم مثلاً : هل يستطيع إبن ملك أن يجلس على كوم من الزباله ؟ قطعاً لا يستطيع ... كم بالأولى إذن إبن الله ؟! ...

والخاطيء أيضاً لا ينحط فقط في نظر نفسه ، وإنما أيضاً في نظره إلى الناس . مثال ذلك ، شاب ينظر إلى إحدى الفتيات نظرة شهوانية ... لاشك أنه لو كان سامياً في تفكيره لقال في نفسه : هذه الفتاة هي هيكل للروح القدس كيف أفسده أو أنجسه ؟! لا يمكنى مطلقاً أن أفسد هيكل الله . لأن «إن كان أحد يفسد هيكل الله ، فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدس هو» (١ كو ٣ : ١٧) . إنما ينظر الفتى إلى الفتاة بشهوة لأن مستواها قد انحط في نظره ... هذه هي الخطية التي تفسد الطبيعة البشرية ، وتحولها من هيكل لله إلى أداة للفساد ...
وهي لا تفسد الطبيعة البشرية فحسب . بل تفسد الأرض كلها ... ولذلك قيل في سفر الرؤيا عن الزانية العظيمة إنها «أفسدت الأرض بزناها» (رؤ ١٩ : ٢) .

وماذا عن الخطية أيضاً ؟



• إن الخطية نجاسة :

لذلك فالملائكة الذين سقطوا تلقبوا بالأرواح النجسة (مر ٦ : ٧) .
والأمراض التي كانت ترمز للخطية - كالبرص - كانت تعتبر نجاسة وكذلك

الحيوانات النجسة .

ونرى أمثلة في الكتاب المقدس عن نجاسة الخطية ، حيث يقول الوحي الإلهي على فم حزقيال النبي « إن بيت إسرائيل لما سكنوا أرضهم ، نجسوها بطريقهم وبأفعالهم . كانت طريقهم أمامي كنجاسة الطامث ... (حز ٣٦ : ١٧) ، وعن كسر السبت يقول « نجسوا سبوتي » (حز ٢٠ : ١٣) . وعن أخطاء الكهنة يقول في سفر نحميا « لأنهم نجسوا الكهنة » (نحم ١٣ : ٢٩) .

ومن جهة القتل يقول الكتاب « لأن أيديكم قد تنجست بالدم . وأصابعكم بالإنم » (أش ٥٩ : ٣) . وعن الزنا يقول « ونجست الأرض بزناك . فامتنع الغيث ... » (أر ٣ : ٢) .

ووصف الخطية بالنجاسة لا ينطبق فقط على خطايا الزنا والقتل ، بل حتى على خطايا الفم واللسان أيضاً ...

فمن خطايا اللسان يقول السيد المسيح نفسه « ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من هذا ينجس الإنسان » (مت ١٥ : ١١) .

وقد أطلق الرب كلمة النجاسة على الخطية عموماً . فقال عن الأبرار « عندك أساء قليلة ... لم ينجسوا ثيابهم ، فسيمشون معي في ثياب بيض لأنهم مستحقون » (رؤ ٤ : ٤) . أما عن الخطاة فقال « أتيتم ، ونجست أرضي . وجعلتم ميراثي رجساً » (أر ٢ : ٧) .

إن عرفت كل هذا يا أخى ، أن الخطية نجاسة ، لا بد أنك ستفر منها . ستشعر أنك في حالة الخطية « إنسان نجس » !! ستشعر أن كل كلمة خاطئة تخرج من فمك ، إنفا هي تنجسك . لأن الذى يخرج من الفم هو الذى ينجس الإنسان .

• ولما كان الزنى هو أبرز ما في النجاسة ، لذلك اعتبرت الخطية زنى ... وهكذا يقول الكتاب عن خطايا بنى اسرائيل « زنت يهوذا » ، « زنت إسرائيل » (حز ١٦) أى أخطأت كل من هاتين المملكتين ...

• وماذا قيل عن الخطية أيضاً ...

قيل إما عار : « عار الشعوب الخطية » (أم ١٤ : ٣٤) .
وهى أيضاً مرض : وهكذا قيل عن فم أشعيا إلى « تركوا الرب ، استهانوا

بقُدوس إسرائيل... كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تعصب ولم تلين بالزيت» (أش ١: ٦، ٥).

والخطية أيضاً جهل : جهل بالله، وبالإيمان، وبالخير، وبما ينبغي أن يكون... وهكذا قال الرب «الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم» (أش ١: ٣).

وماذا تكون الخطية أيضاً ؟ الخطية أيضاً نقص، وعيب، وضلال، وعمى، وظلمة، ونسيان لله... وهى أيضاً ظلمة لأنها بعد عن النور الذى هو الله. ولذلك حسناً قيل عن الخطاة أنهم «أحبوا الظلمة أكثر من النور» (يو ٣: ١٩)، وقيل أيضاً «أما الجاهل فيسلك فى الظلام» (جا ٢: ١٤).

أمران يجعلاننا ننفر من الخطية :

طبيعة الخطية البشعة ،

ونائج الخطية المريعة .

فأهذه إذن : نتائج الخطية ؟



الفصل الثالث

إن عرفت نتائج الخطيئة

تنفر من الخطيئة

من نتائج الخطيئة الخوف والقلق :

الخوف والقلق

إنها تفقد السلام الداخلي ، وتملأ القلب بالخوف والاضطراب . إن القديس لا يخاف . ولذلك قال داود النبي « إن يحاربني جيش ، فلن يخاف قلبي . وإن قام عليّ قتال ، فني هذا أنا مطمئن » (مز ٢٦) . أما الخاطيء ، فهو على الدوام خائف ، فاقد لسلامه « لا سلام ، قال الرب للأشرار » (أش ٤٨ : ٢٢) . وقال أيضاً « الأشرار كالبحر المضطرب » (أش ٥٧ : ٢٠) .

لقد بدأ الخوف مع الخطيئة الأولى ، خطيئة آدم وحواء ...
لم نسمع عن آدم أنه كان يخاف الله قبل الخطيئة . بل على العكس عندما كان الله ينزل إلى الجنة كان آدم وحواء يقابلانه بفرح ويلتذنان بالحديث معه . أما بعد الخطيئة ، فنقرأ أن آدم قد اختبأ خوفاً من وجه الله في وسط أشجار الجنة . ولما ناداه الرب ، صرح آدم بخوفه قائلاً « سمعت صوتك في الجنة فخشيت ، لأني عريان ، فاختبت » (تك ٣ : ١٧) .

تصوروا أن الله المحبوب الذي يشتهي كل أحد أن يراه ، يصبح مخيفاً للخطيء فيهرب من رؤيته !!
الله الذي هو « أبرع جمالاً من بني البشر » ، « الذي حلقة حلاوة وكله مشتهيات » ، يصبح غيفاً للخطيء ! عندما يراه الخطيء يخاف ، أو يهرب منه

ويختبئ منه لكي لا يراه !!

النفس المحبة لله تقول مع عروس النشيد « إني أقوم في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي ». وإن وجدته تقول « أمسكته ولم أره » (نش ٣: ٤، ٢). أما النفس الخاطئة فلا تضع أمامها سوى الآية التي تقول « مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي » (عب ١٠: ٣١).

فالله مخيف بالنسبة إلى الأشرار . وأما الأبرار فهم أصدقاء الله يفرحون به . قال القديس الأنبا أنطونيوس الكبير لتلاميذه « يا أولادى ، أنا لا أخاف الله ، فتعجبوا من عبارته وأجابوه « هذا الكلام صعب يا أبانا » ، فقال لهم « ذلك لأننى أحبه ، ولا خوف فى المحبة ، بل المحبة تطرح الخوف إلى الخارج » (١ يوح ١٨).

تحيلوا معى يا إخوتى ، أن الله قد حضر الآن فى وسطنا . ترى كم واحد منا يفرح بجيئه ، ويدخل تحت أحضانه ؟ ... وكم واحد يهرب ويخاف ؟ !
الخطاة يخافون لقاء الله ، لذلك يخافون الموت ويرتعبون منه ... يخافون ساعة الدينونة الرهيبة التى سينكشفون فيها أمام الكل ... أمام الأعداء الذين يشمتون بهم ، وأمام الأصدقاء الذين كانوا يظنونهم غير ذلك ، أنقياء وأبراراً ... لذلك عندما تأتى تلك الساعة « يقولون للجبال غطينا ، وللثلال اسقطى علينا » (لو ٢٣: ٣٠ ، هو ١٠: ٨). هؤلاء سيطلبون الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رو ٩: ٦).

حقاً إن آدم عندما أخطأ بدأ يخاف ... زحف شئ جديد رهيب إلى داخل نفسه لم يكن موجوداً فيها من قبل ... هو الخوف ، والرعب وفقدان السلام .
إن هذا الخوف الذى خاف به آدم من الله هو مبدأ الأمراض النفسية التى أصابت البشرية نتيجة للخطية ، لأن النفس بهذا الخوف بدأت تمرض .

إن الشخص البار يحتفظ بسلامه ، هادئ ومسرور . أما الخاطئ فيفقد سلامه من الداخل ومن الخارج . من الداخل ضميره يثور عليه ... والروح القدس يبكته . ومن الخارج يخاف أن تكشف الخطية كما يخاف من نتائجها وعواقبها .
لم نر أبداً إنساناً خاطئاً يعيش على الدوام مستريح البال مهما نام ضميره . لا بد أن يستيقظ هذا الضمير بعد حين ويثور عليه ويتعبه .

عذاب الضمير

من أمثلة عذاب الضمير قصة تقال عن بيلاطس :
كان بيلاطس يعرف أن المسيح برىء ، ولذلك قال «ها أنا قد فحصت
قدامكم ، ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه» (لو ٢٣ : ١٤) . وإذا
كان جالساً على كرسى الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة «إياك وذلك البار . لأني
تأملت اليوم كثيراً في حلم من أجله» . ولكنه أمر بحكم الموت ضد ضميره . ولأجل
أن يريح ضميره راحة زائفة ، أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً : إني برىء
من دم هذا البار» (مت ٢٧ : ٢٤) .

وتقول القصة إن بيلاطس عندما خلا إلى نفسه في منزله ، وجد يديه ملطختين
بالدماء فغسلها مرة ثانية . ولكن الدم لم يفارقها . فغسلها للمرة الثالثة وهو يقول
«أنا برىء من دم هذا البار» . ولكنه عاد ووجد الدم ما يزال يلطخها . فاستمر
يغسلها مرات عديدة وهو يصرخ في رعب قائلاً «أنا برىء من دم هذا البار» . إنها
قصة تصور لنا مقدار الرعب وفقدان السلام الذي يصيب الخاطيء نتيجة لخطيته .

إن الخطية متعبة . وقد لا يحس الإنسان بمقدار خطورتها إلا بعد وقوعها ،
وربما بعد وقوعها بمدة ، حين يستيقظ الضمير ، من تلقاء نفسه أو بمؤثر
خارجي ...

□

ومن أمثلة عذاب هذه الیقظة المتأخرة للضمير . قصة يهوذا الإسخريوطي

إن يهوذا لم يشعر ببشاعة خيانتة في بادئ الأمر . كان مشغولاً بالتآمر
والمقابلات والإنفاقات . وكان مشغولاً بالمال وتسلمه . وبإيعاد ومكان تسليم سيده .
حتى إنذارات الرب لم له يحس بها . وأخيراً عندما حوكم السيد المسيح وحكم عليه
بالصلب ... إستيقظ ضمير يهوذا ، وظل يعذبه ، فوجد نفسه أمام خطيئة بشعة ومريعة .
وبدأ يتذكر كلام الرب للتلاميذ «أنتم طاهرون ولكن ليس كلکم» ، «واحد
منكم سيسلمني» ... «إبن الإنسان ماض كما هو محتوم . ولكن ويل لذلك الإنسان

الذى يسلمه» (لو ٢٢: ٢٢) ... وتذكر يهوذا أيضاً قول الرب له: ما تريد أن تعمله فاعمله بأقصى سرعة. ثم كلمة المسيح الأخيرة له «ياصاحب لماذا جئت» (مت ٢٦: ٥٠)، «أقبلت تسلم ابن الإنسان» (لو ٢٢: ٤٨).

ولم يستطع يهوذا أن يحتمل كل هذا ، واتبعه ضميره جداً ، فقام وذهب لرؤساء الكهنة «ورد الثلاثين من الفضة قائلاً: قد أخطأت إذ أسلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل وانصرف» (مت ٢٧: ٣). ومع كل هذا استمر ضمير يهوذا يعذبه وظل يعذبه بلا هوادة. وتسمرت صورة خطيئته في عمق بشاعتها أمام عينيه ... وأخيراً «مضى وخنق نفسه» (مت ٢٧: ٥).

يا إخوتي ما أبشع الخطيئة ، وما أكثر رعبها ، عندما يستيقظ الضمير إن الإنسان قد لا يحس بمرارتها طالما هو في دوامة من الخطايا أو من المشغوليات. ولكن بمجرد أن ينتبه لنفسه أو يرجع لذاته ، يتعب ويتألم من منظر خطيئته.

لذلك فإن بعض المجرمين يذهبون ويسلمون أنفسهم للعدالة معترفين بجرائمهم ... لأنهم لم يستطيعوا أن يحتملوا تأنيب الضمير ولا القلق الداخلى الذى يتعبهم وفقدان السلام الناتج عن إحساسهم بالإثم. لذلك صدق قول الكتاب «لا سلام قال الرب للأشرار» (أش ٤٨: ٢٢).

وهناك قاعدة هامة عند علماء النفس تقول إن المجرم يظل يحوم حول مكان الجريمة في الأيام الأولى لحدوثها. لأنه يكون قلقاً وخائفاً من اكتشاف أمره. ويقول في نفسه «يا ترى هل تركت أثراً أم لم أترك. وهل عرف رجال البوليس أم لم يعرفوا؟!». من أجل هذا فإن رجال النيابة والشرطة عندما يكتشفون جريمة يترصدون مكانها متخفين ، لكى يكتشفوا كل الأشخاص المشتبه فيهم الذين يحومون حول المكان.

ومن أمثلة الخوف والقلق وفقدان السلام ، ما حدث لقابين بعد خطيئته : عاش تائهاً وهارباً في الأرض ، خائفاً أن يقتله أحد كما قتل أخاه ، شاعراً أن الله قد طرده عن وجه الأرض ، وطرده من أمام وجهه (تك ٤: ١٣ ، ١٤). وهذا القلق قضى قابين حياته في خوف. ولم يستد من خطيئته شيئاً ... تطارده خطيئته ، ويطارده صوت أخيه الصارخ من الأرض.

هكذا الأمراض النفسية التي تصيب الخطاة نتيجة للقلق والخوف والإنزعاج والإضطراب وتوقع الشر باستمرار.

أما الأبرار فعلى العكس من ذلك يعيشون في فرح وسلام ...

هم في فرح مستمر ، لا يضطربون ، ولا يقلقون ، ولا ينزعجون من الداخل .
فالكتاب المقدس يقول « من ثمار الروح القدس محبة ، فرح ، سلام » (غل ٥ : ٢٢) . إذن فالشخص الذي لا يعيش في سلام ، لا توجد فيه ثمار الروح القدس .

قيل عن القديس الأنبا أنطونيوس ، في القصة التي كتبها عنه القديس أثناسيوس الرسول « من بين الناس كان مضطرب النفس أو متزعج القلب ، ويرى وجه الأنبا أنطونيوس ، إلا ويمتلئ بالسلام » . مجرد رؤية وجه الأنبا أنطونيوس - في هدوئه وفرحه - كانت تملأ القلب بالسلام .

ليس كذلك الخطاة ، ليسوا كذلك ، بل هم في حزن وعذاب ، وبخاصة عندما يستيقظ ضميرهم ويلهمهم بسياطه . وقد أخذنا فكرة عن عذاب الأشرار كهذا وقاين ...

ونريد أن نأخذ مثالا عن عذاب الضمير للقديسين ممثلاً أفضل تمثيل في قصة داود النبي :

في أثناء الخطية ، كان داود النبي في نشوة اللذة الجسدية ، فلم يشعر بخطورة ما كان يفعل ...! حتى أنه أتبع خطية الزنى بخطية القتل ، دون أن يتحرك ضميره أو تحرج . ولكن بعد أن واجهه ناثان بخطيته ، وبدأ يحس خطورة ما فعل ، حينئذ استيقظ ضميره وبدأ يتعبه على الرغم من قول النبي له « الرب قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) .

عندما استيقظ ضميره ، بلل داود فراشه بدموعه . وصارت دموعه له طعاماً نهاراً وليلاً ، ولصقت بالتراب نفسه ، وعاش في مذلة من نفسه ، وصرخ إلى الرب قائلاً « إن عظامي قد اضطربت ، ونفسي قد انزعجت جداً » (مز ٦) . ورضى بالمذلة من أجل خلاص نفسه ، وقال في ذلك « خير لي يارب أنك أذلتني لكي أتعلم ناموسك » (مز ١١٨) .

حقاً إن الإنسان عندما تتكشف له خطاياها ، يصير من عذاب ضميره وكأنه في جحيم .

هل تظنون أن « البكاء وصرير الأسنان » يكونان فقط في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت ؟ كلا ، بل يكونان على الأرض أيضاً ، عندما يتعذب الإنسان في قلبه من هول خطاياها ...

يحدث هذا في أوقات التوبة ، عندما يحس الإنسان التائب مقدار بشاعة خطيته ، ويبكى عليها بدموع وحرقة قلب ، ويلوم نفسه قائلاً : أين كان عقلى وتفكيرى عندما فعلت هذا؟! ... ويظل ضميره يؤنبه ، فتصطك أسنانه من الألم والندم والحزنى والعار والشعور باحتقار الذات ...

وفي الحقيقة خير للتائب أن يقاسى « البكاء وصرير الأسنان » ههنا على الأرض ، من أن يقاسيه هناك في الأبدية على غير رجاء ...
رأينا أنه من نتائج الخطية الخوف ، وفقدان السلام الداخلى ، والمرارة ، وعذاب الضمير ... على أن هناك نتائج أخرى للخطية ...

نتائج أخرى للخطية

الخطية تغير الإنسان تغييراً كلياً ، ومن نتائجها :

١ - فقد الصورة الإلهية :

خلق الإنسان على صورة الله ومثاله . ولكنه في حالة الخطية لا يحتفظ بهذه الصورة الإلهية ، بل يفقدها . يفقدها من الداخل ومن الخارج أيضاً إذ تترك الخطية طابعها على وجهه وملامحه ، وعلى صوته وإشاراته بل تترك الخطية طابعها على زيه وملابسه . وحتى كلماته أيضاً وأسلوبه ولغته تعبر عن الخطية الكامنة فيه ، حسباً قيل « لغتك تظهرك » (مر ١٤ : ٧٠) . من أجل هذا قال معلمنا القديس يوحنا الحبيب « بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) » (١ يو ٣ : ١٠) .

فأنت أيها الأخ يا من غيرت الخطية شكلك وطباعك ، وأنت أيها الأخت يا من غيرت الخطية وجهك وملابسك وصوتك . إرجعا إلى الله بالتوبة . وستغيركما التوبة في كل شيء ، وتعيد إليكما الصورة الإلهية التي فقدتماها ...

وكما يفقد الإنسان صورته الإلهية بالخطية ، كذلك يفقد كرامته ...

٢ - فقد الكرامة :

كان الإنسان قبل الخطيئة نفخة قدسية خرجت من فم الله ، كان صورة الله ومثاله . أما بعد الخطيئة فإن الرب يقول له « أنت تراب ، وإلى التراب تعود » . عاد تراباً كما كان ، ولم يستحق أن يدعى صورة الله . انتهى أن يكون له مجد الألوهية ، ففقد مجد البشرية الذي كان له .

ولأنه - كالحیوانات - انتهى أن يأكل ، لذلك أعطاه الرب أن يأكل العشب (تك ٣ : ١٨) الذي كان من قبل طعام الحيوانات (تك ١ : ٣٠) ...

وضاعت هيئته على الحيوانات وأصبح يخافها وصارت لها إمكانية أن تأكله بعد أن كان سيداً عليها جميعاً (تك ١ : ٢٦) ... حتى الحية أصبح في إمكانها أن تسحق عقبه (تك ٣ : ١٥) .

حتى الأرض تمردت عليه ... وأصبحت تنبت له شوكة وحسكاً (تك ٣ : ١٨) ، بل إن أقسى عبارة في تمرد الأرض على الإنسان تظهر في قول الله « متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها » (تك ٤ : ١٢) ...

الإنسان الخاطيء هو إنسان فاقده للكرامة ، فاقده للإحترام . هو لعبة في أيدي الشياطين وفي أيدي الأشرار ، ليست له هيبة ... بل أنه يفقد إحترام ذاته لذاته .

أنظروا إلى الإبن الضال ، وكيف صار يشتهي الخنزير الذي تأكله الخنازير ، وكيف تعنى أن يكون كأحد الأجراء في بيت أبيه ... ! بل أنظروا إلى نبوخذ نصر الملك وكيف مدعوا عنه جلالة وصار كأحد الحيوانات (دا ٥ : ٢ ، ٢١) . وشمشون الجبار ، كيف أنه بالخطيئة فقد قوته وفقد كرامته ، وأذله وهزأ به أهل فلسطين (قض ١٦ : ١٩-٢٥) .

لا يندعك الشيطان يا أخى ، إذ بصور لك في الخطيئة ملاذاً وشهوات ، ويعمدك بكرامات وإغراءات . وعندما تذوق الخطيئة نعيمها في الآخرة كالعلقم ، تقودك إلى الدل ، وتفقدك كل شيء ... وتورثك الكآبة والضيق ، وتقودك إلى اليأس ، وتغطي بالخزي وجهك ...

وكما تفقد فيها صورتك الإلهية وكرامتك ، كذلك تفقد بساطتك ونقاوتك ...

٣ - فقد البساطة والنقاوة :

الإنسان البار هو إنسان تقى ، لا يعرف سوى الخير . أما عندما يخطئ ، فإنه يبدأ أن يعرف الشر أيضاً ، وهكذا يفقد بساطته . وينظر إلى الأمور بغير نظرتة الأولى . ويعرف أموراً جديدة تسيئه معرفتها ، ويتمنى لو كانت تزول من فكره ... كان آدم وحواء عريانين فى الجنة - قبل الخطيئة - ولا ينجلان . يعيشان فى بساطة لا تعرف الدنس . ولكنها بالخطيئة فقدوا بساطتها ، واضطروا أن يصنعا لها مآزر ...

وأنت أيها الأخ ، ماذا فعلت الخطيئة بك ؟ هل أفقدت بساطة فكرك ، ونقاوة قلبك . هل غيرت نظرتك إلى الناس ، ونظرتك إلى نفسك ، ونظرتك إلى الأمور . ما أبشع هذا التغير . لستك لا تتماذى ، حتى لا تفقد ما بقى لك من بساطة ومن نقاوة ...

لستك ترجع إلى الله بالتوبة ، حتى ترجع إليك نقاوتك الأولى . وعينك الرب ثوباً جديداً ، أبيض ...



الفصل الرابع

ها قد عرفت في الفصل السابق نتائج الخطية
وما يمكن أن تحطمه في داخل النفس البشرية
حيث تفقد صورتها الإلهية وبساطتها ونقاوتها
وتسورها الخوف والقلق والعذاب والخزي
والهوان، وفي أن تأخذ فكرة عن عقوبة
الخطية...

إن عرفت عقوبة الخطية

تخاف من الخطية

ينبغي أن نعرف جيداً أن الله كما أنه رحيم ولا حدود لرحمته ، كذلك هو أيضاً
عادل ولا حدود لعدله ...

وكما أنه شفيق يغفر الخطية ، كذلك هو قدوس يكره الخطية ...

غير أن البعض - للأسف الشديد - يستغل مراحم الله إستغلالاً رديئاً يقوده
إلى الإستهتار وإلى الخطية ، معتمداً اعتماداً زائفاً على مراحم الله !!

مثل هذا يخطيء كما يريد ، وإن وبخته يقول لك « إن الله رحيم ... ونحنون ...
وطيب ... لا يصنع معنا حسب خطايانا ، ولا يجازينا حسب آثامنا ... ! الذي غفر
للمرأة الزانية يغفر لي ، والذي غفر لزكا العشار يغفر لي أنا أيضاً ... والذي غفر
لأوغسطينوس يغفر لي ويساعني ... والذي قبل إليه مريم القبطية وموسى الأسود ،
يقبلي أنا أيضاً معهم » ... !!

يقول هذا ، وينسى التوبة العجيبة العميقة التي كانت لأولئك القديسين ، والتي
بسببها قبلهم الرب إليه . تلك التوبة التي كانت حداً فاصلاً في حياتهم ، وتغييراً
كلياً لسيرتهم ، فلم يرجعوا إلى الخطية مرة أخرى مطلقاً ، بل كانوا كل يوم يزدادون
في النعمة وينمون في محبة الله ... ولم تكن رحمة الله لهم مجالاً للإستهتار أو للإستمرار
في الخطية ، حاشا ...

ينبغي أن نفهم عدل الله ورحمته فهماً سليماً يقودنا إلى التوبة . وفي هذا المجال ما أجل أن نورد ما ذكره القديس بولس الرسول عن « لطف الله وصرامته » ...

لطف الله وصرامته

هكذا قال الرسول العظيم معلماً :
« هذا لطف الله وصرامته ،
أما الصرامة فعل الذين سقطوا ،
وأما اللطف فلك ، إن ثبت في اللطف ،
والا ، فأنت أيضاً ستقطع ... » .
(روم ١١ : ٢٢) .

لا يصح إذن أن نعتد على لطف الله ، وننسى صرامته ...
ولا يصح أن نعتد على رحمة الله ، وننسى عدله ...

رحمة الله عادلة :

إن صفات الله لا تنفصل عن بعضها البعض ، بحيث تقف واحدة منها مستقلة عن الأخرى . إنما نذكرها أحياناً منفردة ، من جهة التفاصيل وليس من جهة الفصل ، لكي يفهمها الناس . ولكنها متحدة لاهوتياً ...

الله عادل في رحمته ، ورحيم في عدله . عدله رحيم ، ورحمته عادلة . عدله مملوء رحمة ، ورحمته مملوءة عدلاً . ولا يمكن أن نفصل رحمته عن عدله ...

هذه الوحدة القائمة بين الرحمة والعدل هي أساس عمل الفداء .
لو كانت رحمة الله قائمة بذاتها - بدون العدل - لكان يكنى برحمته أن يقول للبشر « مغفورة لكم خطاياكم » ، وينتهي الأمر ، بدون صلب ...
لكنه بالرحمة غفر الخطية ، وبالعدل دفع ثمن الخطية ...

ولأن الله عادل ، تجسد ومات عنا ، ليدفع ثمن خطيئتنا ...
العدل لا بد أن يستوفى حقوقه ، حتى لو أدى الأمر أن يأخذ الله جسداً ، ويصير في الهيئة كإنسان ، يأخذ شكل العبد ، ويهان ويصلب ويتعذب ويموت ...
إن كان هكذا عدل الله ، فأين نهرب من عدله ؟

يمكن أن تشبه معاملة الله لك أحياناً بالمرأة : فكما أنك تنظر إلى المرأة في وقت ما فتري وجهاً بشوشاً فرحاً ، وتنظر إليها في وقت آخر فتري وجهاً حزيناً عابساً ، مع أن المرأة واحدة... هكذا - كالمرأة - يريك الله حالتك... تنظر إلى وجهه الله ، فتري حالتك من الداخل . إن كنت تائباً ، ترى الله في لطفه . وإن كنت مستهتراً ، ترى الله في صرامته .

لطف الله وصرامته يمثلها الملاك الذي ظهر للمريمتين عند القبر... هذا الملاك كان غيفاً ومفرحاً ... كان غيفاً للحراس لدرجة أن الكتاب المقدس يقول عنه «فن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كأموات» (مت ٢٨ : ٤) . ونفس هذا الملاك كان سبب فرح للمراأتين ومصدراً لبشرى مفرحة... هكذا الله غيف للبعض ومفرح للبعض الآخر .

ولطف الله وصرامته يظهران عموماً في عمل الملائكة :

كلنا نتكلم عن ملائكة الرحمة . فهل ننسى أنهم أيضاً ملائكة للعقوبة والإهلاك ؟

نحن نعلم أن ملاكاً أيقظ إيليا النبي وهو جوعان ، وأعطاه طعاماً لياكل . ومشى إيليا بقوة تلك الأكلة التي أخذها من الملاك أربعين يوماً (١ مل ١٩ : ٦-٨) . ونعلم أن ملاكاً أرسله الله إلى هاجر عندما أشرف إيليا على الموت عطشاً ، ففتح عينها فأبصرت بئر ماء ، وشرب ولدها وعاش (تك ٢١ : ١٥-١٩) . ونعلم أن ملاكاً نزل إلى الجب ، وسد أفواه الأسود فلم تضر دانيال (دا ٢٢ : ٦١د) .

كذلك ذهب ملاك إلى السجن ، وأخرج بطرس منه بعد أن فك السلسلتين من يديه (أع ١٢ : ٧-١٠) .

ويعوزنا الوقت أن نشرح عمل الملائكة الحالة حول المؤمنين وتنجيهم ، والملائكة المبشرة بالخيرات ، والملائكة التي هي «أرواح خادمة مرسله للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١ : ٤) . غير أن طبيعة الملائكة الرحيمة لم تمنع أن تكون الملائكة أيضاً للضرب والعقوبة والإهلاك .

وستضرب الآن أمثلة للملائكة أرسلهم الله للإهلاك والعقوبة :

من أمثلتهم الملاك المهلك الذى ضرب كل أبكار المصريين ، فأتوا جميعهم في ليلة واحدة « من بكر فرعون الجالس على كرميه إلى بكر الأسير الذى في السجن ، وكان صراخ عظيم في مصر ، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت » (خر ١٢: ٢٩ ، ٣٠) كذلك الملاك الذى رفع سيفه على أورشليم عندما أخطأ داود النبي وعد الشعب . ومات في ذلك اليوم سبعون ألف رجل (١أى ٢١: ١٤) .

ومن أمثلة ملائكة الإهلاك الملائكة السبعة أصحاب الأبواق الذين ورد ذكرهم في سفر الرؤيا ، وذكر ضرباتهم المخيفة (رؤ ٨: ٩) . ولا ننسى أن أول ذكر للملائكة في الكتاب المقدس كان مربعاً ، إذ طرد الله الإنسان من جنة عدن ، وأرسل الكارويم بسيف من نار لحراسة طريق شجرة الحياة حتى لا يأكل منها الإنسان (تك ٣: ٢٤) .

ولعل اللطف والصرامة يتجليان في وقت واحد في الملاكين المرسلين إلى لوط ، أنقذه في نفس الوقت ضرباً الناس الأشرار بالعمى (تك ١٩: ١٠ ، ١١) . كما يتجليان معاً في قصة أليشع النبي مع نعمان السرياني ، إذ شفى نعمان من برصه ، وجعل البرص الذى كان عند نعمان يلصق بيجزى « فخرج من أمامه أبرص كالثلج » (٢مل ٥: ١٤-٢٧) .

إن كان الله هكذا في لطفه وصرامته ، وهكذا أيضاً ملائكته وأنبيأؤه ، فلنخف نحن أيضاً لئلا نتعرض لصرامة الله بسبب خطايانا ...

عقوبات الله المخيفة

إن رحمة الله التى لا تحد ، لم تمنع ورود أمثلة لعقوبات غيفة ، أوقعها العدل الإلهى على البشرية ، بسبب خطايا الإنسان التى تحدت قداسة الله ، وقاومت صلاحه ، وكسرت وصاياہ ...

● مثال ذلك الطوفان ، الذى محا الله فيه الإنسان من على وجه الأرض ... (تك ٦: ٧) .

● مثال آخر هو حرق سدوم وعمورة ...
إذ أمطر الله عليها كبريتاً وناراً من السماء « وقلب تلك المدن وكل الدائرة ،

وجميع سكان المدن ونبات الأرض ... ونظرت امرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود ملح » (تك ١٩: ٢٤-٢٦) .

... ونحن نقف أمام الطوفان ، وأمام حرق سدوم وعمورة ونتعظ ونفكر ...

من قال إن خطايانا هى أقل من خطايا سدوم ؟!

أو أقل من خطايا الناس وقت الطوفان ؟!

أو أقل من خطية امرأة لوط التى صارت عمود ملح ؟!

ومن قال إن الله الذى أوقع هذه العقوبات فى القديم ، قد تغير فى العهد الجديد ؟!

أليس « هو هو ، أمساً واليوم وإلى الأبد » (عب ١٣ : ٨) « ليس عنده تغيير ولا ظل دوران » (يع ١ : ١٧) ...

• هو أيضاً الذى فى العهد الجديد أوقع حانانيا وسفيرا هيتين ... من أجل أنها كذبا فى حديثهما مع بطرس الرسول ... وكم من الناس يكذبون أثناء حديثهم مع الآباء الأساقفة والآباء الكهنة بل مع الآباء البطارقة أيضاً ...!

• وهو أيضاً الذى سمح لعبده بولس أن يقول عن خاطيء كورنثوس : « حكمت ... أن يسلم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد ، لكى تحصل الروح فى يوم الرب يسوع » (١ كوه : ٥) .

• ومن أعنف ما ورد فى الكتاب المقدس عن عقوبات الله للخطاة : اللعنات التى صلبها الله على من يعصى وصاياه .

وقد وردت قائمة بهذه اللعنات فى سفر التثنية إذ يقول الرب :

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه ... تأتى عليك جميع هذه اللعنات وتدرلك :

ملعوناً تكون فى المدينة ، وملعوناً تكون فى الحقل ،

ملعوناً تكون سلتك ومعجنتك ،

ملعوناً تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك ، نتاج بقرك وإناث غنمك ،

ملعوناً تكون فى دخولك ، وملعوناً تكون فى خروجك .

يرسل الرب عليك اللعن والإضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله ،

حتى تهلك وتفتني سريراً من أجل سوء أعمالك إذ تركتني ...
تكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً ، والأرض التي تحتك حديداً ...
يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك ، في طريق واحدة تخرج عليهم ، وفي سبي
طرق تهرب أمامهم .

وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ...
ولا تنجح في طرقك ، بل لا تكون إلا مظلوماً منصوصاً كل الأيام ، وليس
مخلص ...

أيضاً كل مرض وكل ضربة - لم تكتب في سفر الناموس هذا - يسلمها الرب
عليك حتى تهلك ...

وتكون حياتك معلقة أمامك ، وترتعب ليلاً ونهاراً ، ولا تأمن على حياتك .
في الصباح تقول ياليتك المساء ، وفي المساء تقول ياليتك الصباح ، من ارتعاب
قلبك الذي ترتعب ، ومن منظر عينيك الذي تنظر ... » (تث ٢٨: ١٥-٦٨) .

حقاً مخيفة ومرعبة هي هذه اللعنات . ومن شدة ما فيها من رعب ،
أصمت عن تسجيل جميعها ...

إنها تعطينا فكرة عن قداسة الله التي لا تتساهل مطلقاً مع الخطية ، وتعطينا فكرة
عن عدل الله الذي يجازي الخطية حسب ما فيها من بشاعة ، فليتنا نقرأ كل هذا
ونتعظ ونتوب ... تاركين الخطية التي تسبب كل هذه اللعنات ...

● حقاً إن اللعنة دخلت إلى العالم نتيجة الخطية :

عندما أخطأ آدم ، قال له الرب « ملعونة الأرض بسببك » (تك ٣: ١٧) . ثم
تطور الأمر فزحفت اللعنة إلى الإنسان ذاته ، وهكذا قال الرب لقائين « ملعون أنت
من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك » (تك ٤: ١١) « ملعون
أنت ... » تماماً مثلما قال للحية من قبل « ملعونة أنت ... » (تك ٣: ١٤) . وهكذا
تشابه الإنسان الخاطيء مع الشيطان « الحية القديمة » وحق أن يسمى الخطاة بأنهم
« أولاد إبليس » (١ يو ٣: ١٠) ، أو أنهم « أولاد الأفاعي » (مت ٣: ٧) .

ثم كانت لعنة الطوفان ، التي هي لعنة الإفناء (تك ٨: ٢١) .
ثم كانت لعنة العبودية التي وقعت أولاً على كنعان ، حيث قيل له « ملعون
كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته » (تك ٩: ٢٥) .

ثم كانت لعنات الناموس (تث ٢٨) التى شملت عقوبات عديدة ...
 كان منها الموت والمرض والوباء والفقر والفشل والظلم والقلق والهزيمة ...
 وفى العهد الجديد لعن السيد المسيح شجرة التين المورقة غير المثمرة (مر ١١: ٢١)
 التى تعطى فكرة عن الرياء مع عدم التقوى ، وكانت رمزاً لكل من يسلك هذا
 السبيل .

حقاً من يقرأ كل هذا ولا يخاف ؟!

ومن يحتمل أن يلعنه الله ؟!

بل من يحتمل أن يفقد البركة التى أخذها أولاً من الرب ؟!
 فلنستب يا إخوتي لأن كل هذه الأمور قد تركت لنا مثلاً ، وكتبت لإنتذارنا ،
 نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور (١ كو ١٠: ١١) .
 ولنغسل خطايانا بدموع التوبة ، قبل أن يلحقنا يوم الدينونة الرهيب حيث
 لا ينفع بكاء ولا توبة .

عذاب الأبديّ المرعب

إن مجرد التفكير فى يوم الموت ويوم الدينونة ، يبعث فى قلب الخاطيء
 قشعريرة ، ويقوده إلى التخشع والتوبة ...

إنه يوم رهيب مخوف :

يقول عنه أشعياء النبي « هوذا يوم الرب قاسياً بسخط وحمو غضب ،
 ليجعل الأرض خراباً ويبعد منها خطاياها » (١٣: ٩) . « فى ذلك اليوم يطرح
 الإنسان أوثانه ... ليدخل فى نقر الصخور وفى شقوق المعازل ، من أمام هيبة
 الرب ومن بهاء عظمته ، عند قيامه ليرعب الأرض » (أش ٢ : ٢٠ ، ٢١)

وعن هذا اليوم يقول ملاخى النبي « فهذا يأتى اليوم المتقد كالتنور . وكل
 المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشاً ، ويحرقهم اليوم الآتى - قال رب الجنود -
 فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١) .

حقاً إن يوم مجيء الرب لرهيب . قال عنه المرتل في المزمور « السحاب والضباب حوله . العدل والقضاء قوام كرسية . النار تسبق وتسلك أمامه ، وتحرق أعداءه من حوله . أضاعت بروقه المسكونة . نظرت الأرض فتزلزلت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب ، قدام سيد الأرض كلها » (مز ١٧) .

هذا اليوم الرهيب شرحه القديس يوحنا الرسول في رؤياه فقال « ونظرت لما فتح الختم السادس ، وإذا زلزلة عظيمة حدثت . والشمس صارت سوداء كمنع من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقطاتها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تترحزحاً من موضعها . وملوك الأرض والعظاء والأنبياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر . أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور أسقطي علينا ، وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف ، لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف » (رؤ ١٢: ١٧-١٧) .

هذا هو حال الخطاة والأشرار في ذلك اليوم . أما الأبرار فإنهم يصعدون إلى الرب على السحاب ، ويكونون في كل حين مع الرب ، في مجده ...
وبينا يكون الأبرار في « فرح لا ينطق به ومجيد » (١ بط ١: ٨) ، وبينا ترتفع تراتيل القديسين ومعهم قيارات الله (رؤ ١٥: ٢، ٣) ، وبينا يتمتع هؤلاء بصحبة الرب وقديسه في أورشليم السماوية ... بينا هؤلاء في النعيم ، يكون الأشرار في عذاب لا يطاق ، لا يعرفون للراحة طعماً إلى الأبد .

عذاب الأشرار والآلهم :

يقول الرب عنهم « فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة أبدية » (مت ٢٥: ٤٦) . ويقول أيضاً « يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعائر وفاعلي الإثم ، ويطرحونهم في أتون النار . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان . حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم » (مت ١٣: ٤١، ٤٢) .

ما أشد هذا العذاب الأبدي الذي لا ينتهي ، في بكاء وصرير الأسنان في الظلمة الخارجية ، وفي هيب النار ، يزيده ألماً تلك المقارنة التي تعقد بين حال الأشرار وحال الأبرار .

يصف بولس حالتهم فيقول « ... سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته، متى جاء ليتمجد في قديسيه ويتعجب منه في جميع المؤمنين » (٢ تس ١: ٩، ١٠).

ويقول أيضاً « سخط وغضب ، شدة وضيق ، على كل نفس إنسان يفعل الشر، اليهودى أولاً ثم اليونانى . ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح ... » (رؤ ٢: ٨-١٠).

لا شك أننا نخاف ونرتعش حيناً نسمع هذا الرسول القديس يقول : « فإنه إن أخطأنا باختيارنا - بعدما أخذنا معرفة الحق - لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف وغيره نار عتيدة أن تأكل المضادين » (عب ١٠: ٢٦، ٢٧) . ويعمل الرسول ذلك قائلاً « من خالف ناموس موسى ، فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رافة . فكم عقاباً أشر تظنون أنه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنساً وازدرى بروح النعمة فإننا نعرف الذى قال : لى الإنتقام أنا أجازى يقول الرب ، وأيضاً الرب يدين شعبه . مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١)

والقديس يوحنا الحبيب ، الرسول المشهور بمحدثه المستفيض عن محبة الله ، يتحدث فى رؤياه عن « البحيرة المتقدة بالنار والكبريت » (رو ٢١: ٨) . ويصف عقاب الخاطيء فيقول « سيشرب من جو غضب الله المصبوب صرفاً فى كأس غضبه ، ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف . ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين . ولا تكون راحة نهاراً وليلاً » (رو ١٤: ١٠، ١١) . « وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين » (رؤ ٢٠: ١٠) .

ويشرح كمثال لهذا العذاب عقوبة بابل الزانية فيقول « بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت ، بقدر ذلك أعطوها عذاباً وحزناً ... وسيبكى وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتنعما معها حيناً ينظرون دخان حريقها ، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين : ويل ويل » (رؤ ١٨: ١٧-١٠) .

ما أرهب تلك الدينونة . من أجل هذا وضعت الكنيسة المقدسة ، أن يقال فى صلاة الستار « يارب إن دينونتك لمرهوبة ، إذ تخشع الناس ، ويقف الملائكة .

وتفتتح الأسفار، وتكشف الأعمال، وتفحص الأفكار. أية إدانة تكون إدانتى أنا
المضبوط فى الخطايا، من يطفى لهيب النار عني، إن لم ترحمني أنت يا محب
البشر...» .

والله لا يرحم الخطيء، إلا إذا كان يتوب ...

حقاً، إنه خجل عظيم، أن تكشف جميع الأعمال والأفكار، أمام كل
الناس والملائكة. من يستطيع أن يحتمل إنكشافه فى تلك الساعة؟!

ومرعب أيضاً ومجمل أن ينفصل الخطاة عن الأبرار ... هنا على الأرض يجتمع
الكل معاً، أنجس الفاسقين مع أقدس الصالحين. أما هناك فلا. يبدأ الله فيفصل
الزوان عن القمح، والجنداء عن الخراف، وأهل الشمال عن أهل اليمين. يحرم
الخطاة من عشرة القديسين إلى الأبد، ومن عشرة الملائكة، ومن عشرة الله...

تصوروا الإنسان البار عندما ينتقل تحمله الملائكة مثل لعازر (لوقا: ١٦: ٢٢)،
وتأخذه إلى أحضان القديسين... تقوده فى ذلك وتعرفه بكل أحد.

هذا هو نوح، وهذا هو هابيل، وهذا هو شيت، وبقا الآباء البطارقة
وهؤلاء هم موسى، وصموئيل، وأرمياء، وأشعيا، ودانيال، وبقا
الأنبياء...

وهنا الأنبا أنطونيوس، والأنبا مقاريوس، والأنبا باخوميوس، وبقا الآباء
الرهبان...

وتعال لريك الأنبا بولا، وأبا نفر، والأنبا ميصائيل وبقا الآباء السواح ...
وانظر هنا الأنبا أثناسيوس، والأنبا كيرلس، والأنبا ديسقورس، وبقا أبطال
الإيمان...

وهنا مارجرجس، ومارمينا، والقديسة دميانة، وبقا الشهداء ...
وهؤلاء هم الملائكة، والقوات، والأرباب، والسلاطين، والشاروبيم،
والسارافيم، وكل الجمع غير المحصى الذى للقوات السماوية ...
إنها حفلة تعارف عجيبة تتعرف فيها الروح البارة على مجمع الملائكة والقديسين!

أما الخطاة فيكونون واقفين من بعيد، فى الظلمة الخارجية، بينهم وبين
الأبرار هوة عميقة، محرومين من مجمع الأبرار، ومن متعة الخلطة بهم...

لا شك أنها مؤثرة جداً تلك الكلمات التي تشرح حالة الغنى في الجحيم ، إذ يقول الكتاب في ذلك عنه :

فرفع عينيه في الجحيم ، وهو في العذاب ،
ورأى إبراهيم من بعيد ، ولعازر في حضنه ،
فنادى وقال ، يا أبني إبراهيم إرحمني ...
وأرسل لعازر ، ليبل طرف أصبعه بماء ،
ويبرد لساني ، لأني معذب في هذا اللهب .

(لو ١٦ : ٢٣ ، ٢٤)

يا للعجب !! أليس هذا هو لعازر المسكين الذي كانت الكلاب تلحس قروحه
الذي كان هذا الغنى ينظر إليه من قبل في استمزاز... وهوذا الآن قد تغير الوضع ،
وأصبح الغنى العظيم يشتهي أن يأتيه لعازر ، ولا يحصل على مشتهاه...!
إن الخطيئة هي حرمان من القديسين ، وهي بالأكثر حرمان من الله ...
كل هذا عن العقوبة الأبدية . ولكن بالإضافة إلى هذه ، هناك عقوبات أخرى
للخطيئة ، عقوبات على الأرض .

عقوبات للخطيئة



للخطيئة عقوبات : عقوبة أرضية ، وأخرى في الأبدية .
أما العقوبة الأبدية ، فيمكن للإنسان أن ينجو منها بالتوبة . بعكس الأرضية
التي قد يفرضها الله على الإنسان فيقاسمها على الرغم من توبته .
أبوانا الأولان كمثال :

عندما أخطأ آدم وحواء ، ماذا كانت عقوبتهما ؟ كانت هي الموت . هذا الموت
خلصهما منه المسيح بموته . ولكن على الرغم من حكم الموت هذا الذي أنذرهما به
الله من قبل . لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أوقع الله عليها عقوبة أخرى
أرضية .

فماذا كانت العقوبة الأرضية لآدم وحواء ؟

الطرد من الجنة كانت عقوبة مشتركة لكليهما . وماذا أيضاً ؟

قال الرب لآدم « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ... يعرق وجهك تأكل خبزاً ... » (تك ٣ : ١٧، ١٩) . وظلت عقوبة التعب وعرق الجبين لاصقة بجميع أبناء آدم إلى يومنا هذا على الرغم من عمل الفداء العظيم على الصليب .

وقال الرب لحواء « تكثيراً أكثر أتعاب جيلك ، بالوجع تلدين أولاداً » . وجاء السيد المسيح ، وغفر للمرأة خطيتها ، ومع ذلك فهي ماتزال تحبل وتلد بالتعب والوجع . إنها عقوبة أرضية ...

إن هذه العقوبة الأرضية التي وقعت على آدم وحواء ، هي مثال واضح لما يقاسيه الإنسان على الأرض نتيجة خطيته حتى إن غفرها الله له في السماء ...

مثال المرأة الزانية :

من المعروف أن السيد المسيح غفر لكثير من الزانيات كالمرأة الزانية التي بللت قدميه بدموعها ، ومستحلتها بشعر رأسها . والمرأة التي ضبطت في ذات الفعل ، وأنقذها الرب من الرجم قائلاً للمشتكين عليها « من كان منكم بلا خطية ، فليرحمها أولاً بحجر » (يو ٨ : ٧) .

ومع هذه المغفرة فقد عاقب الرب المرأة الزانية بتطبيقها وبعدم الزواج ثانية (مت ٣٢ : ٥ ، مت ١٩ : ٩ ، لو ١٦ : ١٨) .

وكثير من الناس يتساءلون لماذا لا يسمح بالزواج للزانية ، وقد غفر الرب للمرأة الزانية . والجواب بسيط . يمكن أن يغفر الرب للزانية إذا تابت ، وهكذا لا تفقد أبنيتها بل تجد لها نصيباً في الفردوس . أما ههنا فإنه توجد لها عقوبة أرضية تكابدها جزاء خطيتها . مادامت لم تكن أمينة لزوجها ، فلا يمكن أن يأتئنها الرب على زواج آخر ، بل تكون درساً لغيرها ...

والعقوبة الأرضية على أنواع :

إما أن تكون نتيجة طبيعية للخطية ...

وإما أن تكون ضربة من الله ...

وإما أن تكون عقوبة من المجتمع ، أو من الدولة ، أو من الكنيسة .

العقوبة الأرضية كنتيجة طبيعية للخطية :

هناك خطايا كثيرة تحمل عقوبتها في ذاتها :

فالزاني مثلاً قد يصاب بالضعف أو الأنيميا أو بعض الأمراض السرية .
والذى يتعاطى المخدرات مثلاً قد يصاب بفقدان الشخصية وبتلف الأعصاب .
والذى يدخن قد يصاب بالسرطان أو داء الرئة أو ضغط الدم أو غيرها من الأمراض .

والطالب الذى يهمل دروسه ، له عقوبة على الأرض هى الرسوب والفشل .
والذى يلعب الميسر (القمار) ، يصاب بالفقر والعوز ..
والأم التى لا تترى إبنها ، تقاسى الأمرين على الأرض من سوء أخلاق هذا الإبن .

كل هذه عقوبات على الأرض ، غير العقوبة الأبديّة . وقد تمحى العقوبة الأبديّة بالتوبة ، وتظل العقوبة الأرضية كما هى . فالأم التى لم ترب إبنها ، قد تتوب وتغفر لها خطيتها ، ويظل إبنها مرارة قلب لها على الأرض . والتلميذ الذى لم يذاكر ورسم ، قد يتوب ويغفر له الرب إهماله ، ولكن هذا لا يمنع أن سنة من عمره قد ضاعت على الأرض سدى ... والذى تسبب له الخطية مرضاً ، قد تغفر له الخطية بالتوبة ، ويظل المرض معه كعقوبة أرضية هى نتيجة طبيعية للخطية .

● العقوبة الأرضية كضربة من الله :

قد يكون المرض مثلاً نتيجة طبيعية للخطية كالأمراض التى تنتج عن التدخين وتعاطى المخدرات والزنى وشرب الخمر ... الخ . على أن هناك نوعاً آخر من الأمراض يعتبر ضربة من الله . مثل ضربة البرص التى أصابت جيجزى تلميذ أليشع عقاباً له على عيبه للمال وكذبه على معلمه (٢مل ٥ : ٢٧) ، ومثل ضربة البرص التى أصابت مريم أخت هارون وموسى عقاباً لها على تكلمها ضد موسى (عدد ١٢ : ١٠) ، ومثل ضربة الدمامل التى أصابت مصر عقاباً على قساوة قلب فرعون (خر ٩ : ١٠) . ومثل ضربة الوبأ الذى أصابت بنى إسرائيل عقوبة على خطية داود الملك ، فمات منهم فى يوم واحد سبعون ألف رجل (٢ صم ٢٤ :

١٥). وعن مثل هذه الضربة يقول الرب في لعنته للخاطيء « يلمص بك الرب الربوباً حتى يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسبل والحمى والبرداء والإلتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك... يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء» (تث ٢٨: ٢١، ٢٢، ٢٧).

وغير المرض هناك ضربات أخرى من الله : كالفشل مثلاً ... قد يكون الفشل نتيجة طبيعية لإهمال الإنسان وتقصيره، وقد يكون أيضاً ضربة من الله لزوال البركة (تث ٢٨).

كذلك من أمثال هذه الضربات : الهزيمة ، والعبودية ، بل الموت أيضاً . إن الخطية هي موت ، وعقوبة الخطية هي الموت أيضاً . مثلما حدث مع عالى الكاهن إذ لم يرب أولاده (١ صم ٤ : ١٨) . تأمل يا أخى فى حياتك . أنظر فى كل ما فعلته وفشلت فيه ، لعل هناك خطية هى السبب فى كل ما يصيبك من ضربات .

• عقوبات للخطية من المجتمع والدولة والكنيسة :

هناك عقوبات للخطية تصيب الإنسان على الأرض لا يوقعها الله مباشرة ، وإنما يوقعها المجتمع أو الدولة أو الكنيسة .

فن العقوبات التى ينالها الإنسان الخاطيء من المجتمع الفضيحة والعار وسوء السمعة ، بل قد يصل الأمر إلى الإحتقار أو إلى نبذ الإنسان من المجتمع الذى يعيش فيه وتحاشى الخلطة معه ..

وقد تكون العقوبة الأراضية صادرة من الدولة كالأحكام التى يصدرها القضاء على المذنبين بالسجن أو الأشغال الشاقة أو الإعدام أو النفى . وقد يكون الحكم بالفصل من العمل أو بجزاءات مالية ... الخ

وقد تجتمع العقوبات معاً . عقوبة من الله . مع فضيحة من المجتمع ، مع سجن تحكم به الدولة ...

وهناك أيضاً عقوبات كنسية كثيرة تشملها كتب القوانين الكنسية . ومن ضمنها الحرمان من التناول فترة معينة ، أو الحرمان من دخول الكنيسة ، أو الإيقاف عن الكهنوت أو التجريد ... أو عقوبات أخرى لا داعى الآن لسردها . ولكنى أقول

أن الكنيسة عندما كانت صارمة وحازمة في عقوبتها ، كانت جماعة المؤمنين أكثر قداسة وحرصاً وتديقاً ، وفيها خوف الله ...

وأنت أيها الأخ ، إسأل نفسك : هل ارتكبت خطأ تستوجب به حكماً كنسياً لم يطلع عليك ؟ ربما تكون هارباً من مثل هذا الحكم ولا تستحق دخول الكنيسة حسب القوانين ..

إن العقوبة الأرضية أمر سمح الله أن يوقع حتى على أحبائه القديسين الذين جاهدوا لأجله وفعلوا معجزات بإسمه .

عقوبات لأعيان الله القديسين

١) مثال داود النبي

أخطأ داود النبي ، زنى وقتل ... ثم اعترف بخطيئته على ناثان قائلاً « أخطأت إلى الرب » وسمع العفو الإلهي بقول ناثان له « والرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) . وهكذا رفع الرب عن داود العقوبة الأبدية . أما العقوبة الأرضية فبقيت ... وكيف كان ذلك ؟

تاب داود توبة عجيبة وعميقة ، وصارت له الدموع خبزاً نهاراً وليلاً ، حتى قال « أعوم في كل ليلة سريري ، وبدموعي أبل فراشي » (مز ٦) . وانسحق نفسه في الشراب وتذلل أمام الله ... ومع كل هذا ظل يطارده قول الرب « والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب ... هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وأخذ نساءك أمام عينيك وأعطيتن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس » (٢ صم ١٢ : ١٠ ، ١١) ... وقد كان ...

فلم يفارق الزنى بيته ممتثلًا في خطايا إبنيه أمنون وإبشالوم . ولم يفارق السيف

بيته أيضاً حيث قام ضده إيشالوم . وخرج داود من أورشليم حافى القدمين وباكياً ومضطرباً وخائفاً من إبنة ... وقضى فترات ذل وتعب على الأرض نتيجة لخطيته ...

وحتى عندما أراد داود أن يبنى بيتاً للرب ، وأعد كل شىء من حجارة وحديد ، « ونحاس كثير بلا وزن ، وخشب أرز لم يكن له عدد » ، لم ينس له الرب الدماء التى سفكها ، بل كان إليه كلام الرب قائلاً « قد سفكت دماً كثيراً ... فلا تبني بيتاً لإسمى ، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى (١ أى ٢٢ : ٣-٨) . وهكذا حرمة الرب من بناء الهيكل ، وبقيت العقوبة الأرضية على الرغم من المغفرة فى السماء ...

تكرر الأمر مرة أخرى عندما أخطأ داود وعد الشعب ، فغضب عليه الرب . عندئذ ندم داود : ضربه قلبه ، فأحس بخطيته وتاب عنها ، واعترف بها إذ صرخ إلى الرب قائلاً « لقد أخطأت جداً فى ما فعلت . والآن يارب أزل إثم عبدك ، لأنى انعمت جداً » (٢ صم ٢٤ : ١٠) .

فهل رضى الرب بهذه التوبة منه ، وهذا الاعتراف ، وهذه الصلاة ... ؟ نعم ، قبل توبته ، وغفر له خطيته ، وعما عنه العقوبة الأبدية . ولكن بقيت العقوبة الأرضية . وهكذا مضى الرب فى معاقبته لعبده ، وعرض عليه ثلاث ضربات شديدة تحمل معنى الإفناء والإهلاك ، وهى الجوع والوبأ وسيف الأعداء ! وقال داود مستسلماً « قد ضاق بى الأمر جداً . أقع فى يد الله - لأن مراحمه كثيرة - ولا أقع فى يد إنسان » . إلا أن الله على الرغم من هذا التذلل لم يشأ أن يعفو . وأرسل ملاكاً مهلكاً رفع سيفه على أورشليم وقتل منها سبعين ألف رجل ، حتى صاح داود فى ألم لا يطاق مخاطباً الرب « ها أنا قد أخطأت وأنا أذنبت . وأما هؤلاء الخراف ، فماذا فعلوا ؟ ! فلتكن يدك علىّ أنا وعلى بيت أبى » (٢ صم ٢٤ : ١١-١٧) .

ما هذا يارب الذى فعلته مع عبدك داود ؟ ! أليس هو الذى قلت عنه « وجدت داود بن يسى رجلاً حسب قلبى » ؟ ! (٢٢ : ١٣) . لماذا لا تتراءف وتغفر ؟ يقول : نعم ، أنا أغفر فى السماء ، أما على الأرض فيأخذ عقوبته ... يا للهول ! ... حتى مع داود يارب ؟ !

حتى مع داود الذى يحبك ، الذى قال لك « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز ١١٨) ؟! داود الذى كان ينهض فى نصف الليل ليشاركك على أحكام عدلك ، الذى كان يقول « سبقت عيناي وقت السحر ، لأتلو فى جميع أقوالك » (مز ١١٨) ؟! داود الى كان يقول لك « يا الله ، أنت إلهي ، إليك أبكر . عطشت نفسى إليك . إلتحقت نفسى وراءك » (مز ٦٢) ... ! داود رجل التسبيح والصلاة ، رجل المزمار والقيثار والعشرة الأوتار... داود تعمل معه هكذا ؟!

فإن كان الأمر هكذا مع داود ، النبي ، المحبوب ، فإذا نقول نحن عن أنفسنا ، وليست لنا مثل دالته ، ولا مثل قداسته ، ولا مثل توبته ؟! علينا أن نستيقظ إذن ونصحو لأنفسنا ، لأن إلهنا عادل ويحاسب كل واحد حسب أعماله ، مهما كان مركزه الروحي عند الله نفسه . إنه لم يفعل هكذا مع داود وحده ، بل مع موسى أيضاً :

٩ مثال موسى النبي

مثال موسى النبي ، أصعب فى دلالاته من مثال داود . من ذا الذى يستطيع أن يصف المحبة التى كانت بين الله وعبده موسى ؟! موسى حبيب الله وكنيسته ، موسى رجل الآيات والمعجزات ، الذى شق البحر الأحمر ، الذى ضرب الصخرة فأخرجت ماءً . موسى الذى بصلاته حول الله المياه المرة إلى مياه حلوة ، الذى بصلاته أنزل اله المن والسلوى من السماء ، الذى كان رفع يديه أقوى من جيش يشوع . موسى الذى دافع الله عنه لما تقولت عليه مريم وهارون ، فضرب مريم بالبرص ، وقال لمريم وهارون « إن كان منكم نبي للرب ، فبالرؤيا استعلن له ، فى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بتي . فأ إلى قم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز ، وشبه الرب يعاين . فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى » (عد ١٢: ٥-٨) .

أخطأ موسى عندما ضرب الصخرة مرتين قائلاً للشعب المتذمر المتمرد « إسمعوا أيها المردة ، أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماءً » . فكانت النتيجة أن الله حكم عليه بعدم دخول أرض الموعد » (عد ١٢: ٧-١٢) .

ما هذا يارب الذى تفعله ؟ هل تنسى كل هذه العشرة الطويلة من أجل

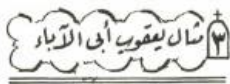
خطية واحدة حدثت في ظروف قاسية؟! ولكن الله يصبر على أن موسى لا يدخل الأرض! ما هذا الذي تقول يارب؟ دا على رأى المثل (طباخ السم بيدوقه). وأنت تعرف كيف أننى تعبت من أجل هذا الشعب عشرات السنين، واحتملت تدمره في صبر وأنا أقوده في البرية وهو متمرد صلب الرقبة... هل تنسى تعجبى، أنا موسى عبدك، حبيبك، صديقك، كليمك...!

كل هذا ولا فائدة، والرب مصر على عقوبته. وتضرع إليه موسى: أنا أخطأت، يارب سامح، يارب اغفر، يارب إنس هذه الخطية «دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة». وكان الله يقول بنفس المبدأ...

أنا أسامح في ملكوتى. أما ههنا فتنفذ العقوبة، حتى على موسى. ولما ازداد تضرع موسى النبي، غضب الله عليه وقال له «كفاك. لا تعد تكلمنى أيضاً فى هذا الأمر» (تث ٣: ٦). وأخيراً بعد إلحاح، وتوسلات وتضرعات، سمح له أن يرى الأرض من بعيد، من على الجبل، ولكن لا يدخل إليها!!

إن الله فى عدله لم يحامل موسى حبيبه على الرغم من دالته عنده. وأنت يا أخى ما هى دالتك؟ هل مقامك عند الله أعلى من موسى؟! إن كان الأمر هكذا، أفلا تشفق على نفسك وتتوب، لئلا تتعرض لعدل الله نتيجة خطيتك، فلا تشفع فيك حياة مقدسة سابقة.. إن كان موسى ودادو لم يفلتا من العقوبة، فهل تفلت أنت؟

أعطيك مثلاً آخر للعقوبة الأرضية هو يعقوب أبو الآباء :



يعقوب هذا الذى أحبه الله وهو فى البطن، قبل أن يولد، وقبل أن يفعل خيراً، قال الله «أحبيت يعقوب وأبغضت عيسو» (رو ٩: ١٣). وأعطاه الرئاسة على أخيه الكبير وهو فى البطن، فقال لرفقة «فى بطنك أمتان، ومن أحشائك يفترق شعبان... وكبير يستعبد لصغير» (تك ٢٥: ٢٣). يعقوب هذا أخطأ، إطاعة لمشورة أمه التى كانت تحبه أكثر من عيسو، وخدع أباه وأخذ البركة...

فلم يتركه الله بدون عقوبة، على الرغم من ظهوره له، إذ نظر الله وجهاً لوجهه (تك ٣٢: ٣٠)، وعلى الرغم من المواعيد التي منحه إياها، والبركة التي زوده بها، والرؤى التي أعلنها له. إذ ظهر له على السلم الواصلة بين السماء والأرض وقال له «يكون نسلك كتراب الأرض... ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب» (تك ٢٨: ١٤، ١٥).

على الرغم من كل هذا، كما غش يعقوب أباه، سمح الله لأولاده أن يغشوه بالمثل، عندما باعوا يوسف وغمسوا قيصه في دم تيس ذبحوه، وأشعروا أباهم أن وحشاً قد افترس يوسف. ووقع يعقوب في خدعة أولاده، ومزق ثيابه، وناح على إبنيه أياماً كثيرة (تك ٣٧: ٣١-٣٤). كذلك خدعه خاله لابان، وزوجه ليثة بدلاً من راحيل التي كانت أحب إلى قلبه والتي تعب من أجلها سنوات طويلة. وغشه خاله أيضاً في أجرته فغيرها مرات عديدة...

وظلت المتاعب تلاحق يعقوب، حتى أنه - في كلامه مع فرعون - لخص حياته في عبارة موجزة قال فيها «أيام سنى غربتي... قليلة وردية» (تك ٤٧: ٩)... حقاً إن خطيئته كانت قد غفرت، وأظهر له الله رضاه بالبركة والرؤى المواعيد. ولكنه - على الرغم من محبته له - لم يمنع عنه العقوبة الأرضية... هل اقتنعت أيها الأخ المبارك بخطورة عقوبة الخطية. يعزى الوقت لو ضربت لك أمثلة أخرى عديدة من الكتاب المقدس، إنما أترك هذا الأمر لتأملك الخاص. وأعطيك الآن مثلاً أو مثالين من تاريخ الآباء:



كان في مبدأ حياته قاتلاً وقاسياً. ثم تاب، وأتى إلى الدير وترهب، وتدرج في حياة النعمة حتى صار مثلاً للوداعة والطيبة وعبة الأخوة، وبلغ من محبته أنه كان أحياناً يمر على قلالي الرهبان يحمل جزارهم سرّاً ويمضى إلى البئر ليملاؤها لهم ماءً. ومنحه الرب موهبة الرؤى وصنع المعجزات. وتناهى في القداسة جداً حتى صار مرشداً روحياً لكثيرين. فأخذوه ورسموه قساً. وصار من أعمدة البرية المعدودين.

ولكن على الرغم من كل هذه التوبة ، وهذه القداسة ، وهذه المواهب ، هل نسى له الله خطاياه الأولى التي تستحق العقوبة ؟

نسمع أنه عندما هجم البربر على الدير ، هرب الرهبان ، ودعوا الأنبا موسى ليهرب معهم . فقال لهم : أنا أعلم يا أولادى أن البربر سيقتلونى ، لأننى قتلت كثيرين فى شبانى . والكتاب يقول : « من أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ » (مت ٢٦ : ٥٢) . وحدث هذا فعلاً ، وهجم البربر على أنبا موسى فقتلوه ، وتمت النبوءة ...

لعل البعض يتساءل : ما معنى أن يموت قديس عظيم هذه المينة البشعة ، وقد تاب عن جهالات شبابه ؟! ولكنها طريقة الله . مثال آخر :

مثال القديس الأنبا بيمن

قرأت قصة فى إحدى المخطوطات الثمينة بالدير ، قيل إن قديساً يدعى الأنبا بيمن كان متقشفاً جداً ، وكان يعيش حياة الفقر والعوز ، وتغلو مغارته من غطاء يقيه البرد بالليل ، هذا القديس زاره شاب فقضى الليلة فى مغارة أخرى إلى جواره . ولما أصبح الصباح سأله القديس بيمن كيف قضى ليلته ، فأجاب الشاب « تعبت من شدة البرد لعدم وجود غطاء » . فقال القديس فى خجل « أما أنا فتمت متدفئاً » . فسأله الشاب كيف كان ذلك ، فأجاب « أتى أسد بالليل ونام إلى جوارى فدفأنى بجسمه » .

ولما انذهل الشاب مما حدث للقديس وكيف يرقد إلى جواره أسد دون أن يفتنسه . حينئذ قال القديس « أنا أعلم يا ابنى ، أنه لا بد ستفتنسى الوحوش فى يوم من الأيام . ذلك لأن شاباً طرقتى ذات ليلة فلم أفتح له وكان خائفاً وقد افترسته الوحوش فعلاً . كما عرفت » ...

وحدث ما توقعه الأنبا بيمن ...

هذه أمثلة للعقوبة الأرضية . ويوجد من أمثلتها الكثير جداً لمن يقرأ الكتاب ويطالع على قصص التاريخ ، وضعت كلها مثلاً لتعليمنا ...

• لهذا كله ، لا يصح أن نفهم مراحم الله الواسعة منفصلة عن عدله ، لئلا بحجة مراحم الله وحنوه وعطفه ، نقاد إلى الإستهانة والإستهتار ، ونرتكب

الخطية غير شاعرين بخطورتها ، وفي محبة الله لنا ننسى مغافته ... !
لأن بعض الناس تستبيح لنفسها الخطية ، وتظن أن الأمر في منتهى السهولة !
مجرد دقائق تقضيها مع أب الاعتراف ، تعترف وتنال الحل ، وكأن شيئاً لم يحدث ... !! كأن وصايا الله لم تكسر ، وكأن قلب الله لم يُجرح ... !

حقاً أيها الأخ ، إن الأب الكاهن عندما يقرأ لك صلاة التحليل ، إنما يضيف خطيتك إلى الكأس التي شرب الرب مرارتها ، فتنجو من العقوبة الأبدية بدم المسيح إن كنت تائباً . أما العقوبة الأرضية فلها حساب آخر ربما لا تنجو منه ...
إحذر إذن لنفسك ، فالأمر ليس سهلاً كما تظن ...

ومع ذلك فلتعزيتكم ، ولكي لا تقعوا في الرعب واليأس ، أقول لكم :
إن الله لا يعاقب بعقوبة أرضية على كل خطية ...
وذلك لأن خطايا الإنسان لا تحصى ، وهو في كل يوم يخطئ ... « وفي أشياء كثيرة نعثر جميعنا » (يع ٣ : ٢) . فلو كان الله يعاقب بعقوبة أرضية على كل خطية ، لتوالت العقوبات في غير نهاية ، وبغير حصر ، لتناسب عدد الخطايا ..
ولكن الله يترك الكثير ... ووسط مئات الخطايا ، قد يعاقب على واحدة منها ، حتى لا يستهتر الإنسان ويقع في اللامبالاه ، وأيضاً لكي يتضع ويستفيد روحياً ، كما حدث لداود النبي .

إن العقوبة الأرضية ، هي ولا شك من مراحم الله ، يدعوننا بها إلى اليقظة ، فنفيق من غفلتنا ، كما أنه يقودنا بها إلى الإنسحاق . فنشعر أننا أخطأنا ، وأننا أغضبنا الله منا ، فنتوب ، ونرجع إليه ... وهكذا ننجو من العقوبة الأبدية ، ليس لأن العقوبة الأرضية قد حلت محلها ، حاشا ! بل لأنها أيقظتنا لتتوب ، فنستحق المغفرة .

إننا إن تألمنا هنا ، فهذا أفضل من آلام الأبدية ، ومن عارها ...
ومع ذلك ، فإن كانت عقوبات الأبدية مخيفة ، فإن الأمر لا يزال بيدنا .
فحتى هذه اللحظة ، مازال في أيدينا أن نقرر مصيرنا ...
لقد استطاع القديس بولس الرسول أن يقول بكل جرأة « وأخيراً وضع لي إكليل البر ، الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل » (٢ ق ٤ : ٨) .

فهل تستطيع أن تقول نفس عبارة القديس بولس ؟! ليترك تستطيع ...
وحتى إن كان إكليل البر قد وضع لك ، فاحترس ، و « تمسك بما عندك لئلا
يأخذ أحد إكليلك » (رؤ ٣ : ١١) . وعش في حياة التوبة والإحتراس كل
أيامك .

إن الخوف من عقوبة الخطية ، يدفعك إلى التوبة . ولا شك أن هناك دوافع
أخرى ، فما هي ؟ ...



الفصل الخامس

دوافع أخرى للتوبة

هناك دوافع للتوبة ، تصدر من داخل الإنسان ، من مشاعر قلبه ، ذكرنا الكثير منها . وهناك دوافع أخرى للتوبة تكون من الخارج ، تأتي إلى الإنسان حتى دون أن يطلب . ونذكر من بين هذه الدوافع :

زيارات النعمة :

إن الله « يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١ تي ٢: ٤) . ولذلك فهو يسعى إلى خلاص الكل . ونعمته تعمل في الخطاة لكي يتوبوا ، لكي يريدوا ولكي يعملوا (في ٢: ١٣) . كل إنسان لا بد أن تأتيه زيارات النعمة ...

شاول الطرسوسي كمثال :

لقد شهد عن نفسه أنه كان من قبل مجدفاً ومفترياً ومضطهداً للكنيسة (١ تي ١: ١٣) . وكانت مناخس تنخس ضميره لكي يترك هذه القسوة وهذا العنف . ولكنه كان يرفض هذه المناخس ولا يستجيب ... وأخيراً ظهر له الرب في طريق دمشق وعاتبه بقوله « شاول شاول ، لماذا تضطهدينى ؟ صعب عليك أن ترفض مناخس (أع ٢٦: ٤ ، ٩: ٥) .

وواضح أن قيادة شاول إلى التوبة وإلى ترك اضطهاده للكنيسة ، لم تبدأ من داخل نفسه ، إنما أتاه الدافع من الخارج من زيارة النعمة بقاء الرب له ، الذى صالحه وأصلحه ودعاه لخدمته ...

نفس الوضع حدث مع يونان النبی ...

كان هارباً من الرب ، وكان غير موافق على المناداة لنينوى ، لئلا تدركها رحمة

الله ، فتسقط كلمته... (١) وفعلًا لما قبل الرب توبة نينوى وخلصت هذه المدينة ، جلس يونان شرق المدينة مغتاظًا... ! بل إنه «إغتاض حتى الموت» وقال «موتى خير من حياتى» (يون ١: ٣-٤) .

وفيا هو هكذا ، زارته نعمة الرب لتخلصه من غمه الخاطيء ... كلمه الرب بنفسه لكى يصالحه ، لكى يشرح له ، ويغير قلبه ، ويقوده إلى التوبة... وهكذا كانت النعمة بصوت الله وصلت إلى النبي ، كما حدث مع شاول... ولكن لا يشترط فى النعمة أن يكلم الله الإنسان...

إنما قد يرسل الله شخصاً ، ييكت هذا الخاطيء لكى يتوب ...

كما حدث حينما أرسل الرب ناثان لكى ييكت داود ليتوب...

لم يكن داود يحس ما هو فيه ، بل كان يتدرج من خطية إلى أخرى : من الشهوة إلى الزنى إلى القتل... إلى أن زارته النعمة بمجيء ناثان إليه ، وتعريفه بخطورة ما حدث منه... حينئذ فقط بدأت تستيقظ نفسه الغافلة ، وقال «أخطأت إلى الرب» (٢ صم ١٢: ١٣) . ثم بدأ قصة توبة عميقة ، بلل فيها فراشه بدموعه (مز ٦) .

وهكذا لم تبدأ توبة داود من دوافعه الداخلية ، إذ كانت نفسه فى غفوة مستمرة فى الخطية ، إنما بدأت التوبة بدافع خارجى ، بتبكيك من الخارج . وهنا دخلت مشاعر التوبة إليه ، وبدأ العمل الداخلى فيه...

وأنت أيها القارئ العزيز ، هل تدري ... ربما الإنسان الذى ييكتك على

خطية ، هو مرسل من نعمة الله إليك ، ليقودك إلى التوبة...

فإن رفضته ورفضت توبيخه - حتى لو كان قاسياً - تكون رافضاً لنعمة الله العاملة فيك . وتكون زيارة النعمة قد افتقدتك ولم تستفد منها .

لا تظن أن زيارة النعمة ، لا تأتى إلا عن طريق صوت الله أو صوت نبي ، أو عن طريق حلم أو رؤيا ، أو أمثال هذه الأمور الفائقة ، إنما قد يكون الأمر أبسط من هذا بكثير...

(١) أنظر كتابنا « تأملات فى سفر يونان النبي » .

فقد تفتقدك النعمة بمرض مثلاً ، يكون هو صوت الله إليك ...
كالمرض الذى افتقد به الرب مار أوغريس ، وقاده ليس فقط إلى التوبة ، وإنما
إلى الرهبنة أيضاً . وكالمرض الذى افتقد به الرب الأنبا تيموثاوس السائح .
وكتخصص أمراض عديدة وردت فى الكتاب وفى التاريخ ...
وقد يكون المرض الذى يفتقدك الرب به ، مرضاً لا يصيبك أنت ، إنما يصيب
أحد أحبائك المقربين إليك جداً . ويستطيع هذا المرض أن يشد ركبتك إلى
أسفله ويرفع يديك إلى فوق ، فتصرخ من أعماقك إلى الرب . وقد استطاع المرض
أن يعصر قلبك عصراً ، فيتجه إلى الله ويصطلح معه من أجل هذا الذى تحبه ...

وقد تكون زيارة النعمة على شكل ضيقة أو مشكلة ...
تكون هى أيضاً صوت الله إليك ، يناديك أن تتوب ، لكى يتراءف الرب
عليك ويخرجك من هذه الضيقة (١) .
وقد يدفعك الرب الى أبدى أعدائك ، فيقوون عليك ، فترجع إلى الرب ، لكى
يتنقذك ، وأمثلة هذا الأمر كثيرة فى سفر القضاة ...

المهم أن تكون حواسك الروحية مدربة ، تستطيع أن تميز بها صوت الله
الذى يناديك لكى ترجع إليه ...
لذلك فى كل ما يربك من أمراض ومن ضيقات ومن مشاكل ، لا تفصل شيئاً
من هذا عن علاقتك بالله . إجعلها كلها تقوى علاقتك به ، وتعمق صلواتك ، وتزيد
محبتك للرب ...

وقد تأتيك زيارة النعمة ، أثناء قراءتك لكتاب روحى ، أو أثناء سماعك
عظة روحية أو لحن مؤثر ...

فتجد شعوراً فى داخلك ، يحثك أن تعمل شيئاً من جهة علاقتك بالله ... تجد
قلبك فى حالة غير طبيعية ، يتحرك داخلك ، أو يتحرك عمل الروح داخله . وتجد
الروح القدس يببكتك على خطية ، أو يشوقك إلى الحياة مع الله ، وإلى التصالح
معه ... إنها زيارة من النعمة . إحرص ألا تفلت منك ...

إن زيارة النعمة افتقدت فيلكس الوالى حينما كان القديس بولس الرسول يتكلم

(١) أنظر كتابنا « اليقظة الروحية » فهو فى الواقع جزء من سلسلة موضوع « حياة التوبة والنقاوة »
وفيه باب عن (دوافع اليقظة الروحية) من ٢٨ صفحة ، يصلح أن ينضم إلى موضوعنا هذا الذى
نطرقه الآن ...

عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون، فارتعب فيلكس (أع ٢٤: ٢٥). ولكنه للأسف لم يستغل زيارة النعمة لمنفعته. بل قال لبولس «إذهب الآن، ومتى حصلت على وقت إستدعتك».

أما أنت فإن زارتك النعمة ، لا تنس قلبك ، ولا تؤجل التوبة... إستفد من كل شعور روحى تحدثه النعمة فى داخلك ، وبخاصة حينما تشعر بشورة فى داخلك على حياة الخطية ، ومحبة طارئة نحو الله ، ربما لم تكن موجودة فى داخلك من قبل...

لقد زارت النعمة أغريباس الملك فىما كان القديس بولس يتكلم ، فقال أغريباس لبولس «بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً» (أع ٢٦: ٢٨). واكتفى أغريباس بمجرد الإقناع ، دون أن يخطو خطوة أخرى ...

أما أنت فإن زارتك النعمة ، لا تكتفِ بمجرد الإقناع ... لأنه ماذا يفيدك إن اقتنعت أن طريقك خاطيء ... دون أن تقوم عملياً بتغيير هذا الطريق...

لا تجعل زيارة النعمة تعمل فى عقلك فقط ، أو حتى فى قلبك فقط ، إنما يجب أن تعمل أيضاً فى إرادتك ، فتقوم وتعمل عملاً . على أن زيارات النعمة تقدم لنا حقيقة جميلة ومعزية وهى :

حتى إن كنت أنت لا تسعى إلى خلاص نفسك ، فإن الله المحب يسعى بنعمته لكى يخلصك ، وهو الذى يبدأ ...

كل ما يريد الرب منك هو الإستجابة لصوته فى داخلك ،
يريدك أن تعمل معه ، حينما يبدأ هو أن يعمل فىك ،
يريدك حينما تسمع صوته أن لا تقسى قلبك ،
وحينئذ تقودك زيارة النعمة إلى التوبة ، كما قادت كثيرين ...

إن زيارات النعمة تعطى لكل خاطيء دفعة من رجاء ...
يثق بها أن الله يحبه ، وأنه لا ينساه أبداً فى رعايته ، ويبحث عنه كما بحث عن خروفه الضال . وإن لم تكن فى قلب هذا الخاطيء مشاعر تقوده إلى التوبة ، فإن الرب يغرس فى قلبه هذه المشاعر بعمل نعمته ، ويهد كل الوسائط التى تجعل قلبه يتحرك نحو التوبة ...

الباب الثالث

وَسَائِلُ التَّوْبَةِ

{كيف تتوب}

مقدمة :

قد يكون لكل إنسان الأسلوب الذى يصل به إلى التوبة ، أو الأسلوب الذى تراه النعمة مناسباً له ، أو مناسباً لظروفه...

على أن هناك قواعد عامة - فى الطريق إلى التوبة - تناسب الكل .
ولعل من أهم هذه القواعد النصائح التالية :

- ١ - اجلس مع نفسك . حاسبها . واخرج معها بقرار ...
- ٢ - لا تلتمس لنفسك الأعذار والتبريرات .
- ٣ - لا تؤجل التوبة . إبدأ من الآن ، وانتزح الفرص .
- ٤ - إهتم بخلاص نفسك . واعرف ما يطلبه الله منك .
- ٥ - إبعد عن الخطوة الأولى إلى الخطية .
- ٦ - إبعد عن قساوة القلب ، حينما تعمل النعمة فيك .
- ٧ - أعد تقييم سلوكك . وإبعد عن الخطايا التى تلبس ثياب الحملان .
- ٨ - إبعد عن الثعالب الصغار المفسدة للكرام . واسلك بتدقيق .
- ٩ - إهتم بالإعتراف والتناول .
- ١٠ - إهتم بعلاج نقط الضعف التى فيك ، وبالذات الخطايا المحبوبة منك .
- ١١ - إهتم بحبة الله ، لتطرد منك محبة الخطية .
- ١٢ - صارع مع الله وخذ منه قوة ، لكى بهذه القوة تتوب .

وسنحاول أن نتناول كل هذه النقاط واحدة فواحدة ... لكى نتأمل نفعها فى
حياة التوبة ...



اجلس مع نفسك

أنت تريد أن تتوب . هذا حسن جداً . الله أيضاً يريدك أن تتوب لأنه
« يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون » (١٢ : ٤) . ولكن يبق
السؤال أماناً هو :

تتوب عن ماذا ؟ وكيف تتوب ؟

لذلك فأنت محتاج أن تجلس إلى نفسك ، لأنك واحد من اثنين :

١ - إما أنك لا تحس ما أنت فيه من خطأ . لا تعرف حالتك بالضبط ، ولا
تدرك أخطائك ، ولا عمقها وبشاعتها ، لأن دوامة المشغوليات والاهتمامات تجذبك
إليها باستمرار ، وأنت غارق فيها تماماً ... ليس لديك وقت أن تفكر في نفسك وفي
روحياتك ، وربما لم يخطر هذا الموضوع على فكرك !

فأنت إذن محتاج أن تجلس إلى نفسك ، لتدرك حالتك وتعرف أخطائك .

٢ - أو أنت تعرف أخطائك ، أو تعرف البارز منها . ولكن ليس لديك وقت
ولا فرصة ، لكي تفكر كيف تترك هذه الأخطاء ، وكيف تعالجها ... فقبل أن يدور
بذهنك أن تعالج خطأ معيناً ، تكون قد وقعت فيه مرة أخرى ، أو وقعت في غيره أو
في ما هو أبشع منه ... والأخطاء والخطايا تحيط بك من كل ناحية . وليست هناك
فرصة للتخلص منها .

فأنت محتاج إذن أن تجلس أيضاً إلى نفسك لكي تعالجها .

إنك تشبه مريضاً : إما أنه لا يحس ما فيه من مرض ، أو يدرك أنه
مريض ، ولكنه يحتاج إلى كشف وتشخيص دقيق ، وعلاج ...

محتاج أن يجلس إلى أجهزة التحليل ، وإلى كشف الأشعة ، ومعرفة ما يدور في
داخله بالضبط ، ونوعية ومدى خطورة أمراضه . وهو يحتاج أيضاً أن يعرف العلاج ،
ويمارسه لكي يشفى ، وأن يتابع هذا العلاج مع طبيب حكيم خبير بالأمراض
وعلاجها ... وهذا كله لا يتأتى للمريض إلا إذا انتزع نفسه من جميع مشغوليته منها

كانت أهميتها ، وجلس إلى أجهزة التحليل والأشعة لمعرفة نفسه ، بعيداً عن الناس .
وهنا تبدو أهمية الجلوس مع النفس روحياً ...

ولكن ما هو برنامج هذه الجلسة الروحية وعمل الإنسان فيها ؟
إنها جلسة هدفها التوبة وتنقية النفس . وذلك بأن تكتشف خطاياك
ضعفائك ، وتلوم نفسك عليها . ثم تعرف أيضاً أسباب سقوطك ، سواء أكانت أسباباً
خارجية تضغط عليك ، أو أسباباً داخلية تسعى فيها أنت إلى الخطية ، أو هي طبع
وعادات أو تأثير بآخرين ... وتحاول أن تتحاشى كل هذا وتبعد عنه أو تعالجه .

وفي هذه الجلسة تعرض ضعفائك وخطاياك على الله ...
تعرض عليه كل ضعفائك ، لكى تنال منه القوة ،
وتعرض عليه فى ندم كل خطاياك ، ليهيك الحل والمغفرة ...
تعرضها وأنت تقول للرب فى صلاة منسحقة ، ما سبق أن قاله داود : « إنضج
علتى بزوفاك فأطهر ، واغسلنى فأبيض أكثر من الثلج » (مز ٥٠) . ثم تخرج من هذه
الجلسة ، لكى تعترف بهذه الخطايا أمام الأب الكاهن ، لكى يقرأ لك صلاة
التحليل ، ويرشدك بما يلزم ، ويسمع لك بالتناول ...

**وفي جلستك الروحية مع نفسك ، تعزم فى قلبك عزمًا أكيداً على ترك
الخطية ، بكل رضى واقتناع داخلى ...**

فأنت لا تقصر جلستك فقط على بحث الماضى والندم عليه ، ولوم النفس
وتبكيها على سقوطها ... إنما أنت أيضاً فى جلستك مع نفسك :

تضع خطة حكيمة للمستقبل من واقع حالتك واختياراتك ...

وتصمم فى أعماقك أن تسلك فيها بتدقيق شديد ، ومجدية والتزام .

وفى هذا العزم على حياة نقية فى المستقبل ، لا تنه وسط تفاصيل عديدة ، إنما
إهتم أولاً بنقطة الضعف الواضحة التى فىك ، وبالفضائل الأمهات التى تحوى داخلها
باقى الفضائل ... فإنك إن أدركت واحدة منها فى عمقها - كمحبة الله مثلاً - أدركت
الحياة الروحية كلها ...

وهذا العزم المقدس ، لا بد أن تعرضه على الله ليباركه ويقويه .
وأنا أنصح أن هذا لا يكون نذراً تنذره كما يفعل البعض . ولا يكون استنزالاً

الويلات على نفسك ، كما يقول البعض «يفعل بى الله ويزيد ، إن فعلت هذا مرة أخرى فى المستقبل...» .

فهذه النذور والويلات ، قد تحوى فى داخلها اعتماداً على ذراعك البشرى .

كأن لك القوة الذاتية التى تستطيع أن تنفذ بها ما تعد الله به ، مهما كانت العقبات والحروب التى تصادفك . وما أكثر من وعد الله وعوداً ، ولم ينفذ . ثم عاد ليقول فى حزن :

كم وعدت الله وعداً حائثاً ليتنى من خوف ضعفى لم أعد

إنما الأمر لا يعدو أنها رغبات مقدسة ، تعرض فيها إرادتك وعزمك أمام الله ، ليعطيك قوة على التنفيذ ، لأنك بدونك لا تستطيع أن تفعل شيئاً (يو ١٥ : ٥) . وهكذا تتحول جلستك مع نفسك إلى صلاة تطلب فيها القوة للسير فى حياة التوبة ونقاوة القلب ...

ولا شك أن الشيطان يقاوم بكل قوته جلوسك مع نفسك . لأنه يخشى أن تفلت من سيطرته ، عن طريق أمرين :

أ - إنه يخشى أن تجلس مع نفسك ، فتدرك سوء حالتك الروحية ، فتفكر جدياً فى التوبة ، وهذا تفلت من يده .

ب - يخشى إن جلست مع نفسك ، أن تجلس مع الله أيضاً ، وتنال منه قوة روحية لا يقوى الشيطان على مقاومتها ، فتغلبه بهذه القوة الإلهية .

والشيطان جرب أن كثيرين ، جلسوا مع أنفسهم فتابوا ...

وكمثال هؤلاء قصة الإبن الضال (لو ١٥ : ١١ - ٢٤) .

لما كان هذا الإبن الضال مشغولاً مع أصحابه ، إستمر فى ضلاله ، إذ لم يكن لديه وقت ولا رغبة للجلوس مع نفسه ...

ولكن كيف إذن بدأت قصة توبته ؟ تلك القصة التى استحققت أن تسجل فى الإنجيل من قى الرب نفسه ...

بدأت لما جلس إلى نفسه فى يوم ما ، وفحص حالته ، وفكر فى حياته وفى لوضع الذى وصل إليه . وأدرك الحقيقة المرة .

أدرك - فى جلسته مع نفسه - مقدار سوء حالته التى انحدر إليها ... فقال « كم من أجبر عند أبى يفضل عنه الخبز، وأنا هنا أهلك جوعاً » ... ولكن هل مجرد إدراك سوء الحالة يكفى ؟ كلا . إنما لابد من الوصول إلى حل . وما هو الحل ؟ قال « أقوم وأذهب إلى أبى ، وأقول له « أخطأت إلى السماء وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً . إجعلنى كأحد أجراءك » (لوقا ١٧: ١٩) .

لقد أدرك سوء حالته ، وعرف الحل ، ووصل إلى قرار ، ونفذ ...
نفذ فى الحال ، إذ يقول الكتاب بعدها مباشرة « فقام وجاء إلى أبيه ... » (لوقا ١٥: ٢٠) . وبدأ حياة جديدة إصطلح فيها مع الآب ...
ويقتيناً لو لم يجلس الإبن الضال هذه الجلسة المصيرية مع نفسه ، ما كان قد وصل إلى القرار وإلى التوبة والإنسحاق والرجوع والتصالح ، والخروج من قبضة الشيطان ، إلى حيث لبس الحلة الأولى ...

منال آخر هو القديس أوغسطينوس ...
إنه لم يستطع أن يتوب وهو فى دوامة المشغوليات ، دوامة الأصحاب والخطية واللذة ، ثم دوامة الفلسفة والفكر ... ولكنه لما جلس إلى نفسه ، تلك الجلسة العميقة ، استطاع أن يصل إلى الإيمان وإلى التوبة ، ويرجع إلى الله ، ويفلت إلى الأبد من قبضة الشيطان ، ويصير بركة لكثيرين .

إنها ليست مجرد جلسة عادية ، إنما هى جلسة مصيرية ...
صدقنى إن أهم عمل للآباء والمرشدين والوعاظ ، هو دعوة كل إنسان خاطيء إلى الجلوس مع نفسه فى حضرة الله ، وفى ضوء وصاياه ، مثلما فعل أوغسطينوس أو الإبن الضال الذى حسناً قيل عنه إنه « رجع إلى نفسه » (لوقا ١٥: ١٧) .

لذلك فالشيطان يقاوم جلوس الإنسان مع نفسه . وذلك بأمرين :
أ - إما أنه يمنع جلوسك مع نفسك بأن يقدم لك عشرات المشغوليات ، ومئات الأفكار . ويذكرك بأمر ترى أنها هامة جداً ويجب أن تتفرغ لها . وكل ذلك لكى تعود إلى دوامتك مرة أخرى ...
مشال ذلك إن انتهزت فرصة بداية عام جديد من حياتك لتجلس مع نفسك ، يمكن للشيطان أن يعمل على شغل هذه المناسبة بالحفلات والمجاملات ، حتى تنشغل بها ولا تخلو للتفكير فى نفسك .

وإن كانت بداية عام ميلادى ، أو عام قبطى ، تريد أن تجلس فيها مع نفسك ، يحاول أن يمتنع عن ذلك بأنشطة روحية واجتماعات وكلمات ، حتى لا تتفرغ لنفسك . فما أسهل في عيد النيروز مثلاً ، أن نشغل بالحديث عن الشهداء وعذاباتهم واحتمالهم وشجاعتهم وأعجابههم ، وننسى أنفسنا ... نتحدث عن التاريخ ، وننسى الواقع الذى نعيشه ... نتحدث عن جدودنا العظام ، ولا نفكر في كيف نشابههم ... حسنة بلا شك هى أخبار الشهداء ، ولكن إلى جوارها فلنفكر في أنفسنا ، لأنهم تركوا لنا مثلاً لنقتدى به ...

ولكنها محاولة - ولو بأسلوب روحى - لمنع الإنسان من الجلوس مع نفسه . فإن أصررت على الجلوس مع نفسك . وقلت «إفعلوا هذه ، ولا تتركوا تلك» ... حينئذ يلجأ الشيطان إلى حيلته الثانية وهى :

ب - يحاول الشيطان أن يدخل في جلستك مع نفسك ، ليفقدها فوائدها ... إنه لا ييأس أبداً . مادام لم يستطع أن يمتنع عن الجلوس مع نفسك ، فليمتنع عنك روحياتها . وذلك بأن يقدم لك أفكاراً وأحاسيس ، ويمنعك من تبكيت نفسك ، ويخفف من مشاعر ندمك ... ! فكيف ذلك ؟

إن تذكرت أية خطية ، فبدلاً من أن ينسحق قلبك بسببها ، وتوبخ ذاتك عليها بدموع التوبة ، يقدم لك الشيطان عنها أعذاراً وتبريرات !

أما أنت فاعلم أن هدفك من هذه الجلسة الروحية هو تنقية نفسك وليس تبريرها . وتنقية النفس تأتى بمعرفة خطاياها وتبكيها عليها ، وليس بتدليل النفس أو مجاملتها أو تخفيف المسؤولية عنها بإلقائها على الوسط الخارجى أو على الآخرين .

لذلك في جلستك مع نفسك ، كن صريحاً معها إلى أبعد حد ...

لا تجاملها ولا تدللها ، فهذا لا ينفعك روحياً ، ولا يقودك إلى التوبة . بل إكشف لها كل أخطائها وكل ضعفاتها ، بكل ما فيها من دنس ومن بشاعة . ولا تحاول أن تقدم عنها أعذاراً أو تبريرات . إنما قدم عنها توبة وندماً وانسحاق قلب . واعرف أن العشار قد خرج مبرراً دون القريسي ، لأنه انسحق أمام الله وطلب الرحمة لأنه خاطيء (لوقا : ١٨ : ١٣) . والكتاب يقول «أنت بلا عذر أيها الإنسان» (روم : ١ : ٢٠) . ويقول أيضاً «ليس لهم عذر في خطيتهم» (يو : ١٥ : ٢٢) .

إنك لا تنال المغفرة بالتبريرات ، إنما بالتوبة تؤهل للغفران ...

فكما تميز العشار على الفريسي بإدائته لنفسه ، كذلك تميز اللص اليمين على زميله اللص الآخر في قوله « نحن بعدل جوزينا ، لأننا ننال استحقاق ما فعلناه »
(لو ٢٣: ٤١) ...

مغبوط هو الإنسان الذى يتكشف خطاياہ فى جلسته مع نفسه . ومغبوط أكثر من يقدم هذه الخطايا للرب مغفوفة بالندم ، مبللة بالدموع .

إهتم إذن بإدانة نفسك ، فإن ذلك يساعدك على التوبة وعجل لك الإلتضاع وانسحاق القلب ، ويمكنك من الإعتراف ، ويجعلك قريباً من الرب الذى يقول عنه الكتاب « قريب هو الرب من المنسحقين بقلوبهم » . وحسناً قال القديس الأنبا أنطونيوس « إن دنأ أنفسنا ، رضى الديان عنا » .
ولهذا فإن جلست مع نفسك ، وتذكرت خطاياك ، فلا تعذر ذاتك ، ولا تجلب اللوم على غيرك ناسياً ما فعلته أنت ، كما فعل آدم وحواء ...

إن لومك لغيرك لا يبررك ، حتى لو كان ذلك الغير ملوماً فعلاً ... لهذا يجب أن تركز على ما فعلته أنت ، لأنك مطالب به ...

إنها حيلة ولا شك من الشيطان أن يجعلك فى محاسبتك لنفسك ، تهتم بمسئولية الآخرين عن خطاياك ، وليس بمسئوليتك أنت ... !

ولعل من حيله أيضاً ، أنه يقلل لك من خطورة خطاياك ...

ولا يجعلها تبدو على حقيقتها فى بشاعتها ، كما لو كانت شيئاً بسيطاً ، لا تستحق أن تحزن بسببها وتندم . وما أسهل أن يسمى لك الخطايا بغير أسمائها ، أو يفلسف الخطية ، ويحاول أن يخفيها وراء سلامة القصد أو حسن النية ... !
وهكذا يوسع ضميرك ، لكى يتلع خطايا معينة ، لا تريد أن تتحمل مسئوليتها أو نتائجها ...

وكل هذا يقودك ولا شك إلى الإستهانة واللامبالاة ، ولا يساعدك على التوبة ، بل ربما يدفعك إلى الإستمرار فيما أنت فيه ، ويبعد عنك خشوع القلب ، وانسحاقه .

أما أنت فكن حازماً مع نفسك ووبخها . وإن كنت لا تحتمل أحياناً أن يكلمك الغير بصراحة من جهة أخطائك ويوبخوك ، فعلى الأقل يمكنك أن توبخ

نفسك بنفسك . قل لها ما يريد الناس أن يواجهوك به ، ولكن يمنهم الخجل ، أو الأدب والإحشام ، أو عدم رغبتهم في جرح شعورك ... وكما قال القديس مقاريوس الكبير « أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك » .

وإن كان في طبعك شيء من القسوة أو الشدة فاستخدمه ضد نفسك ولا تستخدمه مع الناس ... إن نفسك هى التى تحتاج إلى الشدة لكى ترتدع ولا تعود تخطئ . أذهب إذن بقصيب من حديد ، وربّها فى خوف الله وفى طاعته . وإن كان يلزمك باستمرار محاسبة النفس ، فإنه يلزمك أيضاً معاقبة النفس ، بدلاً من أن يعاقبها الله ...

وفى إدانتك لنفسك ، تذكر قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس :
« إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله ، وإن نسينا خطايانا ، يذكرها لنا الله » .

إن داود الملك ، لما كان لا يحس بخطيئته ولا يذكرها ، أرسل له الله ناثان النبى ، فشرح له بشاعة الخطية وقال له « أنت هو الرجل » (٢ صم ١٢ : ٧) . ولما أدان داود نفسه وقال « أخطأت إلى الرب » سمع بعدها مباشرة عبارة « والرب نقل عنك خطيتك . لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) . فلا تنتظر أنت أن يرسل لك الله ناثان آخر يكشفك ...

إجلس إذن مع نفسك لكى تدينها ، وتؤهلها بالتوبة لنوال المغفرة ...
وإن كان البعض قد تعود أن يجلس جلسة جدية مع نفسه فى بداية العام الجديد ، أو فى الأصوام ، أو فى مناسبات هامة فى حياته ...

فاجلس أنت مع نفسك كل يوم وحاسبا ...
إفحصها ، واطمئن باستمرار على نقاوتها . واسهر على سلامة اتجاهاتها ، وتابعها فى حياة التوبة ، إن كانت قد بدأت هذه التوبة من قبل ... خوفاً من أن تفتّر الحرارة التى بدأت بها الطريق مع الله ...



لا تستخدم أسلوب التبريرات والأعذار

إن كنت تريد أن تحيا في حياة التوبة ، فلا تحاول أن تقدم أعذاراً أو تبريرات عن كل خطية تقع فيها ...

فالأعذار لا تتفق مع حياة التوبة ، ولا مع حياة التواضع ...
فالتبريرات معناها أن الإنسان يخطئ ، ولا يريد أن يتحمل مسؤولية أخطائه ...
يخطئ ويقدّم الموضوع كأنه شيء طبيعي جداً ، هناك أسباب دعت إليه ! كأن لا خطأ في الأمر ...

مثل هذا الذى يجد خطيته ما يبررها ، كيف يمكن أن يتوب عنها؟!

التبريرات هي محاولة لتغطية الخطية ، وليست توبة عن الخطية . وبإيجاد مبرر للخطية ، ما أسهل أن يستمر المخطئ فيها ، وعذره معه !!

إنسان يغطى الخطية بعذر ، كما يغطيا غيره بأكذوبة . ويريد بهذا التبرير أن يخرج من الخطية سليماً بلا عيب ، بلا لوم ، يلتف بثوب من المجد الباطل ... بينما الخطية هي الخطية مهما كانت الأسباب المحيطة بها ، أو الظروف المصاحبة لها ...
ألسنا في صلاة الثلاثة تقديسات نطلب جلاً ومغفرة حتى عن الخطايا الخفية ، والتي فعلناها بغير معرفة ، أو بغير إرادتنا ، ولا نعتبر كل هذه مبررات ...
صدق الذى قال إن طريق جهنم مفروش بالأعذار والتبريرات والحجج .

تاريخ الاعتذارات قديم :

خطية المبررات قديمة بقدم البشرية ، منذ أبونا آدم وحواء ...
حاول آدم أن يبرر خطيته بأن المرأة أعطته . وحاولت حواء أن تبرر خطيتها بأن الحية أغرتها . ولكن الله ما قبل عذراً من آدم ولا من حواء . ولا حتى وجد هذه الأعذار تستحق الرد أو المناقشة . بل على العكس عاقب آدم على العذر الذى قدمه ،

وقال له في مقدمة عقوبته «لأنك سمعت لقول إمرأتك وأكلت من الشجرة...»
(تك ٣: ١٧).

وللأسف . توارثنا نحن خطية التبرير هذه من آدم وحواء عبر الأجيال ...

بل أن قدسياً عظيماً مثل إبراهيم أبى الآباء ، وقع في هذه الخطية عينها ،
لما قال عن سارة إنها أخته (تك ٢٠ : ٢ : ١١) .

وبسبب هذا أخذها أبيمالك ملك جرار إلى بيته . وكان من الممكن أن يقترب
إليها ، لولا أن الرب منعه في حلم وأنذره بالموت بسبب ذلك ... فلما عاتب أبيمالك
أبانا إبراهيم قائلاً له «بماذا أخطأت إليك ، حتى جلبت علقى وعلى مملكتي خطية
عظيمة؟ أعمالاً لا تعمل عملت بي !» ... أجاب أبونا إبراهيم بمحاولة يبرر فيها
مسلكه ، وقال «إني قلت ليس في هذا المكان خوف الله البتة ، فيقتلونى لأجل
إمرأتى» (تك ١٠ : ١١) .

وما أسهل الرد على هذا التبرير ، الذى ألقى فيه المسؤولية على غيره ...
لأنه يمكننا أن نقول : ولماذا أتيت يا أبانا إلى هذا المكان الذى لا يوجد فيه
خوف الله ؟ ولماذا أقمت فيه ولم تتركه مادام هو هكذا ؟ وهل دخلت هذا المكان
بإرشاد من الله الذى قال لك من بدء دعوتك «إذهب ... إلى الأرض التى أريك»
(تك ١٢ : ١) . وهل يجوز يا أبانا أن تضحى بإمرأتك من أجل سلامتك ، وتعرضها
بهذا لخطر إقتراب رجل غريب إليها ، وتعرض هذا الغريب لغضب الله ؟! ولماذا
تلجأ إلى هذه الطرق البشرية لحمايتك ، دون اللجوء إلى معونة الله ؟!

ويبدو أن أبانا إبراهيم لما وجد التبرير ، إستمر وجعله سياسة ثابتة !
وهكذا قال لزوجته في صراحة تامة « هذا هو معروفك الذى تصنعيته إلتى : في
كل مكان نأتى إليه ، قولى عنى هو أختى » (تك ٢٠ : ١٣) . وبهذا كان ممكناً في
كل مكان يعلن فيه أن تتكرر نفس المشكلة ، لأن إبراهيم وجد تبريراً لذلك (تك
٢٠ : ١٢) ، ولم يقل : هى زوجتى !

يندر أن يقول إنسان « أنا أخطأت » ، مادام أسلوب التبرير ممكناً .
وقد تكون الخطية واضحة جداً ، لا تقبل النقاش ، ومع ذلك لا مانع من
أن تقدم عنها تبريرات وأعداراً ... !

مثال ذلك صاحب الوزنة الواحدة الذى أخذها ودفنها في حفرة في الأرض ، دون أن يتاجر بها ويربح كزميزيه... هذا أيضاً لما حاسبه سيده لم يخجل من أن يقدم تبريراً وعذراً ، ولكنه حسباً يقول المثل «عذراً أقبح من ذنب» ... فقال «ياسيد ، عرفت أنك إنسان قاس ، تحصد من حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك في الأرض» (مت ٢٥ : ٢٤ ، ٢٥) . وطبعاً لم يقبل الرب هذا العذر منه ، وأمر بطرحه في الظلمة الخارجية .

مخالفة يونان النبي للرب ، كانت مخالفة واضحة ، وأيضاً كان لها تبرير !
هرب يونان من الرب ، ورفض أن يذهب إلى نينوى حسب أمر الرب ، بل ذهب بسفينة إلى ترشيش . ولما أرجعه الرب ، وكرز لأهل نينوى وتابوا «غم ذلك يونان غمّاً شديداً فاغتاظ» . ومع ذلك قدم تبريراً لموقفه ، ليثبت أنه على حق ، فقال «آه يارب ، أليس هذا كلامي إذ كنت بعد في أرضي . لذلك بادرت بالهرب إلى ترشيش ، لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر . فالآن يارب خذ نفسى مني ، لأن موتى خير من حياتي» (يون ١ : ٣-١٠) . هذا هو العذر الذى قدمه النبي ليبرره بمخالفته للرب ، وحزنه على خلاص ١٢٠ ألف نسمة !! من يقبل هذا الكلام !؟

خطية واضحة أخرى ، وهى أن شاوول الملك أصدع محرقة للرب ، وهو ليس كاهناً ... ومع وضوح الخطية قدم لها تبريرات ...
فلما وبخه صموئيل النبي على ذلك ، لم يقل «أخطأت» ، ولم يقدم نداماً وتوبة ، إنما قدم أعذاراً وتبريرات ... ! فقال للنبي «لأني قد رأيت أن الشعب قد تفرق عني ، وأنت لم تأت ، والفلسطينيون متجمعون في غمّاس ... فتجلدت وأصدعت المحرقة» (١ صم ١٣ : ١١ ، ١٢) .

وطبعاً لم يقبل النبي منه هذه الأعذار . وأسمعه عقوبة الله له ، بأن مملكته لا تقوم ، وأن الرب اختار رئيساً آخر للشعب بدلاً منه ...

وإلياس النبي الجبار ، وجد له عذراً ، لما خاف من إيزابيل وهرب !
وصله تهديدها (١ صم ١٩ : ٢) فخاف وهرب ! ولما سأله الله عن هروبه بقوله «مالك ههنا يا إيليا ؟» ، وجد تبريراً ... فقال مرتين «قتلوا أنبياءك

بالسيف ، وبقيت أنا وحدى . وهم يطلبون نفسى ليأخذوها » (١ مل ١٩ : ١٠ .
١٤) . وفى هذا التبرير ، نسى كل أعمال الله العجيبة معه ، وكيف قواه على
مقابله آحاب الملك وتوبيخه (١ مل ١٨ : ١٨) ، كما قواه على قتل ٤٥٠ نبياً من
أنبياء البعل (١ مل ١٨ : ٢٢ ، ٤٠) . فلم يكن هناك داع للخوف والهروب
مادامت يد الله معه ...

ولم يقبل الله طبعاً هذا العذر من إيليا . وأمره بعدة مهام ، منها أن يذهب
ومسح إيلشع بن شافاط نبياً عوضاً عنه » (١ مل ١٩ : ١٦) . أما عبارة « بقيت أنا
وحدى » فرد الرب عليها بأنه استبقى ٧٠٠٠ ركبة لم تحب للبعل (١ مل ١٩ : ١٨) .

حقاً ، ما أكثر التبريرات ، وكلها غير مقبولة . فإلى الهدف منها ؟
يريد الإنسان بهذه التبريرات ، أن يكون بلا لوم أمام الناس ، وربما أمام
نفسه أيضاً ، لكى يريح ضميره إذا احتج عليه ...
ولكن حتى لو قبل الناس هذه الأعذار ، وحتى لو استطاع الإنسان أن
يخدع نفسه ويخدر ضميره ليقبل هذه التبريرات ، أترى الله يقبلها ؟! الله العالم
بكل شيء ، والذى رفض كل هذه الأمثلة التى أوردناها ، الله الذى أمامه
« يستند كل فم » (رو ٣ : ١٩) ... إن التبريرات لا تصلح مع الله ، إنما يصلح
الخشوع والإعتراف بالخطية ...

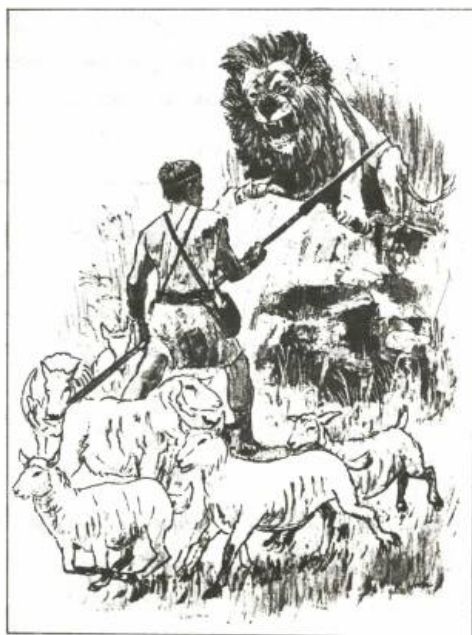
وهناك تبريرات أخرى تبدو كلون من تدليل النفس ...
مثال ذلك عذراء النشيد التى قرع الرب على بابها ... وظل طول الليل هكذا ،
حتى امتلأ رأسه من الطل ، وقصصه من ندى الليل ، وهو يناديها بأرق الألفاظ ...
ومع ذلك اعتذرت عن أن تفتح له بقولها « قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه ؟ قد
غسلت رجلى فكيف أوسخها » (نش ٥ : ٣) .
أترى قبل الرب منها هذا العذر ؟! كلا ، بل تحول وعبر ، وجعلها تقاسى مرارة
التخلّى بقولها « طلبته فما وجدته ، دعوته فما أجابنى » ...

ومن أمثلة التبريرات غير المقبولة ، الاعتذارات عن الخدمة ...
موسى ، الذى اعتذر عن الخدمة بقوله للرب « لست أنا صاحب كلام ، منذ
أمس ولا أول من أمس ... بل أنا ثقيل الفم واللسان » (خر ٤ : ١٠) . ولم يقبل
الرب هذا العذر من موسى . وعالج له موضوع ثقل اللسان .

وأرميا أيضاً اعتذر عن الخدمة بقوله «لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» (أر ١: ٦). ولم يقبل الرب منه هذا الاعتذار، بل وبخه قائلاً «لا تقل إنى ولد، لأنى إلى كل من أرسلك إليه تذهب، وتكلم بكل ما أمرك به. لا تخف... لأنى معك، أنقذك» (أر ١: ٨، ٧).

وهكذا لم يقبل الرب أيضاً اعتذار من قال له «إنئذ لى أن أمضى أولاً وأدفن أبى» بل قال له «إتبعنى ودع الموقى يدفنون موتاهم» (مت ٨: ٢١، ٢٢).

ولكن ما أعجب الراعى الصغير، الذى يهجم الأسد على غنمه... فلا يعتذر عن حمايتها بضعفه أمام عنف الأسد...
يشبه شيئاً من هذا ما فعله داود الصغير (١ صم ١٧).



تبريرات وأعذار واهية، نرد عليها بأسئلة لقيسين رفضوا التبريرات

متى يتخلص المخطيء من تبريره لعمله ، كما تخلص داود النبي ، الذى لما عد الشعب ، لم يحاول أن يقدم لذلك تبريراً ، بل ضربه قلبه وقال للرب « لقد أخطأت جداً فيما فعلت . فالآن يارب أزل إثم عبدك ، لأنى انعمت جداً » (٢ صم ٢٤: ١٠) .

هكذا يتكلم الإنسان المتواضع التائب المعترف بخطيئته أمام الله ...
أما غير المتواضع وغير التائب ، فإنه يحاول أن يجد تبريراً عند ارتكاب الخطية ، وبعد ارتكابها أيضاً ، وفي الحديث عنها بصفة عامة ...

ويؤسفى أن أقول أن توالى الأعذار والتبريرات عند مثل هذا الشخص تجعل المبادئ والقيم عنده تهتز... ومادام كل خطأ له ما يغطيه ، إذن فلا توجد مثل يسير على منهاجها ، أو روحيات يتمسك بها ...

وسنحاول هنا أن نذكر بعض الأعذار العامة التى يعتذر بها البعض ، إذا لم يسلكوا حسناً فى حياتهم .

١ - يقولون كل الناس هكذا (الكل كده) . هل نشذ عن المجتمع ؟
وكأنهم بهذا يعتبرون أن الخطأ إذا صار عاماً ، لم يعد خطأ يلام عليه الفرد !
كان نقائص المجتمع كله لم تعد نقائص ، أو صار الخطأ العام مبرراً لخطأ الفرد !!
كلا ، فالخطأ هو خطأ ، عاماً كان أو خاصاً . ومن أجل ذلك يقوم المصلحون الاجتماعيون بإصلاح أخطاء المجتمع . وكذلك يهاجها الرعاة والكهنة والكتاب وأصحاب المبادئ .

ثم لننظر إلى الكتاب المقدس . ونرى مدى الحكم على هذا المذنب...
نوح أبو الآباء ، كان يعيش ببره فى عصر كره فاسد ...
وبلغ من فساد الناس فى تلك الأيام ، أن الله أغرق العالم كله بالطوفان ، إذ رأى « أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير

كل يوم...» (تك ٦ : ٥) . « فحيا الله كل قائم كان على وجه الأرض...»
(تك ٧ : ٢٣) .

أكان هذا الفساد العام عذراً لنوح أن يسلك مثلهم هو وأسرته ، ويقول « كل الناس هكذا ، هل نشذ عن المجتمع ؟ » ... أم هو سلك بكماله أمام الله والناس . وكان لابد أن يشذ عن هذا المجتمع الفاسد... وإن كانت عبارة « نشذ عن المجتمع » تعجبكم ، فلنقل بتعبير أفضل « نتميز عن المجتمع » . وهذا التمايز قال عنه الكتاب :
« لا تشاكلوا هذا الدهر » (رو ١٢ : ٢) . أى لا تصيروا شكله ...

ونفس هذا الكلام نقوله أيضاً عن لوط في سدوم ...
كانت المدينة كلها فاسدة ، مما أدى إلى أن يحرقها الرب بالنار (تك ١٩) . ولم يوجد فيها عشرة فقط من الأبرار ، حتى لا يهلك الله هذه المدينة من أجل العشرة (تك ١٨ : ٣٢) . فهل كان هذا عذراً يسمح للوط أن يسلك مثلهم ، حتى لا (يشذ) عن المجتمع ... ! وهل في ذلك يتبع المثل القائل « إن كنت في بلد بعيد في العجل ، حش وارمى له » ... !

كلا ، بل يحتفظ الأبرار بمبادئهم السامية ، منها كان الخطأ عاماً . وعلى العكس يمكن أن يقال : إن كان الخطأ منتشرأ ، فهذا يحتاج إلى حرص أكثر...
سدوم خلص منها ثلاثة فقط : لوط وإبناته . وهلك الجميع ...

مثال آخر ، هو يوسف الصديق في أرض مصر ...
لعله كان الوحيد في أرض مصر ، الذى يعبد الله ، بينما كان الكل يعبدون الديانات المصرية القديمة : رع وآمون وإيزيس وأوزيريس وبتاح وحتحور... إلخ . ولم يسمح يوسف لنفسه أن يجارى المجتمع .

وهكذا كان دانيال أيضاً والثلاثة فتية في أرض السبي ...
حتى في طعامهم كانوا مميزين ، مع أنهم كانوا أسرى حرب ، مستعبدين وتحت قوانين ملزمة . وما أجل قول الكتاب في ذلك : « وأما دانيال فجعل في قلبه ألا يتنجس بأطياب الملك ولا بخمر مشروبه » (دانيال ١ : ٨) .

هكذا أنت ، عش بروحياتك السليمة ، حتى لو عشت بها وحدك .
إن لم تستطع أن تؤثر على المجتمع بروحياتك ، فعلى الأقل لا تندمج فيه وتخضع له . ولا تجعل الأخطاء العامة تؤثر عليك .

المغروس في أولاد الله أنهم يطيعون ضمايرهم ، ولا ينجرفون مع التيار،
معتذرين بأن الجو العام هكذا . إن القلب الضعيف هو الذى يسقط ويحتمى وراء
الأعذار . وكذلك محبو الخطيئة ، والذين يرجون بين الفرقتين (١ مل ١٨ : ٢١) . أما
القلب الذى يحب الله فهو قوى . مهما وجد من صعوبات في طريق التوبة ، يحاول
أن ينتصر عليها ...

لماذا إذن تأخذ موقفاً ضعيفاً أمام الذين يعيرونك بتدينك ؟
أولئك الذين يسخرون بالأسلوب الروحي ، محاولين بسخريتهم أن يضعفوا
معنوياتك ، ويجذبوك إلى طرقهم ، ويفقدوك ثمار توبتك !! فإن كنت تائباً حقاً ، لا
تجعلهم سبب نكسة لك . فإما أن تكون قوياً في إقناعك ، وتثبت لهم سمو حياة
الروح . وإما أن تصمت وتظل ثابتاً في طريقك الروحي ، دون أن ترتد .

هنا ونحدث عن سبب آخر يعتذر به البعض ، وهو العوائق :
٢ - البعض يعتذر بالعوائق . بينما يليق بالأقوياء أن ينتصروا على العوائق .
وسنقدم اللص الأمين كمثال رائع ، رفض العوائق كمبرر ...
ما أكثر العوائق التي كانت تقف أمام إيمان هذا اللص ... حتى أنه لو كان لم
يؤمن - كزميله - لكان له عذره بل أعذاره ...

بمن يؤمن ؟ إنه لم ير المسيح في قوته وتجليه ومعجزاته . والذين رأوا الكثير من
معجزات المسيح الباهرة ضعفوا في ذلك الحين ، وواحد من أبرز تلاميذه أنكر ... وفي
أذن اللص كانت تدوى أصوات الجماهير « أصلبه . أصلبه » . فهل يؤمن اللص
بشخص يراه مصلوباً أمامه ، في ضعف ، والدم ينزف منه ، وألفاظ الإستهزاء والتعير
والتحدى تحيط به من كل جانب ، وهو صامت ... والكهنة ورؤساء الكهنة ضده ،
وشيوخ الشعب ضده ، والقادة ومعلمو الشريعة ضده ، والحكام ضده ، وحتى اللص
الآخر المصلوب إلى جواره يسخر به أيضاً ...

الذين حملوا المفلوج هم مثال آخر على تحطى العوائق (مر ٢ : ١ - ١١)

ما كان أسهل على هؤلاء أن يعتذروا للمفلوج بأنهم لا يستطيعون مساعدته
وتوصيله إلى المسيح . فالبيت الذى يوجد فيه مملوء بالشعب ، والزحام شديد جداً ،

والطرق كلها مسدودة، ولا يوجد أى منفذ أو أى مدخل، ولا توجد أية طريقة للوصول إلى المسيح .

أما هم ، فلم يعترفوا بكل تلك العوائق ، لأن محبة الخير التى فىهم كانت أقوى من العوائق . فحملوا المفلوج على محفة ، وثقبوا سقف البيت ، وأنزلوا مريضهم إلى الرب ليشفيه . ما أعظم هذه النية الخيرة ، وهذه الإرادة القوية ، وعلى رأى المثل « حيثما توجد إرادة ، توجد وسيلة » وأيضاً :

القلب القوى يجد مائة وسيلة للشئ الذى يريد أن يفعله ...

وأيضاً قال الآباء « إن الفضيلة تريدك أن تريدها لا غير » ...
يكفى أن تريد ، وحينئذ تجد النعمة تفتح أمامك أبواباً كانت مغلقة ، وروح الله القدوس يقوى ، وأرواح الملائكة والقدسين تحيط بك .
لا تعتذر إذن بالعوائق ، إنما فكر جيداً كيف تنتصر عليها ...

زكا العشار أيضاً ، كانت أمامه عوائق فى الوصول إلى المسيح ...
بل حتى مجرد رؤية المسيح كانت غير ممكنة بالنسبة إليه : الزحام شديد جداً ، وكان هو قصير القامة . وأيضاً كان رئيساً للعشارين أى إنساناً مكروهاً من الكل ، بعيداً عن الروحانيات ، يسخرون به إن طلب اللقاء بالمسيح . ففكر أن يصعد على جسيمة ليراه . وكان أمام هذا عائق آخر هو مركزه الكبير . ولكنه انتصر على هذا كله . لذلك استحق أن يكلمه الرب ويقول له : « ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك » (لو ١٩ : ٥) .

حقاً إنه لو كان الدافع الداخلى ضعيفاً فى قلب زكا ، لوجد تبريراً من العوائق التى أمامه ، وما وصل إلى المسيح .

فهل أنت دوافعك الداخلية ضعيفة لذلك تعتذر بالعوائق !؟

هكذا أمامنا مثل حدث فى عصر الإستشهاد : شاب لم تنفع معه كل طرق التعذيب . فأرادوا إسقاطه بإغرائه من جهة عفته ، ففشل الإغراء . فربطوه إلى فراش لتأتى امرأة وتخطئ معه . فلما رأى هذا الشاب أنه لا حيلة للتخلص ، جز على لسانه ، حتى سال دمه وبصقه فى وجهها ، فاشمأزت وتركته ، وأنقذ الشاب عفته ...
لو كان ضعيفاً من الداخل ، لوجد تبريراً للسقوط . ولكن قوته الداخلية جعلته ينتصر ، ولا يعترف بالعوائق ولا التبريرات .

وهذا يجعلنا نتنقل إلى الحديث عن عذر آخر يقدمونه :

٣ - يعتذر البعض بشدة الضغوط الخارجية ، أو شدة الإغراء الخارجى ...
إن القلب الثابت فى الداخل ، لا يمكن أن يخضع للضغوط الخارجية ، ولا يسقط بسببها ، ولا يتخذها تبريراً لسقوطه ...
إنما يبرر موقفه بالضغوط الخارجية ، الشخص الذى ليست محبته ثابتة من نحو الله ومن نحو الوصية ، أو فى قلبه خيانة فى الداخل ، وليس هو مخلصاً لله بالحقيقة ، ولا مخلصاً لوصاياه ... !

خذوا يوسف الصديق كمثال رائع فى الانتصار على الضغوط الخارجية ...
لا شك أن الضغط الخارجى كان شديداً عليه جداً ... كان عبداً مستعبداً لإمرأة . والمرأة هى التى تطلب منه الخطيئة ، وتلج فى ذلك ، وهو يرفض . وتلع أيضاً . وهو تحت سلطانها ، تستطيع أن تسيء إلى سمعته ، وأن ترميه فى السجن ، كما فعلت أخيراً . ولو كان ضعيفاً من الداخل ، لوجد ما يبرز سقوطه ! ولكنه قال : كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله « (تك ٣٩ : ٩) ، واحتمل من أجل بره ...

إن القلب النقي الثابت فى بره ، لا يعترف بالمبررات ، ولا يخضع للإغراء الخارجى . ومثال ذلك قصة داود مع شاول الملك ...
حاول شاول مراراً عديدة أن يقتل داود بلا ذنب ، وطارده من برية إلى أخرى . وأخيراً وقع فى يد داود ... رآه نائماً فى كهف . وقال رجال داود له « هوذا اليوم الذى قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليدك ، فتفضل به ما يحسن فى عينيك » (١ صم ٢٤ : ٤) .

وكان الإغراء شديداً ، يتخلص به من عدوه ، ومن الموت الذى يهدده ، ويتولى الملك بدلاً منه . ولكن داود رفض هذا الإغراء وقال « حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب ، فأمد يدي إليه ، لأنه مسيح الرب هو » .
ووبخ داود رجاله (١ صم ٢٤ : ٦ ، ٧) .

وكانت هناك تبريرات كثيرة : ... من قال إنه مسيح للرب ؟ لقد أعلن الرب رفضه له (١ صم ١٦ : ١) . كذلك كان روح الرب قد فارقه ، وبغته روح ردىء

من قبل الرب» (١ صم ١٦ : ١٤) . وكان داود يعرف هذا ، لأنه هو الذى كان يضرب له على العمود ، فيرتاح ويذهب عنه الروح الردى (١ صم ١٦ : ٢٣) .

هذا إذن إنسان خاطيء ومرفوض . فإن تخلصت منه تكون قد خلصت الشعب من شره... كلا ، إنه مسيح الرب هو...

وأنت يا داود ، أنت هو مسيح الرب الحقيقي . مسح صموئيل النبي ملكاً ، وحل عليك روح الرب (١ صم ١٦ : ١٢ ، ١٣) . فأصبحت أنت البديل الرسمي لذلك الشرير . ولو أخذت الملك ، لا تكون قد اغتصبته فهو حقك . والشعب كله سيفرح بك . كما أن الله هو الذى دفعه إلى يدك ... وتذكر أن هناك حرباً بينك وبينه ، وهو يريد قتلك . فإن قتله تكون طبيعة الحرب ...

ولكن داود لم يقل شيئاً من هذه التبريرات جميعها . وقال « كيف أمد يدي إلى مسيح الرب ؟! » . ليكون خاطئاً وشريراً ، وليكن مرفوضاً ، وليكن عدواً لى ، ليكن ما يكون ولكنه مسيح الرب هو ، لا أمد يدي إليه ...
إنها صورة مثالية للقلب النقي الذى يرفض التبريرات ، والإغراءات ...

نتنقل إلى نقطة أخرى فى مشكلة الأعذار :

٤ - يعتذر البعض فيقول أنا ضعيف ، والوصية صعبة ...
قد تقول إنك ضعيف ، إن لم تضع معونة الله فى اعتبارك . فأنت لست وحدك . قد تكون ضعيفاً ، ومع ذلك تقول « أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ٣) . طالما صلاتك موجودة ، فأنت لست ضعيفاً لأن قوة الله ستعمل فيك . تنصرك ضد كل خطية ، وتقيمك من كل سقطة ...

لو كان داود نظر إلى نفسه كضعيف ، ما حارب جليات ...
هذا الشعور بالضعف ، كان مبرراً لكل رجال الجيش أن يبقوا فى أماكنهم ولا يقوموا لمحاربة جليات . أما داود ، فلم يكن يسمح للمبررات أن تحميه من وصية الله وعمل الروح .

كانت هناك مبررات أمام داود تغفیه من منازلة جليات ، لكنه لم يستخدمها : أولاً : هو ليس من رجال الجيش ، إنما جاء يحمل طعاماً لأخوته ، وكان يمكن أن يقتصر على هذه المهمة ويمضى ، طالبا لهم صالح الدعوات ...

ثانياً : كان جليات رجلاً خفيفاً في جسمه الهائل وأسلحته الجبارة . ولا يلوم أحد صبيّاً صغيراً مثل داود إن امتنع عن محاربتة .

ثالثاً : إن أحداً لم يطلب منه هذا الأمر أو حتى يفكر فيه !

رابعاً : كان كل قادة الجيش خائفين من الرجل ، حتى الملك شاول نفسه لم يتقدم لمحاربتة ...

فما كان أسهل على داود أن يعتمد على هذه المبررات ، ويقول « ما شأني بهذا الأمر . ولماذا أحشر نفسي في مسؤوليات غيري ؟! » . وبعضى . ولكن غيرة داود دفعت أن يتقدم لمقاتلة جليات ويخلص الشعب منه .

الأعداء موجودة ، ولكنه رفض استخدامها والإحتواء بها ...

وصعوبة العمل يشهد بها الكل ، ولكنه انتصر عليها بالإيمان .

لقد عاقب الرب الذين أضعفوا معنويات الشعب بالحديث عن المصاعب .

أولئك الذين رأوا الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً ، ولكنهم قالوا « غير أن الشعب معترّ ، والمدن حصينة ... لا تقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا . وقد رأينا هناك الجبارة بنى عناق ... فكنا في أعيننا كالجراد ، وهكذا كنا في أعينهم » (عد ١٣: ٢٧-٣٣) .

وهذا الحديث الذي يحطم الروح المعنوية « رفعت كل الجماعة صوتها وصرخت . وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر » (عد ١٤ : ١) . ورفض الرب أولئك الذين صعبوا الأمر وشرحوا استحالة تنفيذه .

لذلك لا تقل عن وصية الرب إنها صعبة . لأنها لو كانت صعبة ما أمر الرب بها . كيف يأمر بما لا يمكن تنفيذه ؟!

إن الله لا يمكن أن يأمرنا بالمستحيل . إنه يعطى الوصية - مهما كانت تبدو صعبة - وفي نفس الوقت يعطى القدرة على تنفيذها . يعطى الوصية ، ويعطى معها النعمة . والروح القدس يعمل داخل القلب لكي يؤهله للعمل ، بل ويشترك في العمل معه ... وإلا ما كان أحد يقدر أن ينتصر على إبليس الذي هو مثل أسد يزأر يجول ملتصقاً من يتلعه هو (١ بط ٥ : ٨) .

إن إبراهيم أبا الآباء لم يمتنع عن تنفيذ وصية تبدو صعبة جداً ...
قال له الرب « خذ إبنك ، وحيدك ، الذى تحبه ، إسحق ... وأصعده
محرقة... » (تك ٢٢: ٢). ولم يعتذر أبونا إبراهيم بصعوبة الوصية ، وبأنها فوق
مستوى الطبيعة ، وبأن هذا إبن المواعيد ، وإبن شيخوخته ، وماذا يقول لأمه ... بل
بكر صباحاً ، وذهب لينفذ وصية الله ...

الله الذى أعطى إبراهيم القوة على التنفيذ ، هو أيضاً قادر أن يعطيك قوة...
الذى جعل أرميا الصغير مدينة حصينة وأسوار نحاس على كل الأرض (أر ١ : ٨) .
هو قادر أن يقويك مثله ...

فى طريق التوبة ، لا تخف من خطية ، ولا من عادة أو طبع ، ولا من
شيطان ، بل قل « أستطيع كل شئ فى المسيح الذى يقوينى » ... ولا تجعل هذا
الخوف مبرراً لك فى ترك العمل الروحى ...

أبونا إبراهيم طلب الله منه إبنه الوحيد ليذبحه ، فلم يخل به عليه ، ولم يقل
الوصية صعبة . ولم يحاول أن يوجد مبررات ليمتنع .
وأنت ، ما هو الشئ الصعب الذى يطلبه الرب منك ولا تستطيعه ؟! هل هو
يطلب منك أن تذبح إبنك الوحيد ، أم المطلوب منك بسيط جداً ؟!

طوباهم أولئك الجبابرة الذين انتصروا على قلوبهم من الداخل ، ولم
يعتذروا بصعوبة الوصية كما نفعل نحن فى تبرير أنفسنا ...
حقاً إن ملكوت السموات يحتاج إلى قلوب كالصخر ، لا تلين أمام العوائق ، ولا
تضعف أمام الصعاب . وتنفيذ وصية الكتاب فى قوله « تشدد ، وكن رجلاً » (١ مل
٢ : ٢) . هنا تظهر الرجولة الحقّة ، فى حياة النقاوة .



الذين لا يريدون يتحولون المبررات

عند البعض ، مادام العذر موجوداً ويمكنهم تقديمه ، حينئذ تصير الخطية سهلة والتقصير سهلاً . دون مراعاة لمشاعر الرب الذي يتحولون عن محبته ، ودون أمانة للوصية أو التزام بها . وأثناء الاعتذار ، يخادع الإنسان نفسه ، ويكون ضمير مغلخلاً غير ثابت .

وباب الاعتذار واسع ، قد يدخل فيه الصدق والكذب ...
أى قد تكون الأعذار غير حقيقية ، أو من السهل الانتصار عليها ، وليست عائقاً حقيقياً له قوة المنع التي تغلب الإرادة . وقد تكون الأعذار فرصة للتهاون أو محبة الخطية . أو قد تكون ستاراً للكبرياء التي ترفض الإعتراض بالخطأ . وقد تكون سبباً ثانوياً وليست هى السبب الحقيقي .
وعلى العموم فالتبريرات والأعذار دليل على عدم التوبة ...

العجيب أن الإنسان غير التائب ، على الرغم من أخطائه ، نفسه جميلة في عينيه ، يناقش من أجلها ويجادل ... !

كل شيء يعمل ، له في نظره أسبابه وحكمته . وكل خطية لها تبريرها . وكل تقصير في أعمال الفضيلة ، له أيضاً تبرير . ولا يوجد خطأ في أى تصرف يتصرفه ! ... يتكلم كما لو كان معصوماً لا يخطئ ... يدافع ويررر . من الصعب أن تخرج من فمه كلمة « أخطأت » ... ! وإن شددت عليه الخناق ، فأقصى ما يقوله هو « آه ... هذا العمل ، من الجائر أن البعض يفهمونه على غير المقصود منه ... ! ولكنى أقصد ... » وتتوالى سلسلة أخرى من التبريرات ...

كأنه إله ... لا يخطئ !! « ألم أقل إنك آله » (مز ٨٢ : ٧) .
هؤلاء (الآلهة) الذين لا يخطئون ، لا يمكن أن يتوبوا ! عن أى شيء يتوبون ؟ حقاً لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب ... هؤلاء لا يحتاجون إلى المسيح الغافر والمخلص ! فأى شيء تراه سيفرلهم أو يخلصهم منه ؟ ...
حتى الذين يقصرون في كل الواجبات الروحية من صلاة وصوم وحضور الكنيسة

والتناول ... يجدون أيضاً مبررات لتقصيرهم ، وكأنهم لم يخطئوا .

تسأل أحدهم لماذا لا تصلى ؟ ولماذا لا تذهب إلى الكنيسة ؟

فلا يقول لك مطلقاً « أنا مقصر » أو « أنا مخطيء » . إنما يبرر تقصيره بأنه ليس لديه وقت . وإن ناقشته في ذلك يضع أمامك قائمة طويلة من المشغوليات ... فإن سألته « ولماذا لا يكون الرب ضمن مشغولياتك ؟ ولماذا لا تحسب الصلاة أمراً هاماً تحجز له مكاناً في تنظيمك لوقتك ؟ ... حينئذ يدخلك في تبرير آخر ، في محاولة لفلسفة الخطأ ، فيقول :

المهم في القلب . ومادام قلبي نقياً ، لا حاجة إذن إلى الصلاة ! فإن الله هو إله القلوب ...

وطبعاً الرد واضح . فالقلب النقي لا يغني عن الصلاة ، بل يساعد عليها . القلب النقي فيه محبة الله . والذي يحب الله يتكلم معه ، ويصلى ... والإنسان الروحي يجمع بين الأمرين : نقاوة القلب ، والصلاة . وكما قال الكتاب « إفعلوا هذه ، ولا تتركوا تلك » . نقاوة القلب لازمة للصلاة ، فالصلاة التي تخرج من قلب نقي هي المقبولة أمام الله ...

كذلك يبدو أن الذي يرد بهذه العبارة لا يفهم معنى عبارة (نقاوة القلب) . فإن كان القلب نقياً ، لا يمكن أن يقول إنه لا حاجة به إلى الصلاة . فالذي لا يحتاج إلى صلاة ، ليست له نقاوة القلب .

وقد تسأل إنساناً آخر : لماذا لا تصوم ؟

فيقول لك : وهل الذين يصومون كلهم قديسون : فلان يصوم ويفعل كذا ... وفلان يصوم ويفعل كذا ... ! فإن قلت له : وما شأنك بهؤلاء ؟ إن الله سوف لا يسألك عنهم ، وإنما سيسألك عن نفسك ... حينئذ يرجع إلى نفس التبرير ، بفلسفة الموضوع ويقول : الحياة مع الله ليست بالأكل والشرب . المهم في نقاوة القلب !! كما لو كان الصوم لا يساعد على نقاوة القلب !!

وعبثاً تحدث مثل هذا عن روحانية الصوم وفائدته ، وأن من يسلك فيه بطريقة روحية ينمو في حياة الروح ، وأن الله أمر بالصوم لفائدته ، والأنبياء كانوا يصومون مع نقاوة قلوبهم . والسيد المسيح نفسه صام ...

وهنا لا تجد منطقاً ، إنما هي تبريرات مجرد التخلص من المسؤولية .

وقد يعتذر آخر بعدم وجود مرشدين روحيين ولا قدوات صالحة ...

ويبدو أن هذا الاعتذار أيضاً مبالغ فيه . فالذى يحتاج إلى إرشاد لا بد سيجده . وإن لم يجد مرشدين ، أمامه الكتب تملأ الدنيا وفيها كل شيء ... وأمامه الصلاة ، يطلب من الرب فيرشده . ومعه الضمير ، ومعه الكتاب المقدس ...

إن القديس الأنبا أنطونيوس ، الذى عاش وحده فى البرية ، ولم يكن هناك راهب قبله ليرشده ، لم يعتذر بعدم وجود مرشدين ، بل شق الطريق وحده ، وبنعمة الله وصل ، وأرشد غيره ..

أما القدوات الصالحة فهى كثيرة . على الأقل لا تطلب كل الصفات المثالية من شخص واحد ، إنما خذ من كل إنسان فاضل قدوة فى نقطة معينة . وهناك أيضاً سير القديسين والأبرار الذين انتقلوا .

وخلاصة القول إن الذى يريد أن يصل إلى الله ، لن بعدم الوسيلة . ويبقى السؤال الوحيد هو : هل تريد ... ؟

جميل من السيد المسيح أنه كان يسأل بعض المرضى الذين يأتون إليه طالبين الشفاء ، بعبارة الخالدة العميقة :

« أتريد أن تبرأ ؟ » (يو ٥ : ٢٦) (٥)

نعم ، إن كنت تريد ، فإن الله مستعد أن يعمل معك ويقويك ، وهو الذى يغسلك فتبيض أكثر من الثلج ، وهو الذى يطهرك من كل خطية ، ويظهرك من كل دنس الجسد والروح . ولكن المهم أن تريد .

أما إن كنت لا تريد ، فلا داعى للتبريرات . كن صريحاً مع نفسك .

(٥) اقرأ كتاب (الرجوع إلى الله) ، فهو من « سلسلة حياة التوبة والتقاة » . بكل لك مفهوم التوبة ، والوسيلة إليها ...

لا تتوَجَّل التوبة ولا تضيع الفرصة

فرص للتوبة ضيَعها البعض :

من مراحم الله على الخطاة ، أنه يقدم لكل خاطيء فرصاً كثيرة لكي يتوب ، تزوره فيها النعمة وتعمل في قلبه ...

ونتيجة لعمل الله داخله ، يجد قلبه قد التهب برغبة مقدسة في التوبة والرجوع إلى الله ... ربما يكون قد تأثر بعظة ، أو بكتاب أو باجتماع روحى ، أو بقدوة صالحة ... أو أن حادثة موت أو مرض هزته من الداخل ، أو مناسبة معينة رأى أنه يجب عليه استغلالها .

والحكيم هو الذى يستغل تلك التأثيرات ، ولا بدع الفرصة فقلت منه ...
مثلاً حدث مع الإبن الضال ، الذى حينما زارته النعمة ، وأثرت في قلبه وفكره ، قال « أفوم الآن ... » وقام وذهب إلى أبيه ، وقدم توبة .
أما الجاهل فيجعل الفرصة تعبر دون أن يستفيد منها ... ثم يبحث عنها فلا يجدها ... وفى ذلك ، ما أخطر العبارة التى قيلت عن عيسو إنه :

« لم يجد للتوبة مكاناً ، مع أنه طلبها بدموع » (عب ١٢ : ١٧)

كان قد جاء إلى أبيه متأخراً ، بعد أن تحولت البركة إلى يعقوب ، وأصبح هو المختار الذى ينسله تتبارك جميع قبائل الأرض ...

وبكى عيسو ، « وصرخ صرخة عظيمة ومرة » (تك ٢٧ : ٣٤ ، ٣٨) .
ولكن بعد فوات الوقت ، بعد أن صار البكاء لا يفيد شيئاً ...

أنظر إلى عذراء النشيد ، ماذا حدث لها . وخذ درساً ...
كانت نائمة ، كأى خاطيء ... ولكن قلبها كان مستيقظاً لنداء الرب . وسمعت صوته ينادىها « افتحى لى ... » ولكنها تباطأت ، والتفتت الأعذار . ثم قامت أخيراً

لستفتح ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن كان حبيبها قد تحول وعبر... وإذا بها تصرخ وتقول « خرجت نفسى عندما أدبر . طلبته فما وجدته ، دعوته فما أجابني » (نشر : ٥ : ٦) . وتعرضت المسكينة لآلام كثيرة... غير أن الرب من أجل محبتها منحها فرصة أخرى . أما بالنسبة إليك :

ربما تضيع منك هذه الفرصة ، ولا تجد فرصة أخرى ...
فهكذا حدث لفيلكس الوالى ، وللملك أغريباس ...

كل منها جاءت الفرصة ، حينما وقف بولس الرسول يتراجع أمامه .
ومن جهة فيلكس ، يقول الكتاب إنه « بينما كان (بولس) يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ، إرتعب فيلكس » (أع ٢٤ : ٢٥) . عملت النعمة في قلبه ، وحركته إلى الإيمان والتوبة . ولكنه لم يستغل الفرصة ، ورأى أن يؤجلها إلى مناسبة أخرى ، فقال للقديس بولس «إذهب الآن ، ومتى حصل لى وقت أستدعيك » (أع ٢٤ : ٢٦) .

وللأسف الشديد ، لم يقل سفر أعمال الرسل أن فيلكس حصل على وقت واستدعى بولس ... وهكذا ضاعت منه فرصة العمر كله...

وهكذا أغربباس الملك أيضاً ، تحدث أمامه القديس بولس العظيم ، بكل ما فيه من عمق وإقناع ، وبكل ما فيه من عمل الروح . فتأثر أغريباس جداً ، وعملت النعمة في قلبه ، وقال لبولس « بقليل تقنعنى أن أصبح مسيحياً » (أع ٢٦ : ٢٨) .

ولكن المسكين لم ينتهز الفرصة ، وقام من منصة القضاء ومضى . ومضت معه التوبة والإيمان ، وضاعت الفرصة . ولم يقل الكتاب شيئاً بعد ذلك عن أغريباس ... وبينما كان بينه وبين الله هذا القليل ...

ليتة فعل ، مثل الخصى الحبشى ، الذى انتهر الفرصة ونال الخلاص ...
هذا الخصى دبرت نعمة الله أن يقابله فيلبس فى الطريق ، و يشرح له ما كان يقرأه من سفر أشعياء . وتأثر الرجل ، وعمل الله فى قلبه ، فأمن ، ولم يترك الفرصة تغفلت فقال لفيلبس « هوذا ماء . ماذا يمنع أن أعتمد » (أع ٨ : ٣٦) . وفى الحال نزلوا إلى الماء ، وتعمد ... « وذهب فى طريقه فرحاً » ... إنه من الأمثلة الرائعة لانتهاز الفرصة ...

وأنت يا أخى كم فيلبس أرسله الله في طريقك ، وتأثرت به ، ولكنك جعلت الفرصة تفلت من يدك ، ولم تستفد منها ...

لذلك لا تؤجل التوبة . فكثيرون من الذين أجلوا التوبة ، لم يتوبوا على الإطلاق ، وضاعت حياتهم ...

أنظر إلى اليهود ، كم من مرة رفضوا الرب ، وساروا وراء آلهة أخرى . وكم كان الرب يرسل إليهم الأنبياء والرسل لكي يجذبهم إليهم وكانوا يضيعون هذه الفرص كلها ، حتى ألقاهم الرب إلى أيدي أعدائهم ، ورفض صلواتهم وذبائحهم . وقال لهم « حين تبسطون أيديكم ، أستر وجهي عنكم . وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع » (أش ١ : ١٥) . وأيضاً قال لأرميا النبي « وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ، ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، ولا تلج علي ، لأنى لا أسمعك » (أرم ١٦ : ١٧) .

فهل تريد بتوالى التأجيل أن تصل إلى هذا الوضع ؟! ...

إن توالى تأجيل التوبة ، قد يعنى رفض التوبة ...

وهذا هو الذى حدث لفرعون ... حتى هلك ...

كم مرة قال فرعون لموسى وهرون « أخطأت . صلياً لأجلى » ... ومع ذلك لم يتب ... أنظروا إلى قوله بعد ضربة البرد والرعود « أخطأت هذه المرة . الرب هو البار ، وأنا وشعبي الأشرار . صلياً وكفى حدوث رعود الله والبرد فاطلقكم » (خر ٩ : ٢٧ ، ٢٨) ... ومع ذلك لم يتب فرعون ، ولم يف بوعوده ، ولجأ إلى التأجيل . وما هو بعد ضربة الجراد يقول لموسى وهرون « أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن إصفحاً عن خطيئتي هذه المرة فقط . وصلياً إلى الرب إلهكما ، ليرفع عنى هذا الموت » (خر ١٠ : ١٦ ، ١٧) . ورفع الرب عنه هذه الضربة ، كما رفع غيرها ، ولم يتب ...

كانت ألفاظ التوبة على فمه . ولم تكن التوبة في قلبه ...

كان يصرخ خوفاً ، وليس إقتناعاً . وكان يعد بالتوبة ولا يوفى . وظل يؤجل وعوده للرب يوماً بعد يوم ، وضربة بعد ضربة ، إلى أن أدركه الغضب الإلهى ، وغرق في البحر الأحمر وهلك .

وكان تأجيل التوبة بالنسبة إليه ، هو رفض عمل للتوبة ...

إنها فرص عرضها الرب عليه ، بالضربات العشر . وكان يتأثر بها ، ويوقن أنه لا بد أن يتوب . ولكنه لم يستغل هذه الفرص لخلاص نفسه . وكانت محبة العالم في قلبه ، أكثر من محبة التوبة ، فهلك ...

ومن أمثلة الذين ضيعوا فرص التوبة ، الكرامون الأردباء (مت ٢١) ... أولئك الذين كم من مرة يرسل لهم صاحب الكرم عبده ، فلا يستجيبيون ، ولا يرجعون عن شرهم . وأخيراً أرسل إليهم ابنه ، وكانت فرصة للتوبة ، فلم يتوبوا ... فماذا حدث ؟ لقد قال لهم أخيراً « ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره » (مت ٢١ : ٤٣) .

لنأخذ شمشون الجبار مثلاً لتأجيل التوبة ...

كان قد بدأ بداية طيبة ، إذ حلّ عليه روح الرب . ثم بدأت خطيئته حينما تعرف بدليلة وأسلمها قياده وخضع لمشورتها . وقد خدعته هذه المرأة أكثر من مرة ، وسلمته لأعدائه ، وكان يعرف هذا ، ومع ذلك لم يتب (قض ١٦) ، واستمر فيها هو فيه .

وأخيراً كسر نذره ، وأخذته أعداؤه وقلعوا عينيه ، وأوثقوه بسلاسل ، وكان يطحن في بيت السجن (قض ١٦ : ٢١) .

هكذا فعلت به الخطية وتأجيل التوبة . وإن كان الله قد أعطاه فرصة أخرى يوم وفاته ، كرجل من رجال الإيمان (عب ١١ : ٢٢ ، ٢٣) .

إن النباطو في التوبة قد هلك الإنسان ، كما حدث لعاخان بن كرمي ...

هذا أخذ من المال الحرام وخبأه . وانهمز الشعب بسبب خطيئته أمام قرية صغيرة هي عاي ، فلم يتحرك ضميره ويعترف بالخطأ . وقال الرب « في وسطك حرام يا إسرائيل » . وأعلن يشوع هذه الحقيقة ، ولم يتحرك عاخان . ثم بدأ يشوع يلقي القرعة ليعرف من هو المتسبب في غضب الله . ولم يتقدم عاخان ليعترف . ووقعت القرعة على سبطه يهوذا ، وعلى عشيرته (الزارحين) . وكل ذلك وعاخان لا يتقدم ليعترف ... إلى أن أشار الله إليه بالإسم ...

فاعترف بما فعله ، بعد فوات فرصة التوبة . إعترف كمن كشفه الرب ، وليس كمن يكشف نفسه . وأخذوه فرجموه (يش ٧ : ٢٥) .

لذلك حسناً أن الملاكين لم يسمحا للوط بأن يتباطأ ...

حدث ذلك حينما أراد الله أن يحرق سدوم ... يقول الكتاب « وكان الملاكان يعرجلان لوطاً ... » ولما توافى ، أمسكا بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة . وقالا له « إهرب لحياتك » (تك ١٩ : ١٥ - ١٧) ... كان لابد أن يتبعد لوط بسرعة عن مكان الشر ، حتى لا يهلك .

هناك أمور خطيرة تلزم معها السرعة ، ومنها التوبة ... لا يصلح لها التباطؤ ، ولا يصلح التأجيل ...

إن العذارى الجاهلات ، جئن متأخرات ، بعد أن أغلق الباب ...

لذلك خسرن الملكوت . ووقفن أمام الباب المغلق يقلن في أسى أو في يأس « يا سيد افتح لنا » . فلم يسمعن سوى تلك العبارة المخيفة « الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن » (مت ٢٥ : ١٢) . لقد جئن ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن أغلق الباب ...

حقاً ما أخطر وما أعمق تلك العبارة التى قالها الرب فى سفر الرؤيا عن الخاطئة إيزابل :

« وأعطيتها زماناً لكى تتوب عن زناها ، ولم تتب » (رؤ ٢ : ٢١) .

وعبارة « أعطيتها زماناً » هذه ، يقف القلب أمامها بخشوع ... ويصمت . وإذا لم تتب هذه الخاطئة فى الزمان الذى أعطهاها الرب إياه ، فإن الرب شرح ما سوف يوقعه بها من ضربات ... وقال فى ذلك أيضاً ، إنه « سيعطى كل واحد بحسب أعماله » (رؤ ٢٣ : ٢٣) .

إن الله بطول أناته ، أعطى زماناً لهذه الخاطئة لكى تتوب فيه .

فلا يجوز أن يؤجل الإنسان توبته ، مستهيناً بطول أناة الله .

هوذا الرسول يوبخ على ذلك قائلاً « أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته ، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة » (رو ٢ : ٤) . ويرى الرسول أن مثل هذا الإنسان يدل على أن فى قلبه قسوة ، وعلى أنه غير تائب ، ويذخر لنفسه غضباً فى يوم الغضب (رو ٢ : ٥) .

يعجبنى فى داود النبى ، أنه كان سريع التوبة ...

كان إنساناً مثلنا ، يمكن أن يخطئ . ولكن قلبه كان رقيقاً حساساً ، يستجيب لصوت الله بسرعة ، ويتوب توبة صادقة دون تأجيل أو إبطاء . ظهر هذا لما وبخته أبيجايل فى لطف ، حينما أراد الانتقام لنفسه من نابال الكرملى ، فلم يجادلها ولم يبرر موقفه ، وإنما قال لها « مبارك عقلك . ومباركة أنت ، لأنك منعتنى اليوم عن إثيان الدماء وانتقام يدى لنفسى » (١ صم ٢٥ : ٣٣) .

وكانت توبته سريعة جداً ، لما عدّ الشعب . إذ ضربه قلبه ، وقال « أخطأت جداً فيما فعلت ... إنحملت جداً ... » (٢ صم ٢٤ : ٢١ ، ١٧) .

ولما نهه ناثان إلى خطيئته نحو امرأة أوريا الحثى ، لم يجادل ، إنما قال « أخطأت إلى الرب » (٢ صم ١٢ : ٧ ، ١٣) . وامتثلت مزاميريه بعبارات التوبة الصادقة والإنسحاق ، وبلل فراشه بدموعه (مز ٥٠ ، مز ٦) .

كذلك كانت توبة أهل نينوى ، وتوبة القديسة باثيسة ...

فمع أن يونان النبى أعطى نينوى فرصة طويلة للتوب ، ونادى قائلاً « بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى » (يون ٣ : ٤) ... إلا أن هذه المدينة العظيمة لم تؤجل توبتها إلى قرب نهاية هذه المدة ، إنما تابت مباشرة فى المسوح والرماد ، توبة عميقة ، شملت الكل . فرفع الله غضبه عنها ...

والقديسة باثيسة ، التى أخذ الرب روحها فى نفس يوم توبتها ، فى نفس الأمسية التى افتقدها فيها القديس يوحنا القصير ، لو أنها أجلت توبتها ، وموعد صعود روحها تلك الليلة ، ترى ماذا كان سيصبح مصيرها ؟

سعيد إذن من يستغل الفرصة التى يرسلها الله لتوبته ، ولا يقسى قلبه . من يدرى ، ربما هذه الفرصة لا تعود ...

حدث هذا مع سجان فيلبى ، الذى كان حافظاً للسجن ، حينما أحدث الرب زلزلة فى نصف الليل ، فانفتحت أبواب السجن ، وانفكت القيود ، لإنقاذ بولس وسيلا . هذا لم يتأخر ، وإنما قال لبولس وسيلا « ياسيدى ، ماذا ينبغي أن أفعل

لكى أخلص؟» (أع ١٦ : ٣٠) . وآمن . وأخذ بولس وسيلا إلى بيته « في تلك الساعة من الليل » - أى بدون أى إبطاء - « واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون » (أع ١٦ : ٣٣) .

أليس درساً لنا في قصة سجان فيلبي ، أن نقرأ عبارة « في الحال » ... وأيضاً عبارة « في تلك الساعة من الليل » . وكان ذلك « نحو نصف الليل » (أع ١٦ : ٢٥) . لماذا إذن نؤجل توبتنا .

نفس الأسلوب نقرأه تقريباً في توبة زكا ...

قول الرب له « أسرع وانزل » . وقد نفذ زكا في الحال ، وأخذ المسيح إلى بيته . وفي ذلك يقول الإنجيلي « فأسرع ونزل وقبله فرحاً » (لو ١٩ : ٦) . وهكذا قال الرب : (اليوم) حدث خلاص لهذا البيت .

إن أمور التوبة ، لا يجوز فيها التأجيل مطلقاً ، إنما يناسبها عبارات :
الآن ، كما في قصة الإبن الضال (لو ١٥) .

(في الحال) ، (في تلك الساعة) كما في قصة سجان فيلبي (أع ١٦) .
(أسرع) ، (اليوم) كما في قصة زكا (لو ١٩) .

كل قصص التوبة في سير القديسين ، تتميز أيضاً بعدم التأجيل :

مريم القبطية ، حالما أمكنها أن تدخل كنيسة القيامة وتبارك من الأيقونة ، للحال نفذت ما عزمته عليه في توبتها . وهكذا صارت سائحة قديسة ...
وبيلاجية ، لما تأثرت بعظمة القديس نونبوس ، لم تتركه حتى منحها نعمة العماد ، وترك لكم باقي التفاصيل في أمثلة التاريخ ...

• قابلوا الرب ولم يستنفدوا :

ونقول إن أول إنسان في العالم أضاع فرصة التوبة ، هلك ...

إنه قاين : كلمه الرب بنفسه ، وأنذره من جهة خطيته ، ولم يكن قد تورط فيها بعد . وقال له « عند الباب خطية رابضة ... وأنت تسود عليها » (تك ٤ : ٧) . ونصحه بالتوبة « إن أحسنت ، أفلا رفع » ... ولكن قاين أضاع الفرصة ، ولم يسمع

لنصيحة ، وترك الأفكار والمشاعر تسيطر عليه ... فسقط ، وكان سقوطه عظيماً ...

والعجيب أن هناك كثيرين تقابلوا مع الرب ، وأضاعوا هذه الفرصة !

الشاب الغنى ، كانت له فرصة لقاء مع الرب ، وسمع منه نصيحة خلاصه .
ولكنه للأسف سمعها ، ومضى حزيناً (مت ١٩ : ٢٢) . وعبرة « وتعال إتبعنى »
التي قالها له الرب ، لم يعمل بها ... وهكذا أضاع الفرصة .
والفريسي الذى دعا المسيح إلى بيته (لو ٧ : ٣٦) لم يستفد أيضاً من هذه
الفرصة . وكذلك كثيرون من الذين عاشوا فى جيل المسيح والتقوا به ...
أما أنت فإن تكلم روح الله فى قلبك ، فلا تضيع الفرصة .

إن ملايين من الذين فى الجحيم ، يتمنون دقائق حياة كالتى لك ...

مجرد دقائق ، أو حتى لحظات ، يقدمون فيها توبة ... ولكنهم لا يجدون . لقد
ضاعت الفرصة وأُغلق الباب ... وأنت يا أخى ، لك هذه الحياة كلها ، ألا تفكر فى
التوبة ، وتنتهز الفرصة . وكما قال الرسول « مفتدين الوقت ، لأن الأيام شريرة »
(أف : ١٦) .

واعلم أن تأجيل التوبة عمل من أعمال الشيطان الذى لا يريد التوبة .

هو يعلم أن منعك عن التوبة منعاً صريحاً ، أمر لا يقبله ضميرك . لذلك لا
يقول لك مطلقاً « لا تتب » إنما كلما تحرك قلبك نحو الله . يقول لك لا مانع ، ولكن
ليس الآن . الفرصة أمامنا طويلة ... !
ويظل يقودك فى سلسلة لا تنتهى من التأجيلات ، حتى تنتهى الحياة !

• عواقب التأجيل ليست فى صالحك :

- إن تأثرت تأثراً روحياً ، وعزمت على التوبة فلا تؤجل :
- ١ - أنت لا تضمن نفسك . لا تضمن أن تستمر فىك هذه المشاعر الروحية .
بل ربما تبحث عن هذه الرغبة فى التوبة ، فلا تجدوها ... !
 - ٢ - ولا تضمن الظروف المحيطة بك .
 - ٣ - ولا تضمن الغد وما يأتى به . فاستغل حالتك الآن .

٤ - ولا تضمن أية عراقيل يضعها العدو في طريقك ، وقد عرف بعزمك على التوبة ، وبزيارة النعمة لك .

٥ - وإذا بقيت في الخطيئة ، منتهزاً فرصة أخرى ، ربما تتحول حالتك إلى أسوأ ، وتشتد الخطيئة عليك ، وتتحول من مجرد سقطّة أو ممارسة ، إلى عادة أو إلى طبع ، وتسيطر عليك تماماً ، وتربطك بسلاسل لا يكون من السهل الفكك منها . وتدخل في سقطات متتابة لا تعرف لها نهاية ... !

إن الشيطان يؤجل لك التوبة ، ريثما يسيطر عليك تماماً ... !

وتصبح في حالة لا تعرف فيها كيف تتوب ، أو لا تريد فيها أن تتوب ، إذ يكون قد أدخل الخطيئة إلى عمق أعماق قلبك ، وفي نفس الوقت عمل على شل إرادتك . وحينئذ يوقعك في اليأس ...
وهنا ونناقش نقطة أخرى وهي :

• على أي شيء يدل التأجيل ؟

إنه يدل على عدم محبتك لله ، ببقاائك في مخالفته وكسر وصاياه ، ورفض الحياة معه ، والتصالح معه ...

ويدل أيضاً على أن محبة الخطيئة مازالت في القلب .
ويدل على عدم جدية الرغبة في التوبة . فالرغبة الجادة تنفذ .
ويدل أيضاً على أن إهتمامك الخاطيء بذاتك أعمق عندك من إهتمامك بالله ومشاعره وعلاقته بك . وأقول إهتمامك الخاطيء بذاتك ، لأن الذي يهتم بذاته إهتماماً سليماً ، إنما يهتم بأبديتها وخلاصها ، وبالتالي بتوبتها ...
لذلك لا تؤجل توبتك أبداً ، إنما كما يقول الرسول :

« إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٣: ٧، ١٥) .



(٤)

لا تقسّ قلبك

مدى الاستجابة لصوت الله :

إن الله يدعو الجميع إلى التوبة ...
ولكن القلوب تختلف في مدى إستجابتها .
الله من فرط محبته للبشر « يريد أن الجميع يخلصون » (١ تي ٢ : ٤) . وهو بنفسه يسعى إلى خلاصهم . ومن أجل خلاصهم أرسل الأنبياء والرسل ، وأرسل وحيه الإلهي ينادينا في كتابه المقدس أن نرجع إليه ونتوب « متقاضياً عن أزمنة الجهل » (أع ١٧ : ٣٠) . ووضع فينا الضمير لكي يبكثنا ، وأرسل إلينا روحه القدوس يعمل فينا . وأقام لنا الرعاة والكهنة والموعظ والمعلمين ، لكي نسمع صوت الله إلينا من أفواههم ... ولكن المهم هو : من يسمع ؟ ومن يقبل ؟ وما مدى إستجابتنا لصوت الله ؟ وهنا تختلف نوعية القلوب :

مثال ذلك : الغصن اللين ، والغصن اليابس :

الغصن اللين يتجاوب معك : تعدله ينعدل ، تقيمه يستقيم تغير وضعه يتغير . إنه طييع في يديك . أما الغصن اليابس فلا يلين لك . وإن أردت أن تعدله يقاوم ... وعلى رأى الشاعر الذى قال :

إن الغصون إذا قومتها اعتذلت ولا يلين إذا قومته الخشبُ

هناك قلوب قاسية من هذا النوع ، يعمل الرب معها فلا تستجيب .

تماماً مثل مريض لا يستجيب للعلاج .

يقدم له الطبيب الأدوية المألوفة لمرضه ، والتي يستجيب لها أمثاله من المرضى . أما جسده هو ، فلا يستجيب لها . لا تأتى هذه العلاجات بنتيجة معه . وقد يستمر المرض كما هو ، على الرغم من العلاج ، أو تتأخر الحالة عن ذى قبل ...

أخذنا هذا الفصل عن ثلاث محاضرات عن (قساوة القلب) . أقدمها بتاريخ ١٩٦٩/١١/٢٨ . ثم محاضرتين متابعتين بتاريخ ١٩٧٧/٧/٢٩ ، ١٩٧٧/٨/٥ .

هكذا القلب القاسى الذى لا تأتى و. انط النعمة بأية نتيجة معه . وتستمر طباعه كما هى ، وأخطاؤه كما هى .

يقيناً إن هذا القلب القاسى لا يريد أن يبرأ .
أو هو - لقساوة قلبه - لا يريد أن يعترف بأنه مريض يحتاج إلى شفاء . فبقى فى مرضه كما هو . كالفرسيسين القساة الذين عاصروا وعاشروا المسيح سنوات . ورأوا معجزاته ولم يستفيدوا ، بل قالوا بعدها إنه خاطئ ! وسمعوا تعليمه ولم يستفيدوا ، بل قالوا إنه مضل وناقض للشرية . وينطبق على هؤلاء القساة القلوب ، قول سليمان الحكيم :

إن دقت الأحق فى هاون ... لا تفارقه حماقته (أم ٢٧ : ٢٢) .
ذلك لأن قساوة القلب ، لا تسمح للخاطئ المتمسك بمسلكه ، أن يغير سلوكه أو يترك خطيئته . إنه رافض لله مهما سعى الله إليه ليخلصه ...

عجيب أن الله الحنون يسعى وراء الإنسان . والإنسان يرفض الله !
الله العظيم يسعى إلى التراب والرماد . والتراب الرماد يغلق قلبه أمام الله . الله يتكلم وينادى . وهذا المخلوق المسكين يسد أذنيه ، ويسد قلبه ، ويرفض أن يفتح للرب . الله يقرع على الباب ، حتى يمتلئ رأسه من الطل ، وقصصه من ندى الليل (نش ٥ : ٢) . والإنسان يغلق بابه ، ولا يأبه بهذا القلب الكبير الذى أتاه « طافراً على الجبال ، وقافزاً على التلال » (نش ٢ : ٨) ... إنها قساوة قلب . وقد نرى أحياناً إنساناً يقسو على أخيه الإنسان ، فلا نستريح لقساوته ...

أما أن يقسو الإنسان على الله نفسه ، فهذا كثير ...
ما أعجب أن يكون الإنسان قاسياً فى معاملته مع الله ، الله الحنون الطيب الذى روح هذا الإنسان فى يده ، والذى يعامل الكل برقة متناهية .
ولكن ليست كل القلوب هكذا ، فهناك قلوب طيبة ، لا تحتمل طريقة الله على بابها ، فتقوم لتفتح له بلا إبطاء ، حالما تسمع صوته الإلهى .

مسئلة من القلوب الربية :

أوغسطينوس - صاحب القلب الرقيق الطيب - قضى فترة طويلة بعيداً عن الله ، لأن الصوت الإلهي لم يكن قد وصل إليه واضحاً . فلما وصله صوت الرب ، استجاب للتو ، بكل القلب وبكل العاطفة ... وصار قديساً ...

ومرمر القبطية ظلت بعيدة عن الله زمناً ، وبعيدة عن صوته . ولكن لما شعرت بصوت الله وهو يناديها عند الأيقونة المقدسة ، تغيرت تغيراً كاملاً ، واستجابت للرب ، وعاشت بقية عمرها في محبته .

وهكذا ببلاجية ، مجرد منظر القديسين أثر فيها ، مجرد عظة سمعتها ، كان لها قلب رقيق سهل التأثر . وعلى الرغم من زناها وغناها ، تابت بسرعة . وكانت استجابتها عجيبة .

عجيب في قصص التوبة ، أن الزواني يستجيبون للرب بسرعة .

وفي الواقع ليس هذا بعجيب ، لأن غالبية هؤلاء الزواني لم تكن لهم قلوب قاسية . وإنما كانت لهم قلوب عاطفية ، تستجيب للحب بسرعة . ولكنها انحرفت في حبها ، فاتجهت به نحو الجسد ، وغلبها الجسد . ولكنها حالما تجد حباً حقيقياً من الله أو من قديسيه ، ترجع بسرعة . فالعاطفة موجودة ، والحب موجود ، ولم يكن ينقصها سوى التوجيه السليم ... بعكس أصحاب القلوب القاسية الذين لا يستجيبون بسرعة ، وربما لا يستجيبون على الإطلاق . ولذلك حسناً قال الرب لبعض هؤلاء القساة من رؤساء اليهود « الحق أقول لكم إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (متى ٢١ : ٣١) .

وعجيب أن كثيراً من هؤلاء الزناة ، تحولوا من خطاة إلى قديسين .

العاطفة الملتهبة التي لهم ، لما تحولت إلى الله ، اشتعلت بمحبته ، واستطاعت أن تصل إلى حياة القداسة بسرعة . لسنا نذكر فقط أوغسطينوس ومرمر القبطية وببلاجه ...

إنما يعزوني الوقت إن تحدثت عن خاطئات أخريات استجبن للرب بسرعة ، وتحولن إلى قديسات : مثل القديسة باثية ، والقديسة تاييس ، والقديسة مرثا ،

والقديسة مريم بنت أخى القديس إبراهيم المتوحد ، والقديسة أفدوكيا ... وغيرهن
كثيرات (١)

ومن أمثلة هؤلاء من الرجال : القديس يعقوب المجاهد ، والقديس تيموثاوس
السائح ، وبدء حياة مار أوغريس .
إنهم جميعاً لم يأخذوا من الله مجهوداً في إرجاعهم إليه .

لم يتركوا الله يلح عليهم ، أو يناديهم بلجاجة .
المرأة السامرية ، مجرد جلسة واحدة مع المسيح ، غيرت حياتها كلية . وتحولت
من امرأة خاطئة « لها خمسة أزواج ، والذي معها ليس لها » إلى القديسة السامرية ...
كان لها قلب رقيق يمكن أن يستجيب بسرعة للرب أكثر من الفريسيين العنفاء
الذين يتكلمون عن المبادئ العالية ولا ينفذونها .

وداود النبي - بعد خطيئته وزناه - لم يحتمل من ناثان عبارة واحدة هي « أنت
هو الرجل » . فصرخ للتو قائللاً « أخطأت إلى الرب » . وتاب توبة عجيبة ، كان
فيها : في كل ليلة يعوم سريره ، وبدموعه يبيل فراشه » (مز ٦) .

نعم إن القلب الرقيق ، قد تكفيه كلمة لتغيير حياته .
عبارة واحدة سمعتها تاييس من القديس بيساريون ، جعلتها تسقط على الأرض ،
وتنفجر باكية ، ثم تخرج معه من مكان الإثم لتحيا كقديسة .

وعبارة واحدة سمعتها بانيسة من القديس يوحنا القصير ، جعلتها تتأثر ، كما
ثأثرت ببكائه عليها ... وخرجت معه تائبة . وصعدت الملائكة بروحها في تلك الليلة
طاهرة كشعاع من نور .

القصص كثيرة ، وكلها تدور في فلك واحد ، وهو القلب الرقيق الذي
يستجيب بسرعة ...

وليس هذا فقط في دائرة الزواني الذين تابوا . وإنما في نطاقات أخرى كثيرة نجد
قلوباً رقيقة ، سهلة الإستجابة ، لا تعاند الرب ، بل تسمع له بسرعة ، وترجع إليه .

شاوول الطرسوسي غيرته عبارة واحدة من الرب .
كان شاوول شديداً جداً في تنفيذ الشريعة . وكان مضطهداً للكنيسة . ولكن لم

(١) أنظر كتاب [البقطة الروحية] ، لتأخذ فكرة عن حياة هؤلاء .

تكن في قلبه قسوة، إما كانت في قلبه غيرة حسبا مقدسة، وفعل ما فعله ببجل (١٣ : ١). فلما ظهر له السيد المسيح الذي كان شاول يضطهده، وسمع منه عبارة واحدة... قبل الكلمة بفرح، وتحوّل إلى العكس... وآمن وتأمّل لأجل المسيح.

وبطرس الرسول، مجرد أن سمع صياح الديك بكى بكاءً مرّاً. لم يكن محتاجاً إلى كثير من التوبيخ. يكفي أنه سمع الديك، حتى قامت ثورة في داخله ضده، عصرت قلبه وعصرت عينيه. هكذا القلب الطيب، يكفيه القليل ليتوب.

زكا العشار تطلع إليه المسيح، وكلمه. فلم يحتمل. وأعلن توبته أمام الجميع (لو ١٩ : ٥). وكلم المسيح كتيبة وفريسيين وكهنة، ولم يستفيدوا. أما زكا، فلم يكن قلبه في التوبة قاسياً مثلهم، على الرغم مما هو معروف عن العشارين من ظلم.

ومتي العشار، لم يعوزه أيضاً لتغيير حياته، سوى كلمة واحدة من المسيح، هي «إتبعني» (متى ٩ : ٩). فترك كل شيء، وقام وتبعه. وبنفس الوضع فعل بطرس وأندراوس الصيادان حينما قال لهما المسيح «هلما ورائي فأجعلكما صيادي الناس» (مر ١ : ١٧).

القلب الحساس ليس فقط بطبع صوت الله، بل يستجيب لأية إشارة منه ولو من بعيد، يهتز قلبه لها، لأن قلبه متفتح لله باستمرار.

المسألة إذن تتركز في القلب : هل هو قاسٍ أم سهل .

والنوعان يظهران معاً في قصة داود ونابال الكرملى ...

نابال الكرملى سمع رجاء من داود أن يعطيه من جزاز غنمه، لأنه كان هو وجنده محتاجين إلى الطعام. فلم يستجب نابال لأجل قساوة قلبه. فأنذره داود فلم يرتدع، بسبب قساوة قلبه أيضاً. ما نفع معه الرجاء ولا التهديد.

أما أبيسجايل زوجة نابال، فإذ أن سمعت بقصة داود مع زوجها، حتى تحرك قلبها بسرعة واستجابت. وقابلت داود وقدمت له ما يحتاجه جنده من طعام، واستعطفته. وفي نفس الوقت وبخته في أدب على أنه حاول أن ينتقم لنفسه...

وداود في هذه القصة - مع شدته - يقدم مثلاً للقلب الطيب الذي يقبل التوبيخ

بسرعة ، ويرجع عن أخطائه . إذ قال لها «مبارك عقلك ، ومباركة أنت ، لأنك منعتي اليوم من إتيان الدماء وانتقام يدي لنفسى» (١ صم ٢٥ : ٣٣) .

القلب الطيب يقبل التوبخ . أما القلب القاسى فيثور .
داود قبل التوبخ من أبيجايل ، وهى امرأة ... وكذلك القديس الأنبا أنطونيوس قبل التوبخ من تلك المرأة التى قالت له «لو كنت راهباً ، لكنت تسكن فى الجبل» .

ولم يقبل الكلمة فقط وينفذ ، بل قال فى قلبه بالأكثر إن ذلك صوت الله إليه . بعكس ذلك ، شاول الملك - وهو معروف بقساوة القلب - لما كلمه ابنه يوناثان من أجل داود قائلاً «لماذا يُقتل ؟ ماذا عمل ؟» (١ صم ٢٠ ، ٣٢) ، حى غضب شاول على يوناثان ابنه ، ووجه رجمه إليه ليقتله ، وشمته بشتائم صعبة ، وأخزاه (١ صم ٢٠ : ٣٠ ، ٣٤) .

إن القلب القاسى ، لا يقبل التوجيه ولا النصح ، ولا يتحول عن فكره . إنما تقنعه كبرياؤه بأن يثبت حيث هو . لذلك حسناً قال الكتاب :

الرب يقاوم المستكبرين (يع ٤ : ٦) .

لم يقف الرب يوماً ضد العشار المسكين ، لكن وقف ضد الفريسي القاسى المتكبر ، وضد الكتبة والفريسيين القساة ، الذين فى قساوتهم يحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل ... (متى ٢٣) .

هؤلاء القساة يخسرون أنفسهم ، ويخسرون الناس ، ويخسرون الله .

قسوة القلب تعطل التوبة :

ولعل من أبرز الأمثلة لهذه القسوة فرعون .

لم تستطع جميع الضربات أن تلين قلبه . وإن كان أحياناً قد قال «أخطأت إلى الرب» (خر ١٠ : ١٦) ، إنما كان يرجع بعدها ويشدد قلبه كما كان ... وكما كان يعد وعداً ، كان يرجع فى وعده بعد ارتفاع غضب الرب . وكما قال الكتاب «فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج ، إغلظ قلبه ولم يسمع لها (لموسى وهارون)» (خر ٨ : ١٥) .

وظل فرعون فى قساوة قلبه حتى هلك ... كان الله يريد أن يجذبه إليه بتلك الضربات ، ولكنه رفض أن يستمع للرب ، على الرغم من كل عجائب الله التى لمسها بنفسه...

مثال آخر : هو الشعب المتمرد فى البرية .

كل عجائب الله معهم فى أرض مصر ، وكل عجائبه معهم فى البرية ، وكل إحساناته الكثيرة إليهم... كل ذلك لم يلين قلوبهم !... لا الضربات العشر ، ولا شق البحر الأحمر ، ولا المن والسلوى ، ولا الماء الذى فجره الله لهم من الصخرة ، ولا عمود النار الذى كان يضىء لهم ليلاً ، ولا السحابة التى كانت تظلهم وتهديهم نهاراً... لا شىء من هذا كله جعلهم يتوبون...

فوصفهم الرب مراراً عديدة بأنهم شعب صلب الرقبة

(خر ٣٢ : ٩ ، ٣٣ : ٣ ، ٥ ، ٣٤ : ٩ ، تث ٩ : ٦) . وقال إنهم « قساة الوجوه ، صلاب القلوب » (حز ٢ : ٤) . وقال عنهم « صلاب الجباه ، قساة القلوب » (حز ٣ : ٧)...

وبسبب قساوتهم هذه ، لم يستجيبوا للرب ولم يطيعوه ، بل كانوا دائماً المتذمر عليه . لا يتوبون مطلقاً مهما أحسن إليهم ، حتى قال عنهم :

مددت يدى طول النهار لشعب معاند مقاوم (رو ١٠ : ٢١) .

تصوروا الله يمد يده ليصالح شعباً . فيرفض الشعب يد الله الممدودة باستمرار ، طول النهار . ولا يمد يده إليها ليصافح أو ليصالح... فإذا انتفعوا من قساوة قلوبهم ؟ لقد خسروا الرب ، وخسروا أرض الموعد ، ولم يدخلوها ، بل هلك جيلهم المتذمر كله فى البرية . وغضب الله عليهم وكاد يفتنهم ، لولا شفاعة موسى فيهم (عد ٣٢) .

وابتليت قساوة القلب كل شىء . ولم تذكر شيئاً من إحسانات الله ، ولم تلتن ، ولم ترجع إليه . وكل أقوال الأنبياء وإنذاراتهم لم تأت بأية نتيجة .

وكان بذار الله بالنسبة إليهم ، قد وقعت على صخر !

بذار على صخر ، لا يصلح معها ماء ، ولا سماد ، ولا أيدى عاملة ، ولا خبرة زراعية . إنها على صخر ، لا تدخل إلى داخل .

هكذا القلب القاسى لا يتأثر بشيء : يوبخه ضميره ، فلا يشعر بوخز الضمير .
يفتقده الروح القدس ، ليبكته على خطية ، فلا يستجيب لصوت الروح فيه . يسمع
كثيراً ، ويقرأ كثيراً ، ولا فائدة ... يدخل الكنيسة ويخرج ، وهو كما هو بنفس
القلب . ويعترف ويتناول مراراً ، ولا يغير فيه الإعتراف شيئاً ولا التناول ... لا
تنفع معه إحسانات الله إن تذكرها ، ولا تخيفه إنذارات الله ولا تردعه . إنه صخر .
قلب قاس لا يتأثر . ينطبق عليه قول أبينا إبراهيم أبى الآباء « ولا إن قام واحد من
الموقى يصدقون » (لوقا : ١٦ : ٣١) .

لأجل هذا ينهنا الكتاب قائلاً :

إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم (عب ٣ : ٧) .

وصوت الله يأتينا من مصادر متعددة ...

قد يكلمنا الله من خلال كتابه المقدس ، أو عن طريق العظات والإرشاد
الروحي . أو من خلال الأحداث التي تظهر فيها يد الله ، أو في الجلسة الهادئة مع
النفس ... والمهم في كل ذلك أن نقابل صوت الله بأذن صاغية وقلب مفتوح ... قلب
لين ، غير معاند .

حتى إن وقعنا في قساوة القلب مرة ، لا نستمر .

فعدراء النشيد ، وإن كانت لم تفتح للرب في أول مرة ، وقسى قلبها عليه ، إلا
أن القلب عاد فرق مرة أخرى . وقالت : حبيبي مديده من الكوة ، فأنت عليه
أحشائى (نش : ٥ : ٤) . وقامت تبحث عن هذا الحبيب في كل مكان ، وتقول
« أحلفكن يا بنات أورشليم ، إن وجدتني حبيبي ، أن تخبرنه بأني مريضة حياً »
(نش : ٥ : ٨) .

ليستنا نحارب قسوة القلب فينا ، لأنه إن رق قلبنا ، ستؤثر فينا كل الوسائط
الروحية ، وتقودنا إلى التوبة ومحبة الله .

الإنسان الحساس الرقيق ، كل شيء روحي يؤثر فيه .

إن سمع قداساً أو لحناً يتأثر . إن سمع عظة أو قرأ كتاباً روحياً يتأثر . وقد
يتأثر أيضاً بتذكر أحبائه الذين رقدوا ... فإن أخطأ يقول « لعل روح فلان ترائي
الآن » ... وبذلك يرجع عن الخطأ لتوه . مجرد صورة يراها للمسيح مصلوباً ، قد

تعصر مشاعره فيبكى ، كما فعلت القديسة العذراء التى قالت فى داخلها « وأما أحشائى فتلتهب بالنار عند نظرى إلى صليبتك الذى أنت صابر عليه يا إبنى وإلهى » .

عينا الإنسان الحساس ، أشبهها بأسفنجة مملوءة ماءً . بأقل لمسة أو ضغطة ، يفيض ما بها . وهكذا الإنسان ذو القلب الرقيق ، دموعه قريبة باستمرار . إن أخطأ يرجع بسرعة ، ولا يستمر فى الخطأ . كما فعل داود النبي ، وكما حدث لبطرس الرسول فى إنكاره ... يدرك خطأه بسرعة ، ويندم بشدة ، ويتوب لوقته ...
إبعد يا أخى إذن عن قساوة القلب . وليكن قلبك رقيقاً حساساً ، يستجيب لكل تأثير روحى بلا إبطاء .

واعلم أن قساوة القلب لها أضرارها الخطيرة :
فهى تؤدى إلى الفتور الروحى ، وإلى السقوط ، وتجعل الإنسان لا يأتى بشمر على الإطلاق . وإن استمرت القساوة فى القلب على الدوام كمنهج حياة ، فإنها تجعل الحياة تيبس تماماً ، وتكون نهايتها الحريق (عب ٦) .

لا تقل : « وماذا أفعل ؟ هذه طبيعتى » ...
كلا . إن طبيعتك هى فى الأصل صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦) . وكل خطأ أتى بعد ذلك هو عرض زائل ، يمكن التخلص منه بالتوبة ، وقبول عمل الروح القدس فيك . وكمن قساة تحولوا إلى ودعاء ... كالقديس موسى الأسود الذى تحول من قاتل ، إلى راهب وديع طيب القلب جداً ، وصار مرشداً لكثيرين ، وتخلص قلبه تماماً من كل قساوة تجاه الله والناس .
لنبحث إذن عن أسباب قساوة القلب ، ونرى كيف يكون علاجها .



أسباب قساوة القلب وعلاجها

هناك أسباب لقساوة القلب . نستعرض المألوف منها :

١- ممارسة الخطيئة :

الخطيئة تقسى القلب . والإستمرار في ممارسة الخطيئة يقسى القلب بالأكثر . لأنه طالما الإنسان يحيا في الخطيئة ، فإنه ينسى الله ، وينسى الوصية ، وينسى الصليب ، وينسى الموت والفداء . والنسيان يقسى قلبه . فيشرب الخطيئة كالماء ، ويتعود عليها . وتصبح سهلة أمامه . لا يسمع فيها صوت ضميره ، ولا صوت الروح ...
والتوبة عن الخطيئة تزيل هذه القسوة . بل إن مجرد التأمل في بشاعة الخطيئة ، يطرد هذه القسوة من القلب . وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل في الباب الأول من هذا الكتاب .

٢- السعور بحلاوة الخطيئة :

إن ذاق الإنسان الخطيئة ، ووجدها حلوة ، ما أسهل أن ينسى محبة الله ، وينسى وصاياه ، ويتقسى قلبه . وتغضى حلاوة الخطيئة على كل شيء ، وتبسط غشاوة على العقل والقلب .

حواء لما رأت الشجرة شهية للأكل ، تقسى قلبها . ونسيت وصية الله ، ونسيت حكم الموت . ولم تعد أمامها حياة النقاوة ولا محبة الله . وشهوة الشجرة غطت على كل شيء .

كذلك شمشون نسي نذره ، وخدعته حلاوة الخطيئة .
حينما كان مع دليلة ، لم يكن مع الله . أنسته الشهوة الخاطئة كل شيء .
ونداء روح الله الذى فيه ، لم يعد يعطى تأثيره . بل نسى أن دليلة لم تكن مخلصه له ، وسلمته لأعدائه أكثر من مرة . ولكن القلب بالشهوة كان قد تقسى حتى

عن سماع صوت العقل . أصبح صلباً ، لا يؤثر فيه شيء ... وفقد شمشون كرامته ونذره (قضى ١٦) .

لهذا السبب أيضاً رفض الشاب الغنى وصية المسيح .
كان يبحث عن الحياة الأبدية ويسأل عنها . وكان يحفظ الوصايا منذ صباه .
ولكن كانت هناك محبة المال في قلبه . وحلاوة هذا المال ، قست قلب هذا الشاب .
فسمع الوصية من المسيح ، ومضى حزيناً ، لأنه كان ذا أموال كثيرة (متى ١٩ : ٢٢) .

وحلاوة الخطية قست قلب فرعون ...
أمامه مئات الآلاف يمكنه أن يسخرهم في أعماله . كيف يمكن أن يترك كل هؤلاء يمشون ، ويخسر هذا الجيش من السحرة ؟! حلاوة هذه الخطية ، خطية السخرة ، وخطية السيادة ، قست قلبه ، فلم يستغد من كل الضربات التي حلت عليه وعلى مصر كلها . وكلما كان القلب يستجيب ، كانت حلاوة الخطية تثنيه فيرجع .

كذلك فعل آخاب ، حين اشتى حقل نابوت اليزعيلي .
من أجل حلاوة هذا الحقل في عينيه ، كسر وصية الله ، واستسلم لنصيحة إيزابل ، وقتل نابوت ظلماً بعد أن لفق حوله تهماً ، واستحضر شهود زور . كانت حلاوة هذا الحقل تغشى على ضميره تماماً ، وتقسى قلبه الذي قبل الظلم والقتل .

حلاوة الخطية تجعل صوت الضمير يفقد تأثيره ، ويتقسى القلب .
فإذا أن الإنسان ينسى وصية الله ، وإذا أن يؤجل تنفيذها لكي يستمر بقاؤه مع الخطية التي يحباها فترة أطول . وخلال هذا يصمم أذنيه عن كل صوت داخل يبيته ، وعن كل صوت خارجي ينصحه . ويصبح قلبه صلباً غير قابل للتحويل . يناديه العقل أن يبعد عن هذه الخطية التي يحباها ، ويناديه ضميره ، وتناديه كل المؤثرات الروحية . ولكن القلب الذي تقسى بالخطية ، يقول : « نعم سأبعد ، ولكن ليس الآن » ويؤجل التوبة .

والتأجيل يقسى القلب ، فلا يلين للهاتف الروحي .

قساوة القلب تجعل الإنسان يؤجل التوبة . وتأجيل التوبة يقسى القلب بالأكثر . فكلما يؤجل الإنسان توبته ، ويستمر شاعراً أنه يتمتع بالخطية ، تزداد حالته سوءاً . ممارسته للخطية تشعره بملاوتها ونفعها . وحلاوة الخطية تدعوه إلى مزيد من الممارسة . وفي كل ذلك يكون القلب قاسياً لا يتأثر بالروحيات .

لا حَلَّ إلا أن يفقد الشعور بحلاوة الخطية .
فإذا ما وصل إلى الإقتران بأنه في حالة ضياع ، وبأن الخطية تضره هنا وتفقد أبعده . وإذا ما بعض نتائج الخطية تهزه هزاً . وإذا ما أن الله يضربه ضربه فيستيقظ . وإذا ما أن يل من الخطية ويتعب . وحينئذ يفكر تفكيراً آخر وهناك علاج آخر هام وهو :

الإكثار من أغذية الروح ، حتى تفقد الخطية حلاوتها .
لا بد أن تتغير نظرة الإنسان إلى الخطية . ولعل هذا ما يقصده الرسول بقوله « تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رو ١٢ : ٢) . وبتجديد الذهن لا يشعر بحلاوة في الخطية .

نتناول سبباً آخر لقساوة القلب وهو :

٣- التأثير الروحي الضار :

إن العشرة والصداقة والبيئة ، لها بلا شك تأثير على حالة القلب ...
فإن عاشرت أشخاصاً ، لهم قلوب حساسة لوصايا الله ، فإنك تتعلم منهم هذه الحساسية ، وتتعلم الدقة في السلوك الروحي .

وإن عاشرت أشخاصاً لا يبالون ، يعلمونك قساوة القلب .
ربما لولا عشرة إيزابل ، ما كان آخاب الملك قد تقسى قلبه ليقول نابوت اليزرعيلي (١ مل ٢١) . إيزابل هي التي قدمت له الفكرة الخاطئة ، وساعدته على تنفيذها ، ودبرت له كل شيء ، وسهلت له العقبات ، وقست قلبه فتقسى ...

وهكذا فعلت نصيحة الشباب مع رجوعهم ، فتقسى قلبه .
نصحوه أن يقول للناس « إن خنصرى أغلظ من متى أبى ... أبى أدبكم

بالسياط ، وأنا أؤدبكم بالعقارب » (١ مل ١٢ : ٨ - ١١) . وهكذا أفهموه الكرامة بأسلوب ضيعه . فتقضى قلبه ، ونفذ نصيحتهم ...

وهكذا من يسهلون الخطيئة للآخرين ، ويساعدونهم عليها .

هناك أشياء قد ينفر منها القلب بطبيعته . ولكنه إن شجعه أحد عليها ، أو قاده ، فإنه يستسلم ويسقط . كمن يتعلم التدخين لأول مرة ، أو كجماعات المهيّز الذين كانوا يقتربون أموراً بشعة كالعرى أمام الناس ، أو ممارسة الجنس أمام الأصدقاء ، أو أنواع أخرى من الإباحية ، ومن القتل وشرب الدماء . وكان أتباعهم يشمئزون منها في أول الأمر ، ولكنهم ينقادون أخيراً ويمارسونها ، كما ورد في مذكراتهم ... ويتقضى قلبهم .

وقد صدق أحد الأدباء ، حيناً قال :

قل لي من هم أصدقاؤك ، أقول لك من أنت .

أصعب شيء هو الضمير الواسع ، الذى يبرر كل خطأ ، ويجد لكل خطيئة تعليلاً ، ويجعل العقل في خدمة رغبات النفس . فإن وجدت هذا النوع من الناس ، فابعد عنه ، لئلا يغرس في قلبك أفكاراً وشهوات لم تكن فيه ، ويقسى قلبك بتبوير الخطيئة ، أو باعتبارها شيئاً طبيعياً ، أو على الأقل يهزأ من تدقيقك في الحياة الروحية ، معتبراً ذلك تظرفاً أو عقداً ... فيقضى قلبك .

وقد تكون الصحة الشريفة كتباً أو وسائل إعلام .

أو مطبوعات ، أو تسجيلات صوتية ، أو أفلام ، أو شرائح ...

وكل ذلك يترك في نفسك تأثيراً في اتجاه معين ، ويقودك حيث لا يريد الله لك ، ويعلمك أشياء جديدة قد تضرك ، ويغرس فيك أفكاراً قد تغير نظرتك الروحية ، فيتقضى قلبك ... أو يقدم لك مفاهيم جديدة عن الحرية ، وعن القوة ، وعن الشخصية ، وعن السعادة ، ربما تشوش على مبادئك وقيمك ... إحترس إذن . وكن مدققاً في اختيار ما تقرأ وما ترى . وافحص ما تسمع ، حتى داخل بيتك .

وافحص كل فكر جديد . وتدريب على تمييز الأرواح .

لا تقبل كل مشورة وكل فكر وكل رأى . إنما كن قوياً من الداخل . ولتكن

لك فضيلة الإفراز، وتميز الأرواح (١ يو ٤ : ١) . ولا تفقد مبادئك الروحية . وكن دقيقاً في اختيار أصدقائك . وكن كثير الإستشارة في كل جديد تقابله . وافحص كل شيء في ضوء تعليم الكتاب وسير القديسين والمبادئ الروحية الثابتة ...
وأيضاً من الأشياء التي تساعد على تقسية القلب :

٤ - الاستسلام للعوائق :

المفروض أن ننتصر على العوائق لا أن نستسلم لها .
ما أسهل أن يضع الشيطان أمامك عوائق في كل تفاصيل حياتك الروحية :
فالخوف على الصحة قد يقف عائناً أمام الصوم . وقلة الوقت قد تقف عائناً أمام الصلاة والقراءة الروحية والاجتماعات والخدمة . والإحتياج المالى ربما يقف عائناً أمام دفع العشور لله . والمشغولية قد تقف عائناً أمام تقديس يوم الرب . وما يسمى بالحكمة قد يغطي كل تصرف خاطيء . فتكون الحكمة العالمية عائناً أمام تقدمك الروحي . (وبالحكمة) قد تتعلم الكذب ، وتتعلم التملق والمحاباة والخوف ...

واستسلامك للعوائق ، يملكك التهاون ، ويقسى قلبك .
إن القلب القوى لا يعترف بأن هناك عائناً يقف أمامه . ولا يسمع لهذه العوائق أن تقسى قلبه ، بل يجي في حياة الإنتصار المستمر . ويجد في الإنتصار على كل عائق لذة روحية ... وإن وضع الشيطان عوائق أمامه ، يتذكر قول الرسول «فقاوموه راسخين في الإيمان» (١ بط ٥ : ٩) .
من الأسباب الأخرى التي تقود إلى قساوة القلب :

٥ - الاستهانة بلطف الله :

أحياناً يغطي الإنسان . وإذا لا يجد أمامه عقوبة إلهية رادعة ، يستهين بوصايا الله ، ويفقد مخافته ، ويتقسى قلبه ... بينما نرى الإنسان يدقق في تصرفاته الرسمية ، حيث توجد مؤاخذه ومساءلة وعقوبة ...
ويذكرنا هذا بقول الرسول «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته ، غير عالم

أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة . ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في وقت الغضب » (رو ٢ : ٤ ، ١٥) .

القلب القاسي ينفعه أحياناً الحديث عن مخافة الله .

الذى تذيبه المحبة ، يمكن الحديث معه عن محبة الله . أما الذى يستهين ويستہتر ولا يبالي ، فإن مخافة الله قد تنفعه . والرسول يقول « لا تستكبر بل خف » (رو ١١ : ٢٠) . ويقول أيضاً « مكملين القداسة في خوف الله » (٢ كو ٧ : ١) .

لعل هذا يذكرنا بأن الكبرياء هي أحد أسباب قساوة القلب :

٦- الكبرياء :

الكبرياء تقسى القلب . والمتكبر لا يفكر إلا في ذاته وفي كرامته . لا يضع الله أمامه ، ولا الناس . وفي سبيل تنفيذ مشيئته ، يمكن أن يفعل أى شيء ، ولا يبالي . وهكذا يصل إلى قساوة القلب .

أما المتواضع ، فينسحق قلبه أمام الله ، ويطيع ، ولا يقسو . وإذا وصل الإنسان إلى انسحاق النفس ، يمكن أن يقوده الإنسحاق إلى التوبة ، إذ تفارقه قساوة القلب ، وتلازمه النعمة .

من الأسباب التي تؤدي أيضاً إلى قساوة القلب :

٧- فقدان هيبته الوسائط الروحية :

فالذى يمارسها بلا روح ، تفقد هيبتها عنده .

وبالتالي تفقد تأثيرها عليه . وهكذا لا يستفيد منها ، فيتقسى قلبه .

قديمًا كان يدخل إلى الكنيسة ، فيتخشع قلبه ويخاف ، إذ يشعر أنه أمام الله في بيئته . أما الآن ، فهو يدخل إلى الكنيسة - مع استمراره في خطيته - ويتجول فيها ، ويتحدث و يناقش ، ولا تترك في نفسه أثراً . وكذلك الهيكل ...

كذلك اعتاد التناول ، والإعتراف بغير خشية ، واعتاد الصلاة والقراءة بغير روح . واعتاد الصوم كعمل جسدي ... ولأن قلبه تقسى بالخطية والإستمرار فيها ، لم

تعد هذه الوسائط الروحية تغير من أمره شيئاً .

كمريض تعود أدوية معينة ، ففقدت تأثيرها عليه .

أو كإنسان يأخذ مسكنات بكثرة ، إلى أن تفقد هذه المسكنات مفعولها بالنسبة إلى آلامه . أو كموظف يقابل رئيساً له باستمرار ويختلط به ، فلم يعد يخشاه أو يهابه كبقاق الموظفين ... أو كإنسان عاش في أماكن مقدسة واعتادها ، فلم يعد يتأثر بها كمن يزورها لأول مرة ...

لذلك يحتاج من يمارس الوسائط الروحية ، أن يمارسها بروح ، بعمق ، بفهم وخشوع ، حتى تعود هيبته إليه ، ويستفيد منها لترد قلبه إلى الله ...



إبعد عن الخطوه الأولى واحترس من الثعالب الصغار

إن كنت تريد أن تتوب ، فاحترس من الخطوة الأولى نحو الخطية . وفي غالبية الحالات لا تهجم عليك الخطية دفعة واحدة بكل قوتها ، إنما تزحف إليك زحفاً في مدة طويلة حتى تصل إليك بتدريج كثير... فانظر من أين تأتيك الخطية ، وارقب مراحلها .

ومراحل الخطية تبدأ غالباً باتصال ، ثم إنفعال ، ثم إشتعال .
تتصل بك الخطية أولاً عن طريق العثرات ، أو التهاون ، أو المعاشرات الردية .
فإن أعطيتها مجالاً ، قد تؤثر عليك فتتفعل بها سواء أكان إنفعالاً فكرياً أو عاطفياً
فإن تهاونت مع هذا الإنفعال الداخلي ، يشتد فيتحول إلى اشتعال . وفي هاتين المرحلتين تكون مؤثرات الخطية قد انتقلت من الخارج إلى الداخل . وهذا أخطر .
وقد يتطور الأمر إلى ما هو أشد .

يتطور الأمر إلى صراع داخلي ، ربما ينتهي إلى تسليم فسقوط .
إنه صراع بين الضمير والخطية ، أو بين الروح والمادة . والصراع يدل على أن الإنسان رافض للخطية ، وأنه يقاوم . وهي مرحلة متعبة ، ولكنها أفضل من التسليم والسقوط . ويكون الإنسان قد أوقع فيها نفسه بتهوانه في المراحل السابقة .

أنت لا تضمن هذا الصراع بينك وبين الخطية .
قد تنجح فيه بعد تعب . وقد تفشل فتلق سلاحك ، وتستسلم للعدو وتسقط .

أتق موضوع [الخطوة الأولى] في القاعة الرقسية بالأثينا رويس يوم الجمعة ١٩٦٦/٦/١٠ ، وأتق في كنيسة الملاك بدمنهو ضمن سلسلة محاضرات عن حياة التوبة . أما موضوع [الثعالب الصغار] ، فأتق في الكاتدرائية الكبرى يوم الاثنين ١٩٧٠/٧/٦ ضمن مجموعة محاضرات عن سفر نشيد الأنشيد .

فالخطية من طبعها ، إنها لا تستريح حتى تكمل ...

وإن سقطت في الخطية ، لا يترك العدو ، بل يستمر في حربه ، حتى تتكرر الخطية ، وحتى تتحول إلى عادة عندك أو طبع فيك . وتصل إلى الوضع الذى لا تستطيع فيه أن تقاوم ... بل تخضع لكل ما يقترحه الشيطان عليك كعبد له وللخطية التى سيطرت عليك .

سبى العدو لك ، وعبودية الخطية ، يمثلها سبى بابل ، حيث يقول المزمور « على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا حين تذكرنا صهيون » (مز ١٣٦) ، ويقول « كيف نسبح تسبحه الرب فى أرض غريبة ؟ » ولا يكتفى عدو الخير بأن يجعل فرسته عبداً للخطية ، وإنما قد يتطور إلى وضع أبشع ...

قد تتطور العبودية إلى مذلة العبودية ... !

أى الوضع الذى يشتهى فيه الإنسان الخطية ولا يجدها ... ! و يطلبها متوسلاً بكل قواه . كمن يطلب شهوة المال أو شهوة المقتنيات ، أو شهوة الجسد ، فلا يجدها . أو كمن يطلب العظمة أو الكبرياء أو الانتقام أو التشفى ، ويسعى بكل رغبته لعله يجد ...

وكأنه يتوسل إلى الشيطان ، أو يتوسل من الشيطان ، أن يمنحه الخطية ! ... وهذه مذلة ، وقد يتمادى الشيطان حتى يحتقر هذا الإنسان !
ففى أية مرحلة من هذه المراحل أنت كائن ؟

لنتك تختصر الجهاد ، وتبعد عن الخطوة الأولى .

فهذا أسهل لك وأريح ، وأكثر ضماناً . كما أنه يدل على نقاوتك ، وعدم قبولك للخطية . ويدل على عدم تفاوضك مع العدو ، وعدم تعاملك معه . وعن هذا شرح القديس دورثيوس :

مثال الشتلة الصغيرة ، والشجرة الضخمة .

فقال إنه من السهل جداً أن تقتلع شجيرة صغيرة من الأرض . تمد يدك فتنزعها بسهولة . ولكن إن صبرت عليها حتى تصبح شجرة ضخمة ، يكون من الصعب عليك اقتلاعها ...

وحتى إن نجحت ، فهناك خطورة أخرى .

قد تنتصر على فكر شرير داخلك ، بعد صراع مرير .
ولكنه أثناء الصراع يكون قد نجس ذهنك وربما قلبك .

وحتى إن طردته من عقلك الواعي ، قد يبقى في ذاكرتك ، وفي عقلك الباطن .
وربما يعود اليك بعد حين ، أو يظهر في أحلامك أو في ظنونك ... فلماذا كل هذا
التعب ؟ الوضع السليم هو أن تتخلص منه من بادىء الأمر ، قبل أن يستقر ، وقبل
أن يتسع نطاقه في محاولة تدمير روحياتك . حاول أن تنتصر من البدء ، من مرحلة
الإتصال .

بقدر إمكانك ، حاول أن تبعد عن الإتصال بالخطية .

وفي ذلك يقول المزمور « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار . وفى
طريق الخطاة لم يقف . وفى مجلس المستهزين لم يجلس » (مز ١) . وقد لاحظ أحد
القديسين لوناً من التطور فيما ذكره المزمور . سلوك ، ثم وقوف ، ثم جلوس . المرحلة
الأولى هى السلوك أى المشى . أخطر منها الوقوف معهم . وأخطر منها الجلوس أى
الإستقرار . كما أن مرحلة المستهزين الأخيرة هى أبشع من مرحلة الخطاة ، إذ تعنى
خطاة مستهزين .

لذلك لا تسمح للخطية أن تتطور معك ، أو أن تجعلك تتطور معها . ومن أول
خطوة إبعد عنها . هذا إن كنت تريد أن تتوب ، وإن كنت تريد أن تحفظ قلبك
نقياً . وعلى أية الحالات :

فى أية مرحلة وُجدت ، لا تتطور إلى أسوأ ...

لأن إرادتك قد تكون قوية فى أول هذا القتال ، فى مرحلة الإتصال . فإذا
انفصلت تكون إرادتك قد بدأت تستجيب للخطأ . وفى الإشتعال تكون قد ضعفت .
وفى الصراع تدخل فى مرحلة حياة أو موت . فإن سقطت ، تكون إرادتك قد وقعت
سريعة فى هذه الحرب . وإن صرت عبداً للخطية ، تكون إرادتك قد انتهت . وتصبح
إنساناً مسلوب الإرادة . فالتفت إلى نفسك ، واحترس منذ الخطوة الأولى . واعلم هذا
جيداً ، أنه :

كلما يخطو الإنسان خطوة فى طريق الخطية ، تضعف إرادته .

ويميل إلى الخطية ، ويكون قد أعطى الشيطان مكاناً ، ووسع له داخل نفسه .

وكلما يخطو خطوة أخرى نحو الخطية ، تقل حبة الله في قلبه ، ويكون سقوطه أمراً متوقفاً جداً... لذلك يقول المزمور « يا بنت بابل الشقية ...

طوبى لمن يمسك أطفالك ، ويدفنهم عند الصخرة » (مز ١٣٦) .

بنت بابل (أرض السبي) هي الخطية . وأطفالها هم شهوات الخطية أو أفكارها منذ الخطوة الأولى ، قبل أن تكبر الخطية . طوبى لمن يمسكهم ويدفنهم (أى يتخلص منهم) عند الصخرة . وكما يقول الكتاب « والصخرة كانت المسيح (١ كو ١٠ : ٤) . أى طوبى لمن يقاوم الخطية ، من أول ولادتها في الفكر ، ويستعين في القضاء عليها بقوة من المسيح نفسه .

وسنحاول أن نضرب أمثلة من الكتاب عن تطور مراحل الخطية :

كيف تطور الأمر في سقوط أمنا حواء ؟

لنأخذ درساً في حياتنا من هذه الخطية الأولى . هل سقطت حواء حينما قطفت من الشجرة فأكلت ، وأعطت رجلها فأكل معها ؟ كلا ، فقد كانت هذه هي المرحلة الأخيرة من المساءة . وكانت تطورا طبيعياً جداً لكل ما سبقها . وكان الأمر متوقفاً... ! فكيف ذلك ؟

كيف تطور الأمر مع حواء ، حتى قطفت من الشجرة ؟

بدأت المشكلة حينما جلست مع الحية ، فأسمعتها حياً كلاماً عجيباً « لن تموتا... يوم تأكلان تنفتح أعينكما ، وتصيران مثل الله ، عارفين الخير والشر » (تك ٣ : ٤ ، ٥) .

وهنا دخل الشك في قلب حواء ، ثم بدأت تفقد الإيمان في صدق كلام الله الذى قال « يوم تأكلان موتاً تموتا » ، أو على الأقل بدأ إيمانها يتزعزع ، ودخلها الشك... وأسلمها الشك إلى الشهوة ، شهوة الألوهية ، وشهوة المعرفة ، وليس مجرد شهوة الثمرة . وهنا كان انفعالها الداخلى قد بلغ أقصاه . وفقدت حواء بساطتها ، وفقدت نقاوتها الداخلية . ونظرت إلى الشجرة ، فإذا هى : جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وشهية للنظر (تك ٤ : ٦) .

كل يوم كانت حواء تمر على الشجرة ، لأنها في وسط الجنة ، ولم تكن تنظر إليها هكذا . فمن أين أتت هذه النظرة ؟

فكر غريب دخل إلى القلب ، تحول إلى شهوة .

وسيطرت الشهوة على القلب ، واستسلمت لها الإرادة .

وما كانت حواء قادرة في ذلك الحين ، وما كان آدم قادراً ، على الإمتناع عن الأكل . فحالة قلبها كانت قد تغيرت تماماً عن وضع النقاوة والبساطة الأولى . وحل الشك محل الإيمان . واشتد الإغراء جداً . وضعفت الإرادة جداً . وسقطت حواء وآدم معها .

كان يجب على حواء أن تبعد عن الخطوة الأولى .

فلا تجلس مع الحية وهى «أحيل حيوانات البرية» . وإن جلست ، فما كان يجب أن تسمع كلاماً ضد وصية الله . وإن سمعت ، كان يجب أن ترفضه ولا تصدقه . ولا تجعل الفكر الخاطئ يدخل إلى القلب ، ويتحول إلى شهوة . وإن جاءت مثل هذه الشهوة ، كان يجب أن تقاومها ... ولكنها تركت الأمور تتطور في قلبها ، وتقودها من خطية إلى أخرى ، حتى وصلت إلى أقصى درجات السقوط ... وما كان أغناها عن كل هذا ، لو بعدت منذ الخطوة الأولى ...

أتريد أنت إذن ألا تسقط ؟ إبعد عن الحية .

إبعد عن « المعاشرات الرذيلة التى تفسد الأخلاق الجيدة » (١كو ١٥ : ٣٣) . إحترس من التأثيرات الخارجية الشريرة . واحترس من أن تفتح عينك لكى تبصر الخطية . إبعد عن هذه الخطوة الأولى ، حتى لا تقودك إلى الضياع شيئاً فشيئاً .

فهذه السقطة عينها سقط شمشون ، بسبب حية أخرى .

شمشون الجبار ، القاضى العظيم ، ذو الكرامة والهيبة ، الذى كان روح الرب يحركه (قض ١٣ : ٢٥) ، والذى حل عليه روح الرب (قض ١٤ : ٦) . شمشون هذا ، باح بسره ، وكسر نذره ، وأذله أعداؤه . فقاوا عينيه ، وجعلوه يجر الطاحون في بيت السجن (قض ١٦ : ٢١) . وقد تأثرت جداً من هذا المنظر ، وأنا شاب صغير ، منذ حوالى أربعين سنة . وكتبت قصيدة على لسان شمشون أومها :

أنا شمشون أم غيرى
فأين مهابة القدير ؟

أنا الجبار أم شبحى
إذا ما كنت شمشوناً

وأيّن كرامة القاضى وأيّن مواكب النصر ؟
وأيّن النور من عني وأيّن الطول من شعري ؟

حنانك يارحى الطاحون هل تدريين ما سرى ؟
أجيبى إننى مصغى فقد حُيرتُ فى أمرى ؟
أنا الجبار أم شبهى أنا شمشون أم غيرى ؟

شمشون هذا : هل حلت مأساته فجأة ، أم لها تطورات ؟

نعم لها تطورات ، خطوة تقود إلى خطوة . أولها أنه ذهب إلى غزة ، وأخطأ هناك (قضى ١٦ : ١) . ثم تعرف على امرأة إسمها دليّة . وتطورت علاقته بها إلى أنه أحبها وتعلق بها ، ثم أقام عندها . وفى كل هذا ما كان ضميره يتعبه ! وأحس أعداؤه بهذا فاستغلّوها ضده . وحاولت أن تعرف سرّ قوته لتسلمه إلى أيدي أعدائه . وسألته أكثر من مرة ، وكانت تجبر أعداءه ، وهو يعلم هذا ... ومع ذلك بقى على علاقته بها . ولكن ضاعت شخصيته معها ... وتطور إلى أن أخبرها بسرّه ، فباعته لأعدائه بالفضة . ورضى أن يسلمها رأسه لحلق شعره . وضاعت قوته ، فأسروه ...
ما كان أغناه عن كل هذا ، لو أنه بعد عن الخطوة الأولى ... أو لو أنه استيقظ إلى نفسه فى أية مرحلة من المراحل التى مرت عليه ، قبل أن يصل إلى المأساة ...

مأساة لوط ، مرت أيضاً بمراحل وتطورات .

لقد هلكت سادوم ، وهلك معها كل غنى لوط . وفقد كل شيء وجميع أقاربه ، وفقد إمرأته أيضاً . وكان يمكن أن يهلك مع المدينة لولا أن أخرجه مع إبنتيه ملاكان (تك ١٩) .

وأنا عندما أحلّل مشكلة لوط ، إنما أرجع بعقارب الساعة إلى الخلف سنوات ... حينما كان يعيش فى صحبة رجل الله إبرآم ، إلى جوار البر والمذبح . ثم بدأت المشكلة ...

أحب لوط الغنى والإتساع ، فاشتبهى الأرض المعشبة .

وأدى به هذا الأمر إلى أن ينفصل عن رجل الله إبرآم . وكانت أول خسارة

له ... ثم تطلع يبحث عن الأرض المشيبة ، فرأى سدوم . وكانت أرض سقى « كجنة الله ، كأرض مصر » (تك ١٣ : ١٠) . « فاختار لوط لنفسه » . وكان هذا خطأ روحياً . « وكان أهل سدوم أشراً وخطاة لدى الرب جداً » (تك ١٣ : ١٣) . ومع ذلك :

لم ينظر لوط إلى روحيات المكان ، بل إلى خضرته !
فترك إبرآم والمذبح ، ليذهب إلى الأرض المشيبة ، في عشرة الأشرار . ذهب إلى المكان الذى فيه خير مادی ، وليس إلى المكان الذى يعبد فيه الله ! وبدا أن روحياته في الدرجة الثانية من اهتمامه « وكان البار - بالنظر والسمع ، وهو ساكن بينهم - يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة » (بط : ٢ : ٨) .

ومع ذلك كله ، تطور الحال به إلى أسوأ .

فاختلط بشعب الأرض ، وزوجهم من بناته . وفقد هيبته الروحية بينهم ، حتى أنه عندما أنذرهم بحكم الله فيما بعد « كان كمازح في أعين أصهاره » (تك ١٩ : ٤٠) . وهجموا على بيته حين دخل عنده الملاكان ... وانتهى الأمر بهلاك المدينة وفقد كل ما كان له .

وكان الأجدر أن ينتبه من البداية ، ولا يترك إبرآم .

كان عليه أن يحارب في قلبه الخطوة الأولى ، وهى عبدة الأرض المشيبة ، عبدة الغنى والإتساع . إذن ما كان يحدث له شيء من كل هذا الذى حدث .

لنتأمل إذن خطية داود . ونرى خطواته الأولى .

لقد زنى داود ، وقاده الزنى إلى القتل ، ليغطي خطيئته . كما قاده الأمر إلى أسلوب من الكذب والإلتواء لخداع أوريا الحثي (٢ صم ١١ : ٨ - ١٣) . فهل كان الزنى هو الخطوة الأولى ؟ كلا . سبقها إنه رأى المرأة تستحم فاشتهاها . ومع ذلك لم تكن هذه هى الخطوة الأولى ، إذ سبقها أن داود قام عن سريرته ، وتمشى على سطح بيت الملك ، وتطلع إلى بيوت الناس وأسرار حياتهم الشخصية . ولكن سبقت هذه خطوة أخرى أساسية :

كانت الخطوة الأولى في سقوطه داود ، حياة الترف .

هذا الترف الذى يجعله يبيت في قصره ، بينما الشعب منشغلاً في الحرب في

الصحراء ، وهو لا يشاركونهم حتى بشعوره . لقد كان أوريا أكثر نبلاً منه في هذه النقطة ، إذ لما دعاه داود أن يذهب إلى بيته ويستريح ، أجاب أوريا « ... عبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي إلى بيتي ، لأكل وأشرب وأضطجع مع إمرأتى !؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر » (٢ صم ١١ : ١١) .

قديمًا لم يكن داود هكذا . لقد تغيرت حياته .

كان مطاردًا من شاول ، هاربًا من برية إلى أخرى . يسكن في المغارات ، يحارب بنفسه ، ويبيت على الأرض . ولم يخطئ وقتذاك . أما الآن فإنه في ترف ، يسكن القصور ، وله خدم وحشم وعبيد . ويرسل الجيش ليحارب ، بينما هو في بيته على سريره ، يقوم منه ليتمشى على السطوح ، وينظر الناس . وليست له مشاعر المشاركة مع جيشه المحارب ...

وقاده الترف إلى الشهوة ، ثم إلى الخطية ومحاولة تغطيتها .

وسقط في خطايا كثيرة ، جعلته فيما بعد يبذل فراشه في كل ليلة بدموعه (مز ٦) . ولما أراد الله أن يعالجه من هذه الخطوة الأولى ، سمح أن يقوم ضده أبشالوم . ويخرج داود من قصره حافياً ، (٢ صم ١٥ : ٣) ، ويشتمه شمعى بن جيرا في الطريق ، ويرده الرب إلى طقسه الأول ...

فلنتأمل إذن كيف أمكن أن يخسر سليمان للأوثان .

سليمان أحكم أهل الأرض في جيله ، الذى ظهر له الله مرتين وكلمه (١ مل ١١ : ٩) . ومنحه الحكمة والجلالة وسعة الصدر ، كيف أمكن أن يسقط في هذه الجهالة العجيبة ؟ إنها لم تأت فجأة ولا شك ، إنما سلكت في تطورات .

وكانت الخطوة الأولى أنه تزوج نساء غريبات (١ مل ٩ : ١٦ ، ٢٤)

وتطور الأمر إلى أن قال الكتاب « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون : موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات » (١ مل ١١ : ١) . وكان هذا ضد وصية الله التى تمنع الزواج بالأجنبيات ...

وتطور الأمر إلى أنه بنى مرتفعات على الجبال لآلهة هؤلاء النسوة الغريبات ، كى يوقدون ويذبحن لآلهتهن » (١ مل ١١ : ٧ ، ٨) . وانتهى أمر سليمان في تطور

الخطية معه بمأساة، إذ يقول الكتاب « وكان في زمان شيخوخته أن نساءه أعلن قلبه وراء آهة أخرى... فذهب وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب » (١ مل ١١ : ٤-٧). كل ذلك تطور من الخطوة الأولى، الزواج بأجنبيات.

يعزفون الوقت إن تحدثت عن تطور الخطية مع أمثال هؤلاء الجبابرة. وكيف أن الخطوة الأولى في الخطية قادتهم إلى خطوات أبشع. ولكني أقول:

لست أقوى من الأنبياء والحكماء والجبابرة الذين سقطوا.
فاتحترس من الخطوة الأولى للخطية. واهرب لحياتك.

إنك لست أقوى من آدم الذي كان في الفردوس في حالة فائقة للطبيعة، ولا أقوى من داود الذي حلّ عليه روح الرب وكان مسيحاً للرب، ولا أقوى من شمشون نذير الرب الذي كان روح الرب يحركه، ولا أقوى من سليمان الذي كلمه الرب مرتين وكان أحكم أهل جيله، ولا أقوى من إبراهيم أب الآباء وتخليل الله، الذي لكى ينقذ نفسه كذب وقال إن سارة أخته وعرضها للضياع (تك ٢٠ : ١١، ١٣).

وصدق الكتاب حيناً قال عن الخطية إنها :

« طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦).

إذن فلنحترس من الخطية بكل قوتها. ليس فقط حيناً تشدد علينا، وتهجم مثل أسد يزار ملتصقاً من يبتلع (١ بط ٥ : ٨). كلا، وإنما من أول خطوة، نمسك أطفالها، وندفعهم عند الصخرة... ليس فقط الخطايا الواضحة البشعة، إنما كل خطية مهما بدت بسيطة أو صغيرة أو تافهة، نعمل بقول الوحي الإلهي في سفر النشيد :
خذوا لنا الشعالب، الشعالب الصغار، المفسدة للكروم » (نش ٢ : ١٥).

الكرم بصفة عامة هو الكنيسة، وبصفة خاصة : قلب كل مؤمن.
والشعالب هي الخطايا الماكرة التي تبدو صغيرة، وليست مثل الوحوش الكاسرة التي يستعد الجميع لها.

خطورتها، أنها لصغرها، ربما لا يهتم أحد بها...

فتركونها تنمو وتكبر ، حتى تتطور إلى وضع غريب يصعب مقاومته .
وهذه الوصية تدعونا إلى التدقيق والإهتمام ، وأن نبحت في حياتنا ما هي هذه
الثعالب الصغار لكي نقاومها . كما أننا نتعلم درساً هاماً وهو:

لا يجوز إهمال أية خطية ، مهما بدت صغيرة .

فإن أى ثقب بسيط فى مركب ، قد يتسع إذا ما أهمل ، حتى يتحول الى كارثة
غرق . ونهر النيل بمجره العظيم بدأ بقطرات أمطار سقطت على جبال الحبشة وسارت
حتى وصلت إلينا نهراً . وتل القمامة الضخم الذى ألقوه على الصليب ، بدأ بمقطف
واحد من القمامة . وأطول مشوار فى الخطية ، بدأ بخطوة واحدة .

فلنحترس مدققين من كل خطوة للخطية . ونطرد الثعالب الصغار .

التي ربما تكون أحياناً قليلاً من الكسل أو التهاون والتراخي ، أو قليلاً من
التبسط فى الكلام أو التصرف . عارفين أن الذى يهتم بالنسبة إلى القليل ، سيهتم ولا
شك بالكثير أيضاً . وكما يقول المثل الإنجليزى . إهتم بالنس ، وستجد أن الجنيه يهتم
بنفسه . إذن لا تغفل الأشياء الصغيرة ، بل اهتم بمقاومتها .

هناك ثعالب صغيرة دخلت حياة القديسين . ولناخذ إبراهيم مثلاً .

فى مرتين ، ضحى أبونا إبراهيم بزوجه سارة ، وقال إنها أخته ، فأخذوها إلى
ملك البلاد ، إذ حسنت فى عينيه ، لأنها كانت جميلة جداً . مرة فى مصر (تك ١٢ :
١٠ - ٢٠) . والأخرى فى أرض جرار (تك ٢٠ : ١ - ١٤) . ولولا تدخل الرب
نفسه ، لضاعت سارة ، وصارت زوجة لغير إبراهيم فى حياته . فكيف وقع أبونا
إبراهيم فى هذا الأمر ؟

لعل الخطوة الأولى هى الخوف على حياته .

خاف وقال لسارة « إذا رآك المصريون ، يقولون هذه امرأته ، فيقتلوننى
ويستبقونك » (تك ١٢ : ١٢) . وهل من أجل خوفك ، تضحى بامراتك ؟ هذا
كثير .

على أن خوف أبرآم من الموت ، سبقه خوف آخر من المجاعة . يقول الكتاب
« وحدث جوع فى الأرض ، فأنحدر أبرآم إلى مصر ، ليستغرب هناك » (تك ١٢ :
١٠) . وكانت مصر لغناها ترمز إلى الإعتماد على الذراع البشرى .

ولكن ثعلباً صغيراً كان قد دخل إلى أبرآم . فما هو؟

هذا الثعلب الصغير غير المرئى ، كان ضعف إيمان في قلب أبرآم ، من جهة إعالة الله له في وقت المجاعة . ضعف الإيمان هذا ، قاده إلى الإعتماد على الذراع البشرى فنزل إلى مصر . وعرف الشيطان نقط الضعف هذه ، فقاده إلى الخوف على حياته من الموت ، كما خاف على حياته من الجوع . والخوف قاده إلى التضحية بامرأته ، وقاده هذا إلى الكذب والإدعاء بأنها أخته ... واستطاع الثعلب الصغير الذى دخل إليه أن يفسد الكرم من كل هذه النواحي...

ثعلب صغير آخر دخل إلى أيوب ، هو البر الذائق .

كانت مشكلة أيوب أنه رجل كامل ومستقيم ، ويعرف عن نفسه أنه كامل ومستقيم . ومن أجل هذا ، وقع في البر الذائق . وكان كما قال الكتاب « باراً في عيني نفسه » (أى ٣٢ : ١) . وظل الله ينيقه بالتجربة ، حتى قال « نطقت بما لم أفهم ، بعجائب فوق لم أعرفها » (أى ٤٢ : ٣) .
ما أسهل أن نقطة صغيرة تجر إلى مشاكل عديدة جداً .

ثعلب صغير حارب يوسف الصديق ، هو الحديث عن النفس .

فتحدث أمام أخوته عن أحلامه ، وعن الذين يسجدون له في الحلم ، فأثار ذلك حسدهم ، وتحول الحسد إلى بغضة « وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه » (تك ٣٧ : ٨) . وتطور الأمر حتى باعوه أخيراً كعبد ... لذلك حسناً أن السيدة العذراء لم تكن تتحدث عن كل العجائب التى تحدث معها ، إنما تحتفظ بذلك في قلبها (لو ٢ : ٥١) .

وكان القميص الملون ثعلباً صغيراً آخر سبب مشاكل .

القميص الملون الذى صنعه يعقوب لابن شيخوخته ، يوسف . فأثار حسد أخوته « فلما رأى أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع أخوته ، أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » (تك ٣٧ : ٤) ... أترارك أنت أيضاً تفعل هذا ، حينما تفرق في معاملاتك للناس ، وتظهر حباً لشخص منهم أكثر من غيره ؟!

حقاً ، من كان يظن ... ؟!

من كان يظن أن الخطوة الأولى في خطايا عديدة ، تصل إلى بيع الأخ ، وخديعة

الأبناء لأبيهم ، والوصول إلى عبودية فرعون ، كل هذه تكون بسبب قيصر ملون أو رواية صبي صغير لأحلامه ؟ ولكنها الثعالب الصغار المفسدة للكروم
لذلك يقول الكتاب : «أسلكوا بتدقيق ، لا كجهلاء ، بل كحكماء » (أف ٥ : ١٥) . كن دقيقاً جداً إذن ، فرما خطأ تظنه بسيطاً يجبر إلى مشاكل كثيرة . بينا التدقيق لا بد ينفعك ، ويعلمك الحرص . ونضرب لذلك مثلاً :

الذى يهتم بالحشمة داخل غرفته ، لا بد سيحتشم في الخارج .
الذى في حجرته الخاصة المغلقة عليه ، يستحى من أرواح الملائكة والقديسين ،
هذا لا بد أن يسلك باحتشام في الخارج أمام الناس . وتصير الحشمة من طباعه .
ومن ناحية أخرى ، من لا يبالي بأن يجلس في وضع غير لائق ، في حجرته
الخاصة ، قد يتعود ذلك ، ويجلس أحياناً بنفس الطريقة أمام الناس !

الشیطان ذكى . لا يهاجمك بخطية بشعة دفعة واحدة .
لا يطلب منك باباً واسعاً يدخل منه إلى حياتك . وكل ما في الأمر أنه
يستأذنك في ثقب إبره . وقد لا تبالي ، فتسمح له . وهذا يكفيه . يظل يوسعه حتى
يتلف حياتك كلها . ولذلك فالتدقيق أفضل .

ما أكثر الخطايا التي تدخل من ثقب إبره .
الشیطان مثلاً لا يدعوك إلى عدم الصلاة ، إنما إلى تأجيلها ...
إن رآك متعوداً الصلاة حالماً تستيقظ ، يقول لك : إنتظر حتى تغسل وجهك
وتغيبق ثم تصلى . وقب أن تفريق يكون قد ألقى في ذهنك أفكاراً عديدة تشغلك
وتنسيك ، وأشياء أخرى تعطلك ... أما أنت فلا تعطه ، بل استمر في صلاتك ، حتى
وأنت ذاهب لتغسل وجهك ...
كن محترساً إذن . وابتعد عن الخطوة الأولى التي تقودك إلى الإهمال والفتور ، أو
التي تقودك إلى الخطية .

والخطوة الأولى للخطية ، قد لا تكون خطية في ذاتها .
فرما علاقة خاطئة ، تكون بدايتها صداقة بريئة لا خطأ فيها . وربما يكون ضياع
وقت البيت كله ، حول التلفزيون والأفلام ، بدأ بفرجة بريئة على فيلم علمي أو
مباراة للكرة ، ثم تطور الوقت ، حتى ضيع مذاكرة التلاميذ وحضور إجتماعات

الكنيسة . فعلى الإنسان إذن أن يكون مدققاً ومحترساً...

والخطوة الأولى إلى الخطية ، تختلف من شخص لآخر .
الترف كان الخطوة الأولى لخطية داود ، والحسد كان الخطوة الأولى لخطية قابيل
وإخوة يوسف . والتزوج بالأجنبيات كان الخطوة الأولى في خطية سليمان . والتأثير
الخارجي الخاطيء كان الخطوة الأولى في خطية آدم وحواء وخطايا عصر القضاة
(قض ٣ : ٥ ، ٦) . ومحنة النساء كانت الخطوة الأولى في سقطة شمشون . والخوف
كان الخطوة الأولى لخطية بطرس وخطية إبراهيم...

فابحث أنت ما هي الخطوة الأولى في خطاياك ؟

واحترس منها جداً . وإن وقعت في الخطوة الأولى ، لا تكمل الثانية .
ربما تكون خطوتك الأولى أنك ذهبت إلى غرة ، أو إلى سدوم ، أو إلى جرار ،
ربما ضعف في شخصيتك يجعلك تستسلم لمشورة الأشرار . ربما لا تكون محبة الله في
قلبك . ربما خطوتك الأولى هي الغرور أو الثقة الزائدة بالنفس التي لا تقودك إلى
الإحتراس . وربما تكون الخطوة الأولى لسقوطك هي العثرات ...
أيأ كانت فسنحاول أن نبحثها معاً ، لكي نخلص منها ...

واستفد من دراسة الخطوة الأولى التي أسقطت غيرك .
وبخاصة أولئك الذين كانوا جبابرة في حياة الروح . أنظر إذن « كيف سقط
الجبابرة ، وبادت آلات الحرب » (٢ صم ١ : ٢٧) .

وبالإحتراس من الخطوة الأولى ، تعلم حياة التدقيق .
واحرص أن تتخلص من الثعالب الصغار المفسدة للكروم . وكما قالت القديسة
سارة : « إن فإ تمنع عنه الماء ، لا يظلب خمراً . وبطناً تمنع عنها الخبز ، لن تغلب
لحمأ » ...

ابعد عن العثرات وأهرب من مصادر الخطيئة

إبعد عن العثرات بنوعها :
سواء الواردة إليك من آخرين أو التي أنت تعثر بها غيرك

• أبعد نظرة العثرة :

العترة في اللغة هي السقطة .

والذى يعثر غيره ، هو الذى يتسبب في إسقاط غيره .
وهذا يحمل ذنب ذلك الساقط ، أو يشترك في ذنبه . وفي ذلك قال السيد المسيح له المجد « ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة » (متى ١٨ : ٧) ، « خير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ، ويُغرق في لجة البحر » (متى ١٨ : ٦ ، لو ١٧ : ٢) .

عبارة « ويل لذلك الإنسان » تدل على خطورة خطيئته .
ولشعور القديس بولس الرسول بخطورة إغثار الآخرين ، ولحرصه ألا يهلك أحد بسببه ، قال عبارته المشهورة « إن كان طعام [أكل اللحم] يعثر أخى ، فلن آكل لحماً إلى الأبد ، لئلا أعثر أخى » (١ كو ٨ : ١٣) . ولخطورة العثرة أيضاً ، نرى أن السيد المسيح :

وضع الذين يعثرون قبل الخطاة في استحقاق الدينونة .
فقال « هكذا يكون في انقضاء العالم : يرسل ابن الإنسان ملائكته ، فيجمعون من ملكوته جميع المعثرين وفاعلى الإثم ، ويطرحونهم في أتون النار » (متى ١٣ : ٤ - ٤٢) ، جاعلاً المعثر قبل فاعلى الإثم ، لأنهم السبب ...

(١) من محاضرة عن العثرات بتاريخ الجمعة ١٩٧٠/١/٢٣ في الكاتدرائية الكبرى . ومحاضرة أخرى بنفس العنوان في اجتماعات الأسرات الجامعية ، ومحاضرة ثالثة بعنوان (إهرب لحياتك) أقيمت يوم الجمعة ١٩٧٢/٨/٢٥ في الكاتدرائية الكبرى .

وإن كان إعتار الآخرين أمراً خطيراً ، فإن إعتار الصغار والبسطاء أمراً
أخطر

وهكذا قال الرب في الويل الذى صبه على الذين تأتى منهم العثرات « من أعتَر
أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ... » (متى ١٨ : ٦) « خير له لو طَوَّقَ عُنُقَهُ بِحَجَرٍ
رحى ، وطرح في البحر ، من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار » (لوقا ١٧ : ٢) .

ذلك لأن الصغار والبسطاء ، يقبلون العثرة بسهولة .

إنهم يصدقون كل شيء ، بسرعة وبلا نقاش ، ولا يشكون فيمن يكلمهم ،
وليست لديهم القوة على فحص الأمور ، والتمييز العميق بين ما هو حق وما هو باطل
في كثير من الأمور ... وهكذا لا يوجد تكافؤ في كفتي الميزان ، بين من تصدر منه
العثرة ومن يتقبلها ...

وعدم التكافؤ هذا ، وجد في عثرة حواء من الخطية .

حواء كانت بسيطة جداً ، نقية للغاية ، لا تعرف ما هي الخطية من قبل ، لا
تعرف الشر ، لا تشك في كلام غيرها إذ لا تعرف أن هناك كائنات تكذب . لم تختبر
الكذب ولا الحيلة من قبل ولم تعرفها . والحية كانت « أحيى حيوانات البرية »
تعرف كيف تكذب ، وكيف تسبك العثرة في مكر . وهكذا لعدم تكافؤ الكفتين
أمكنها أن تعثر حواء ... وكانت حواء بالنسبة إلى الحية ، هي « أحد هؤلاء
الصغار » .

هكذا إعتار الأطفال أيضاً ...

إنهم في سن يصدقون فيه كل شيء ، ويقلدون كل شيء ، حتى الحركات
والملامح ، ويرددون الألفاظ التي يسمعونها ، بلا فهم . هم عجيبة سهلة ، يمكن
تشكيلها بسهولة . لذلك حرام جداً أن يفسدهم أحد . ما أخطر العثرة التي يتلقونها
من آبائهم ، ومن إخوتهم ، ومن الجيران والمدرسين والأهل ، ومن وسائل الإعلام
المتنوعة ... إن التعامل معهم ينبغي أن يكون بحرص شديد ، كأجهزة حساسة ...

لذلك إبعد عن كل عثرة ، وبخاصة للبسطاء وللصغار .

إحذر كل الحذر أن تتعب أفكار البسطاء . تصور إنساناً بسيطاً بساطة الأطفال ،
لم يفتح قلبه للشر . يأتي إنسان أكبر منه عقلاً وأكثر منه خبرة ، فيفتح عينيه على

عشرات ، ويدخل في ذهنه أفكاراً من الصعب خروجها منه . فيلوث فكره ، ويفقده
بساطته ، ويشككه ، ويعثره ويسقطه ... ألا يحمل دينوته ؟
الذى يعثر صغيراً ، يكون كالذى يحارب من لا سلاح له .

وقد تؤخذ كلمة (صغار) بمعناها النسبي وليس المطلق .
أى من هو أصغر منك في المعرفة وفى الإرادة وفى المركز ، ويمكنك إسقاطه . حقاً
ما أخطر هذا الأمر ، فما هى خطورته إذن ؟ إننا نوضحها فى سبين :
١ - شعور الإنسان بأن هذا الشخص كان بريئاً . ولولا الذى أسقطه ، وأفسد
فكره وشعوره ، ما كان قد سقط ...

٢ - ماذا يحدث لو أن هذا الذى أسقط غيره قد تاب ، بينما الذى سقط بسببه
لم يتب ؟ هل يستريح ضميره فى توبته ؟ وهو يرى من قد هلك بسببه ؟

لذلك إحترس جداً من أن تعثر غيرك ...
إن توبتك فى يديك ، تستطيع أن تتوب إن رجع قلبك إلى الله . ولكن توبة
هذا الذى أعثرته ، ليست فى يديك . فإن استمر فى خطيئته التى سقط فيها بسببك ،
وهلكت نفسه ... هل تؤخذ نفسك عوضاً عن نفسه ؟
وحتى إن غفر الله لك بالتوبة ، ألا يبقى فى قلبك ألم مرير ، وأنت ترى من قد
هلك بواسطتك ، مهما خلصت أنت ؟!
هذا إذا كنت أنت سبب العثرة ، أما إن كانت العثرات تأتيك من آخرين ،
فنصيحتى لك :

إبعد عن العثرات . واهرب من كل أسباب الخطية .
تذكر قول الملاك للوط « إهرب لحياتك ... ولا تقف فى كل الدائرة ... لثلا
تهلك » (تك ١٩ : ١٧) . واذكر أيضاً أن هروب يوسف الصديق من العثرة التى
أخت عليه ، كان هو السبب فى عدم سقوطه فى الخطية . كذلك الرب لما اختار أبانا
ابراًم ، وأراد أن يكون به شعباً مقدساً ، أبعد عن العثرات ، بأن أخرجه من أرضه
وعشيرته (تك ١٢ : ١) .

بهربك من الخطية وعثراتها ، تدل على رفضك لها .

فالمهروب من العثرات فضيلة ، لأنه يدل على أن القلب من الداخل لا يريد الخطيئة . لذلك إحترس من أن تظن المهروب ضعفاً . فليس من الحكمة أن يفتر الإنسان بقوته ، ويعرض نفسه للتجارب ، ويدخل نفسه في حروب ربما تتعبه . إذن لا تصف الإبتعاد عن العثرات بأنه ضعف ، بل قل إنه صيانة . وقد نصح الآباء بالبعد عن «مادة الخطيئة» . وقالوا في ذلك :

إن القريب من مادة الخطيئة ، تصادفه حربان ، من الداخل ومن الخارج . أما المبتعد عنها فله حرب واحدة .

وليس الآباء فقط هم الذين ينصحون بالمهروب من العثرات ، بل الكتاب المقدس نفسه يقول «وأما الشهوات الشبابة فاهرب منها» (٢٢ : ٢) . ويعمل ذلك بأن «المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة» (١ كو ١٥ : ٣٣) . والمزمور الأول واضح في قوله «طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطيئة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس» (مز ١ : ١) . لأن صحبتهم كلها عثرات ...

بل حتى السيد المسيح نفسه يقول :

إن كانت عينك اليمنى تعثر ، فاقطعها والقها عنك .

... وإن كانت يديك اليمنى تعثر ، فاقطعها والقها عنك (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) .

قال ذلك فى العظة على الجبل . وكرر نفس الكلام فى مناسبة أخرى (متى

١٨ : ٩) .

وهذا التكرار يدل على اهتمام الرب بهذه النقطة بالذات ، أى البعد عن العثرات . وليس شرطاً أن يؤخذ كلام الرب هذا بطريقة حرفية ، إنما يمكن :

تفسير هذه الآيات بمعنى روحى ، غير حرفى .

أى أنه : إن أتت العثرة من أعز إنسان لديك ، الذى هو كعينك . أو إن أتت العثرة من أكثر إنسان يساعدك ، كيدك اليمنى ، فابتعد عنه ... أو يمكن تفسير الآية بمعنى أنه إن أتت العثرة من داخل نفسك وليس من الخارج ، فابتعد عنها بكل حزم ، حسب وصية المسيح ، ولو أدى الأمر إلى استشهاده ...

◉ من أين تأتي العثرة :

قد تكون العثرة داخلية ، من داخل الإنسان .

« من كثر قلبه الشرير تخرج الشرور » (لو ١٦ : ٤٥) . فنه تصعد شهوات وأفكار تزعجه . قد تكون العثرة من حواسه التي تجمع له مناظر وأحاديث تتبعه . قد تكون من رغباته ومسلياته وهواياته ، ومن أفكاره وأحاسيسه ، ومما خزنه لنفسه في عقله الباطن من صور وأخبار وأفكار... لذلك فهو يبعثر نفسه . وإن لم تأت شهوة من الخارج ، يجلبها لنفسه من الداخل ، بتصرفه الخاص . حقاً « إن أعداء الإنسان أهل بيته » (متى ١٠ : ٣٦) . وبيته هو قلبه وفكره...
إن كنت هكذا ، فحاول أن تضبط نفسك ، كما قال الرسول « مستأسرين كل فكر لطاعة المسيح » (٢ كو ١٠ : ٥) .

وهناك عثرات من الخارج : من البشر ومن الشياطين :

وفي الخطيئة الأولى للبشرية ، يوجد النوعان معاً : وهما عثرة الشيطان لحواء ، وعثرة حواء لآدم . والشيطان قد يعثر الناس بطريقة مباشرة ، وقد يعثرهم عن طريق البشر ، عن طريق خدامه الذين « يغيرون شكلهم كخدام للبر » (٢ كو ١١ : ١٥) .

وهناك عثرات من الشياطين ، كالرؤى والأحلام الكاذبة :

فالشيطان كما يقول الكتاب قد « يغير شكله إلى شبه ملاك نور » (٢ كو ١١ : ١٤) . ومعروفة القصة التي وردت في البستان ، التي ظهر فيها الشيطان بهيئة ملاك لراهب قديس ، وقال له « أنا جبرائيل الملاك أرسلني الله إليك » . فأجاب الراهب في اتضاع « لعلك أرسلت إلى غيري وأخطأت الطريق . أما أنا فإنسان خاطيء لا أستحق أن يظهر لي ملاك » . فتركه الشيطان ومضى...

وقد يظهر شيطان كروح من أرواح البشر المنتقلين :

يقول أنا روح فلان (أحد أقربائك أو معارفك) ، ويغير بأشياء تتعلق بهذا الإنسان أو بيته أو أهله ، حتى يصدقه من رأوه . وقد يظهر في صورة أحد القديسين أو السواح ، حتى يخدع الناس .

وقد يظهر الشيطان في حلم .

وهناك أحلام كثيرة من الشيطان ، كما قال القديس الأنبا أنطونيوس عن خبر معين « جاء الشياطين في حلم وأخبروني » . لذلك نصيحتي لك : لا تصدق الأحلام ، ولا تجعلها تقودك في حياتك . فليست كل الأحلام من الله ، كأحلام دانيال ويوسف الصديق ويوسف النجار ، إنما هناك أحلام من الشيطان ليعثر بها الناس ، وهناك رؤى من الشيطان .

وأيضاً لا تتبع الأرواح ، فقد أضلت كثيرين ...

والكتاب يقول « لا تصدقوا كل روح بل إمتحنوا الأرواح هل هي من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم » (١ يو ٤ : ١) . هؤلاء مرسلون من الشيطان ، وكذلك المسحاء الكذبة ، والمسيح الدجال في آخر الزمان ، ضد المسيح الذي قال عنه الرسول « ... مجيئه بعمل الشيطان ، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة ، وبكل خديعة الإثم في الهالكين » (٢ تس ٢ : ٩) .

كذلك مثير أفكار الشيطان وحيله ...

فقد يحارب بالفكر ، وليس فقط بالرؤى والأحلام والأرواح . أما أنت فلا تصدقه ، كما يقول الرسول « لئلا يطمع فينا الشيطان ، لأننا لا نجعل أفكاره » (٢ كو ٢ : ١١) . لذلك لا تتبع كل فكر يأتي إليك ، ظاناً أنه من روح الله ! ولا تقل في جرأة « الروح قال لي » . واصبر على الأفكار ، لتعرف هل هي من الله أم لا . واستشر .

إن القديس مقاريوس الكبير جاءه فكر أن يزور الآباء السواح في البرية الجوانية ، وهو فكر مقدس كما يبدو . ولكن القديس مقاريوس قال في ذلك « فبقيت مقاتلاً هذا الفكر ثلاث سنوات لأرى هل هذا الفكر من الله أم لا » ... إذن لا تسرع وراء الأفكار لتنفذها ...

إن الشيطان قدم للمسيح ثلاثة أفكار ...

ولكنه رفضها جميعاً ، ولم يقبل شيئاً منها ، ورده عليها . فارفض أنت أيضاً كل فكر يأتيك من الشيطان . وتذكر ما قيل على لسانك في المعمودية « أجحدك أيها الشيطان ، وكل أفكارك الردية ... وكل جنودك ... وكل بقية نفاقك » .

أرفض كل فكر لا ينميك روحياً ولا يبنيك ، سواء جاءك من الشيطان أو من الناس .

وكما تهرب من عثرات الشيطان ، إهرب من عثرات الناس .
وعثرات الناس منها نوع عام قد يشمل المجتمع كله . ومنها نوع خاص بك أنت بالذات من جهة الأشخاص الذين تختلط بهم ، سواء كانت عثرتهم لك ولغيرك ، أو لك وحده . سواء كانوا أعداء أو أصدقاء .

فالعثرة قد تأتي من أعز الأقرباء والأحباء .
وغالبية الشبان الذين يفسدون ، إنما يأتيهم الفساد من أصدقائهم الأعراء جداً الذين لهم تأثير عليهم . وشمشون أنه العثرة من دليلة ، وكانت أحب إنسان إلى قلبه . كما أن آخاب الملك أنه العثرة من زوجته إيزابل . ولا ننسى أن أبانا آدم أنه العثرة من حواء . وما أكثر الأطفال في البيوت الذين تأتيهم العثرة من والدهم إن كان البيت غير متدين- فيسمعون في البيت الشتائم وكلام الشجار . ويأخذون عن والديهم كل الطبايع والعادات الخاطئة .

ويعقوب أبو الآباء أنه العثرة من أمه رقيقة .
هي التي أوعزت إليه أن يتنكر في زي أخيه عيسو ، ويخدع أباه إسحق ، ويأخذ البركة منه . وهي التي وضعت الخطئة كلها ودبرت كل شيء . ولما خاف يعقوب من هذه الخديعة وإمكانية إنكشافها قائلاً « فأجلب على نفسي لعنة لا بركة » . قالت له أمه « لعنتك على يا إبنى . إسمع لقولي فقط ... » (تك ٢٧ : ٨-١٣) .
وما أسهل أن تأتي العثرة لأبنة من أمها . الأم التي تتلف حياة إبنتها بعد زواجها ، وتعمل على خراب بيتها ، بالتدخل وفرض رأيها عليها وعلى زوجها .

السيد المسيح جاءته عثرة من تلميذه بطرس ، فوبخه .
والمقصود بهذه العثرة نصيحة خاطئة . إذ فيما كان السيد يشرح لتلاميذه إنه ينبغي له أن يذهب إلى اورشليم « ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكهنة ، ويقتل وفي اليوم الثالث يقوم » ... لم يعجبه بطرس أن معلمه العظيم يسلم نفسه ... « فأخذه بطرس إليه ... وقال له في محبة خاطئة « حاشاك يارب . لا يكون لك هذا » . فالتفت الرب إليه وقال « إذهب عني يا شيطان . أنت معثرة لي ... »

(متى ١٦ : ٢١ - ٢٣) . وهكذا رفض المسيح هذه العثرة من تلميذه وصديقه ...

ينبغي أن ترفض العثرات التي تأتيك من أحبائك .

حتى لو كانت تلك العثرة من أقرب أقربائك . فقد قال السيد المسيح «... أعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أمّاً أكثر منى فلا يستحقني . ومن أحب إبناً أو إبنة أكثر منى ، فلا يستحقني » (متى ١٠ : ٣٦ ، ٣٧) . إن الحب هو أولاً لله ، ومن محبته تنبع كل محبة . والطاعة هي أولاً لله ، ومن طاعته تنبع كل طاعة . حتى طاعة الآباء قال عنها الكتاب « أيها الأولاد أطيعوا والديكم في الرب فإن هذا حق » (أف ٦ : ١) . هي إذن طاعة لازمة ، ولكن « في الرب » .

ولذلك يونانان لم يقطع والده شاول في اضطهاده لداود .

بل وبخه على ذلك بقوله « لماذا تخطيء إلى دم برى بقتل داود بلا سبب » (١ صم ١٩ : ٥) . كان شاول الملك عشرة لابنه يونانان . ولكن يونانان انتصر على هذه العثرة . وكذلك سليمان الملك مع احترامه الشديد لوالدته بششيم ، لم يقطعها في وساطتها لأدونيا أخيه » (١ مل ٢ : ١٩ - ٢٣) .

من حدود الطاعة ، أنه لا تكون فيها عثرة .

من عثرتك مع الناس ، ومن خبراتك في الحياة ، أصبحت تدرك تماماً من أين تأتيك العثرة وبسبب من ، فاستفد من هذه الخبرة في أن تحيط نفسك بمجوتق على قدر إمكانك . والذين لا تستطيع أن تبعد عنهم جسدياً ، إبعاد عنهم من جهة الفكر ومنهج الحياة . وكما قال الكتاب « لا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المشمرة ، بل بالحرى بكتوبها » (أف ٥ : ١١) . فإن لم تستطع أن تبكتها ، فعلى الأقل لا تسر في تيارها ، ولا تخضع للعثرة .

واحرص أنت نفسك ألا تكون عثرة لغيرك .

حتى لا تقع في مسؤولية أمام ضميرك وأمام الله ، وربما أمام الناس ، إنك تسببت في سقوط أحد ...

٥ مسئولية العثرة :

شاب أعر من فتاة ، وقع في الشهوة . فما مسئوليتها .
الإجابة هى : إن كانت هذه الفتاة فى كامل أديها ، وهى جميلة بطبيعتها ،
وجالها كان السبب فى عثرة هذا الشاب ، فلا لوم عليها إطلاقاً ، ولا مسئولية عليها
فى العثرة .

فهناك قديسات ، بسبب جمالهن ، أعر البعض .
ولعله من أبرز الأمثلة على ذلك ، القديسة يوستجة التى كانت جميلة جداً . وقد
وقع إنسان فى محبتها ، ولم يستطع أن يستحوذ عليها ، فاستخدم السحر فى الوصول إلى
ذلك . وكان مجرد ذكر إسمها يطرد الشياطين المستخدمة فى السحر ، حتى آمن
الساحر كبريانوس بسبب ذلك ، وصار من قديسى الكنيسة... أنستطيع أن نقول إن
القديسة يوستينة عليها مسئولية فى العثرة ؟!
كلا بلا شك ، وإنما هنا :

المسئولية كاملة على من اشتهاها . والعثرة بسبب شهوته .

وبنفس الوضع يمكننا أن نتكلم عن القديسة سارة زوجة أبينا إبراهيم . كانت
جميلة جداً . وكان جالها يجذب الملوك ، حتى أخذها فرعون إلى قصره مرة (تك ١٢ :
١٤ ، ١٥) . وأخذها أبيمالك ملك جرار مرة أخرى (تك ٢٠ : ٢) . ولم يكن لها
ذنب فى المرتين كليهما . لا ذنب لها طبعاً فى إنها جميلة . إنما الذنب كله على من
يشتهى ...

إذن متى تكون المرأة مسئولة فى العثرة ؟

تكون كذلك إن قصدت أن تغرى الرجل وتجذب إليه بطريقة فيها لون من
الإشارة . أو إن سقط الرجل بسبب سلوكها ، أو بسبب حديثها أو بسبب إغرائها .
أو إن كانت فى زينتها أو فى ملابسها سبب عثرة فعلاً بالنسبة إلى الإنسان العادى .
وكذلك تكون الفتاة مسئولة إن عملت على إغراء الشاب ، إما بلباء قلبه
بشبهوات تجعله يرتكب الخطية بالحواس أو بالعمل . أو أن تعثره بطريقة تشغل
فكره ، فيهمل مسئولياته ويضيع روحياته .

أما إن كان كل السبب في عثرة الفتاة هو جمالها الطبيعي ، فلا ذنب عليها .
نقول هذا حتى لا تتشكك بعض الفتيات الطاهرات ، ويقعن في الوسوسة وفي عقدة
الذنب بسبب جمالهن .

وما يقال على المرأة في ذلك ، يمكن أن يقال على الرجل .
والأفأ ذنب كل هؤلاء ؟

ما ذنب يوسف الصديق في أن امرأة فوطيفار وقعت في الشهوة بسببه ، لأنه كان
جسداً ؟ هل نستطيع أن نقول إنه أعثرها ؟! أو أن ضميره يتعبه إذ وقعت في الشهوة
بسببه ؟ كلا ، بلا شك .

وبنفس المنطق ، ما ذنب الملاكين اللذين وقع أهل سدوم في شهوة الجسد
بسببها ، وهما كملاكين ما كان لهما جسد ، بالإضافة إلى أن لهما طهر الملائكة ... !
إنما العثرة هنا ، في القلب الفاسد الذي اشتهى .

ونفس الكلام يمكن أن يقال عن زكريا الراهب الشاب الصغير الذي حدثت
عشرته بسبب جمال صورته . وقد رويت قصته في بستان الرهبان . واضطر أن ينزل
إلى بحيرة الملح ويشوه جسمه وشكله ، ليبعد العثرة التي تسببت من أخطاء غيره ...

أما الذين يريدون أن يهربوا من مسؤولية أخطائهم .
وذلك بأن يلصقوها ظلماً بغيرهم ، قائلين إنه قد أعثرهم على البراءة ،
فهؤلاء ينطبق عليهم قول الشاعر :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ما أجل كلام السيد الرب عن العين البسيطة ...
لقد قال « إن كانت عينك بسيطة ، فجسدك كله يكون نيراً . وإن كانت
عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلماً » (متى ٥ : ٢٢ ، ٢٣) . وكثيرون
يعثرون ، لأن عيونهم ليست بسيطة ... عيونهم فيها الخطية ، لذلك كل شيء يمكن أن
يثير الخطية فيهم .

فليت كل أحد يدرب نفسه على هذه العين البسيطة .

وكما تكلمنا عن مدى مسؤولية الفتاة في إغثار الشاب ، نقول :

هناك مسؤولية أيضاً على الشاب في إعتار الفتاة .

فقد يعثرها الشاب بكثرة المديح والكلام الممول ، وبالود الذى يظهره لها في تالط زائد غير عادى . أو يعثرها بكثرة إلحاحه عليها ، ومطاردتها بشدة حتى تضعف وتُحرج وتستجيب له . كما يعثرها بالوعود التى يعطيها لها ، والتى يؤكد لها مراراً ، فتصدقها ... وهكذا يعلقها ويتعبها ... ولكنها إن أعثرت من مجرد شخصيته ، فلا ذنب له فى ذلك .

أما أنت فابعد عن المعثرات من كلا النوعين :

أ - إبعد عن العثرة المثيرة فعلاً ، التى يوجد فيها نوع من الإغواء أو الإغراء ، والتى على صاحبها مسؤولية فى إسقاط الآخرين . وحاول على قدر إمكانك أن تكون عينك بسيطة .

ب - وابتعد أيضاً حتى عن المبالاة البريئة بطبيعتها ، ولكنها تسبب لك عثرة بسبب ضعفك أنت . وقل لنفسك فى اتضاع : أنا لا أريد هنا أن أبحث عن المسؤولية أين أضعها ، هل هى بسبب غيرى أم بسببى ... وإنما :
سأبعد حتى لا أسقط ، ولو بسبب ضعفى ...
حتى لو كان غيرى بريئاً تمام البراءة ، كبراءة الذنب من دم ابن يعقوب ! أو كبراءة ابن يعقوب من خطية امرأة فوطيفار...

ونفس الكلام نقوله عن باقى أنواع العثرات .

ونقصد العثرات الأخرى ، خارج نطاق الأمور الجنسية .
كأن يفهمك إنسان بطريقة خاطئة ، بينما يكون كلامك واضحاً جداً ، ولا يعنى إطلاقاً ما قد فهمه ... ! أو أن يقول لك أحدهم « أنت تقصدنى بهذا الكلام » ، بينما تكون بريئاً جداً ، ولا تقصده ، إنما هو ظنونه وشكوكه وشعوره الداخلى بالخطأ ... ونقول إنه فى كل ذلك :

ليست العثرة من المتكلم ، إنما هى مسؤولية الفهم الخاطيء .

ومع ذلك عليك من أجل المحبة ، أن توضح قصدك السليم ، وتشرح ما التبس على غيرك فهمه . وأن تحترس فى كلامك حتى لا يفهم خطأ . ومع ذلك إبعد عن العثرات . وكن حريصاً جداً فى الكلام وفى التصرف ، ونخصوصاً حيثما يوجد بعض

الموسمين الذين يفهمون الكلام بطريقتهم الخاصة...

هناك نوع من الناس ، يقول الواحد منهم باستمرار :

أنا تعقدت من تصرفات الناس ! أنا تعقدت من كلامهم !

ويقصد أنه قد أعثر منهم ومن كلامهم ... وسواء كان هذا الكلام صحيحاً أو مبالغاً فيه . سواء كانت هناك عقد داخلية ، أو التعقيد في تصرفات الناس . فالسيد المسيح قد قال لنا « لا بد أن تأتى العثرات » (متى ١٨ : ٧) . ذلك لأننا لا نعيش في عالم مثالي ، وإنما في عالم مملوء بالعثرات . فيه الحنطة ، وفيه أيضاً الزوان . وسيتبقى الزوان مع الحنطة إلى يوم الحصاد (متى ١٣ : ٣٠) . فها هو موقفنا إذن ؟ الموقف السليم هو أن :

لا نبحث على من تقع مسئولية العثرة ، إنما نبحث عن الخلاص منها .

والخلاص منها ، هو في الهروب من العثرات ، وليس في فحص المسئولية فيها . فما أسهل أن يوقعنا هذا الفحص في أخطاء أخرى . ولكن لا يجوز أن نقول إننا تعقدنا من عثرات الناس .

فلا يصح أن تفقدنا العثرات نقاوتنا الداخلية .

ولا يصح أن تفقدنا العثرات سلامنا القلبي . نحن لسنا في السماء ، ولكننا على الأرض . والأرض لا بد توجد فيها أخطاء . والمهم هو أننا ننجو من هذه الأخطاء . ولا ننجو منها بالتذمر والشكوى . ولا ننجو منها إن كنا نتعقد منها . إنما ننجو من العثرات ، بنقاوة القلب ، وبعدم الإستجابة لها . وفي نفس الوقت لا نعثر أحداً .

وإن كنا أقوىاء من الداخل ، لا تضرنا العثرات بشيء .

بل نكون كالبيت المبني على الصخر ، الذى صادمته الأمطار والعواصف ، فلم تؤذ به بشيء (متى ٧ : ٢٥) .

إن المسئولية ليست كاملة في كل الحالات على الذى تأتى منه العثرة .

فهناك التجاوب من الطرف الآخر ، ولولاه ما تمت السقطة .

قد يقول الكحول (السبرتو) إن عود الكبريت أعثرني فاحترقت . ولكني أقول :

لولا أن السبرتو مادة قابلة للإشتعال ، ما كان يعثره عود الكبريت .

هكذا عود الكبريت قائم كما هو، وكوب الماء لا يعثر منه، بل إنه إذا اقترب من كوب الماء ينطفئ.

وعلى كيلي، سواء كنت ماء أو كحولاً، فاهرب بالنسبة إليك أضمن. المهرب على الأقل فيه انتفاع، والانتفاع يخلص كثيرين. فقد أبصر القديس الأنبا أنطونيوس فخاخ الشيطان منصوبة، فصرخ «يارب، من يفلت منها؟» فأثابه الصوت «المتضوعون يفلتون منها».

العشرة خطوة أولى. إن وقعت فيها، فلا تكلل باقي الخطوات.

ووجود العشرة ليس عذراً لك، ولا تبريراً لأخطائك.

لأن الله وضع فيك روحه القدوس، ومنحك قوة للمقاومة. فإن استجبت للعشرة، تكون قد خسرت هذه القوة الإلهية ولم تستخدمها. إن الانتصار ممكن أمامك. تذكر يوسف الصديق الذي كان أقوى من العشرة وانتصر، على الرغم من شدة الحرب التي تعرض لها.

العشرة مجرد عرض. فإن لم يصادف قبولاً، إنتهى أمره.

٥ أنواع العثرات :

يركز كثيرون الكلام في العشرة على الأمور الجنسية.

وهي حقاً هامة وخطيرة، ولكنها ليست كل شيء.

والعثرات في هذا المجال تأتي بطرق كثيرة من وسائل الإثارة الجنسية، سواء عن طريق الإغراء الذي يقوم به الأفراد، أو عن طريق وسائل اللهو المختلفة ووسائل الترفيه، بالصورة المعثرة، والأغاني العابثة، والفكاهات الجنسية، أو عن طريق القصص البطالة التي تسمع وتقرأ، وكذلك الروايات والأفلام. وقد تأتي العشرة عن طريق الخلطة، والمعاشرات الردية. وقد تأتي من داخل النفس...

أما أنت فابعد عن كل العثرات، واضبط حواسك.

واعلم أن «الحواس هي أبواب للفكر» كما قال مار اسحق. وما تراه وما تسمعه قد يجلب لك أفكاراً خاطئة، ويكون معترّاً لك. والفكر قد يلد شهوة. والشهوة تقود إلى خطية فعلية.

ولكن لعلك تسأل : ماذا أفعل ؟ هل أغمض عيني ، والعثرة في كل مكان ؟
ولا بد أنني سأرى وسأسمع ... فأقول لك إنك لست مسئولاً عن النظرة الأولى ،
مادامت قد أتت عرضاً .

ولكنك مسئول عن النظرة الثانية ودوافعها .

إن كان المنظر المعثر رأيته قد أثارك أو أعجبك ، فأعدت النظر إليه بإرادتك ،
سواء في صورة حية ، أو صورة مطبوعة ، فأنت هنا تكون قد أخطأت لأنك بإرادتك
الحررة قد نظرت . فإن كانت النظرة الأولى كذلك ، برغبتك وإرادتك ، فأنت مسئول
عنها أيضاً ...

ونفس الوضع نقوله عن السماعات الخاطئة . إهرب منها . فإذا إن لم تستطع ؟
إن اضطررت لسماعها ، فلا تعطها عمقك ، ولا فكرك .
ليكن سماعاً عابراً ، لا تدخله إلى أعماقك ، ولا تفكر فيه ، ولا تعيده إلى
ذهنك ، ولا تعلق عليه . وكما قال الشاعر :

إذا بليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

وبقدر إمكانك إهرب من اللقاءات المعثرة .

فإن اضطررت إلى هذا ، إجعلها قصيرة المدى على قدر استطاعتك . كذلك لا
تسفر مع شخص يقاقلك به العدو ، وتضعف من الداخل في وجودك معه . وحاول
في أمثال هذه اللقاءات ، أن ترفع قلبك إلى الله وتصل . ولا تكن في اللقاء بكل
قلبك وعواطفك ...

هذه كلمة مختصرة عن العثرات الجنسية ، وهي موضوع طويل وُضعت فيه
كتب ، وليس الآن مجاله . إنما نحب أن نقول هنا ، إن العثرات ليست جميعها
جنسية .

فهناك عثرات الفكر مثلاً ، وهي على أنواع :

منها الفلاسفات الخاطئة التي قد تقرأها فتشوش أفكارك ، وقد تجلب لك
شكوكاً ، إذا كنت تقرأ وأنت غير مستعد لها مسبقاً بفكر أصيل سليم . ويلزمك
الحرص فيما تقرأ .

وتوجد الكتابات الإلحادية ، والتي تهاجم الدين .
والملحدون كثيرون . وكل ما يكتبونه توجد ردود عليه ، ولكنهم يشكلون عشرة
بالنسبة إلى غير الدارسين وغير العارفين ، تسبب لهم شكوكاً هي أخطر عليهم من
خطايا الجسد التي يسهل التخلص منها .

والمضلون في الفكر الديني كثيرون ومعترون .
كان يربعام بن نباط عشرة لإسرائيل إذ جعله يخطيء ، وينحرف عن عبادة الله
(١ مل ١٤ : ١٦) . وقد كان من مضلي الشعب قبيل مجيء المسيح : يهوذا الجليلي
في أيام الإكتتاب الذي أزاغ وراءه جمعاً غفيراً ... وثوداس الذي التصق به حوالى
أربعمائة (أع ٥ : ٣٦ ، ٣٧) . كذلك في أيام المسيح كان الكتبة والفريسيون
والصدوقيون وأمثالهم مضللين للشعب . وكانوا عشرة كبيرة . أمسكوا مفاتيح المعرفة ،
فما دخلوا وما جعلوا الداخلين يدخلون . لقد أعثروا الشعب كله بتعاليمهم .

ومن العثرات الفكرية ، الأفكار العقيدية المنحرفة .
الأفكار التي تشمل بدعة أو هرطقة ، أو فكراً لاهوتياً غير المسلم لنا من الآباء
القديسين ، ولا يتفق مع العقيدة السائدة في الكنيسة والتي يؤمن بها الكل . وهذا
الفكر قد يعثر الناس ، ويثير فيهم شكوكاً .
فلا تقبل هذه الأفكار كما قال الآباء الرسل (غل ١ : ٧ ، ٨ ، ٣ يو
١٠ ، ١١) .

إهرب من هذه العثرات الفكرية ، فأنت في زمان التوبة .
أنت إنسان تبحث عن خلاص نفسك . فما شأنك بهذه الأفكار التي تشوش على
ذهنك ، وتدخلك في مجالات من الجدل وربما في خصومات ، لا تتفق مع سعيك إلى
نقاوة القلب بالتوبة . أتركها إلى المتخصصين يردون عليها . واعكف أنت على
الكتب الروحية التي كلما قرأها ، تزداد محبتك لله ، وتشعر باقتراب قلبك إليه ...
وكما تهرب من العثرات الفكرية العقيدية ، إهرب من كل عثرات فكرية
أخرى مثل :

عثرات الفكر التي تجعلك تعثر في الناس وتدينهم .
فهناك أشخاص إذا أتعبتهم أفكار الإدانة أو أخبار الإدانة ، يصوبونها جميعها في

آذان الآخرين ، ولا يبالون إن كانت تعثرهم هذه الأخبار أم لا ، ولا يبالون بما تدخله في قلوبهم من جهة الشك في الناس ، أو إدانتهم والإقلال من شأنهم ، أو عدم المحبة لهم ... أما أنت فاهرب من كل هذه ، وحاول أن تحتفظ بمحبتك لكل ... والذين يشوهون صور الناس في نظرك ، إبعد عنهم ، لتحفظ بنقاوة فكرك .

وهناك عثرات من الذين يحكون أسرارهم للناس .

هم لا يستطيعون أن يحفظوا سراً ، حتى أسرارهم الخاصة وخطاياهم يحكونها للناس . وقد يعثر السامع من سماع هذه الأسرار والأخبار . ويعثر من أساء الناس الذين تتعلق بها تلك الحكايات ، وربما يقع في خطايا بسببها ... ومع أن الكنيسة حرصت أن تجعل الاعتراف سراً ، إلا أن الناس مازالوا يحكون لغيرهم ... وتكون حكاياتهم عشرة ...

ومن العثرات الفكرية أيضاً ، المشورات الخاطئة والمضرة .

وكمثال لذلك « مشورة أختيوفل » . وكان أختيوفل هو مشير داود ، تركه وانضم إلى فتنة أبشالوم ، ليقدّم له مشورة يهلك بها داود مسيح الرب وكل من هم معه . وكان داود يصلي قائلاً « حتمّ يارب مشورة أختيوفل » (٢ صم ١٥ : ٣١) . ولا شك أن مشورة أختيوفل كانت عشرة لأبشالوم ، وتشجيعاً له في الثورة على أبيه داود ... ولكن الرب سمع لصلاة داود وأبطل مشورة أختيوفل ...

ومن أمثال مشورة أختيوفل المعثرة مشورة بلعام لبالاق (عدد ٢٢) .

وقد أطلق عليها الكتاب إسم « ضلالة بلعام » (يه ١١) . وقال عنه سفر الرؤيا انه « كان يعلم باللاق أن يلقى معثرة أمام بني إسرائيل أن يأكلوا ما ذبح للأصنام ويزنوا » (رؤ ٢ : ١٤) . وذلك لكي يحل عليهم غضب الله ، فينتصر عليهم عدوه ... ولا شك أنها كانت مشورة معثرة وشريرة .

فتخبر أنت مشيريك ، وأبعد عن كل مشورة معثرة .

سواء صدرت ممن تستشيرهم ، أو ممن يتطوعون لنصحك في حياتك . وقد يقدمون لك نصائح لا ترضى الله . وربما تأخذ صورة الإشفاق عليك ، بينما لا يكون إشفاقهم روحياً ...

ومن العثرات التي يتعرض لها البعض ، القدوات السيئة .
 فلا تجعل هذا الأمر يعثرك ، مهما كان الشخص الذي أعثرت بتصرفاته كبيراً .
 ولا يغير هذا من مبادئك شيئاً ، ولا من حبك لله وكنيسته . وتذكر أنه قيل عن إيليا
 النبي العظيم «إيليا كان إنساناً تحت الآلام مثلنا» (يع ٥: ١٧) .
 ولتكن قدوتك الثابتة في السيد المسيح وسير القديسين . أما أخطاء الناس مهما
 كبروا فلا تجعلها تعثرك . فالخير هو الخير مهما بعد البعض عنه ... والكتاب المقدس
 ذكر لنا خطايا الأنبياء ، لنعلم أن الإنسان هو الإنسان بضعفاته أياً كان مركزه .

أما العثرات الخاصة في حياتك ، فافحصها واعرف أسبابها وابتعد عنها .
 لأن التوبة لا تتفق والعثرات .

إبحث عن الأسباب التي تعثرك وتقودك إلى الخطية ، ما هي ؟ وهل هي قريبة
 منك ؟ وكيف تبعد عنها ؟ وهل هي داخل نفسك أم تأتيك من آخرين .
 وابتعد عن هذه العثرات على قدر إمكانك حتى لا تؤثر عليك . واهرب من
 الأصدقاء الذين يجرونك إلى أسفل ويفقدونك روحياتك . وردد ما نقوله باستمرار في
 الصلاة الربية «لا تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير» ...



لَا تَتَسَاهَلْ مَعَ الْخَطِيئَةِ

كثيراً ما يسقط الإنسان في الخطيئة ، بسبب التساهل . فكيف ذلك ؟

المعروف أن الخطيئة تبدأ بحرب من الخارج ، وتريد أن تدخل وتسيطر .

وبالتساهل تتحول الحرب من الخارج إلى داخل القلب .

فكيف يحدث هذا التطور ؟ وما دور التساهل فيه ؟

تكون الخطيئة في الخارج : منظراً مثيراً ، أو صورة في كتاب ، أو كلمة يقولها شخص ما ، أو أى شيء يمكن اشتاؤه أو اقتناؤه . ثم يتساهل الإنسان مع حواسه ، مع سمعه أو بصره ، فيأتيه الفكر ضعيفاً في البدء ، ويمكن طرده بسهولة . ولكن :

بالتساهل مع الفكر ، ينزل إلى القلب ، ويتحول إلى شعور .

فإن استيقظ الإنسان إلى نفسه ، يمكنه التخلص من هذا الشعور ، موقناً تماماً أن هذا الشعور الخاطيء يبعده عن محبة الله ، ويقوده إلى خطيئة . بل هذا الشعور الخاطيء هو خطيئة في حد ذاته ، وعدم نقاوة في الداخل ، وينجس القلب .

ولكن بالتساهل مع الشعور ، يتحول إلى إنفعال أو شهوة .

وهنا يكون الإنسان قد بدأ يخضع للفكر ، وبدأ يدخل في صراع داخلي ، بين شهوته وضميره . ومن طبيعة الشهوة إنها تريد أن تسيطر . إن طردت بحزم ، أمكن التخلص منها . ولكن بالتساهل تبدأ الشهوة أن تنتشر ، أو يبدأ الإنفعال أن ينتشر . حتى تشمل هذه الحرب الداخلية فكر الإنسان وقلبه وحواسه ، وربما جسده أيضاً .

وبالتساهل مع الشهوة ، تحاول أن تعبر عن ذاتها عملياً .

أى تحاول أن تشبع ذاتها بطريقة عملية . فإن تساهل في ذلك ، يتم العمل . وتصيح الخطيئة خطيئة كاملة . ثم لا تستريح الخطيئة بهذا ، إذا تريد أن تتكرر . فإما أن يتوب الإنسان بعد سقطته ، وإما أن تتكرر خطيئته . ولكنه أحياناً :

عن محاضرة القيت في الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة ٢٨/١٠/١٩٧٧ .

يتساهل في عمل الخطيئة ، فتتحول إلى عادة أو طبع .
وهذا يخضع لسيطرتها ، ويصير عبداً لها ، يفعلها بغير إرادته أحياناً ، ولا يملك
السيطرة على نفسه ... كمن يقع في الغضب تلقائياً ، ويثور دون أن يتحكم في
نفسه . وكمن يخطئ في الكلام دون أن يتحكم في نفسه . وكمن يزن ، أو يجمع
المال ، أو يستهزئ بغيره ... كل ذلك تلقائياً ، دون أن يراجع نفسه ، ويتحكم فيما
تفعل ...

أما الأبرار ، فهم في منتهى الحزم ، لا يتساهلون مع أنفسهم .
لهم رقابة شديدة جداً على أنفسهم : رقابة على كل فكر ، على كل شعور .
رقابة شديدة على حواسهم ، في حزم . ورقابة على كل كلمة تخرج من أفواههم ،
وعلى كل تصرف ...

قلوبهم «جنة مغلقة ، عين مقفلة ، ينبوع مختوم» (نش ٤ : ١٢) . ولقلوبهم
وأفكارهم وحواسهم أبواب حصينة ، عليها حراسة مشددة ، لا يستطيع أن يفلت منها
أحد ، فرقابة الضمير ساهرة في حرص ، والنعمة تحفظها .
هذا الإنسان البار المحصن ، الساهر على خلاص نفسه ، يغني لها ويغني لحفظ
الرب له ، ويقول «سبحي الرب يا أورشليم ...

لأنه قوى مغاليق أبوابك ، وبارك بنيك فيك ،
وجعل تخومك في سلام» (مز ١٤٧) .

فهل أنت هكذا ؟ أم أنت متساهل في حراستك لنفسك ؟ غير مدقق في غلق
أبوابها ، بل تفتحها بين الحين والحين ، ظاناً أن العدو لا يقدر على هدم حصونك ... ؟

لا تتساهل إذن مع الخطيئة ، إعتماًداً على قوتك .
ثقة منك أن الشيطان لا يقدر عليك ، على الأقل في هذه النقطة بالذات . إنما
خذ درساً من سقطات القديسين والأنبياء . واعلم أن الخطيئة «طرحت كثيرين
جرحى ، وكل قتلها أقوياء» (أم ٧ : ٢٦) . فالذي لا يحترس ، ولا يبعد عن
العشرات ، ولا يهرب لحياته ، ولا يطلب معونة الله ليلاً ونهاراً ، يمكن أن يسقط كما
سقط من قبله أقوياء ...

واعلم أنك إن تساهلت مع الخطيئة ، يمكن أن تجرّك - دون أن تشعر - خطوة
خطوة في السقوط ، وإلى الهلاك .

تأمل أية نتائج خطيئة تحدث لك ، كلما تساهلت مع الخطيئة .
كلما تساهل مع الخطيئة ، يقل احتراسك ، وتضعف إرادتك ، وتقل محبتك لله .
وتتغير في الداخل وفي الخارج .

إنك تكون في ملء قوتك - حينما تبدأ الحرب الروحية- وفي ملء عمل النعمة معك . ولكنك كلما تساهل مع الخطيئة تضعف قوتك ، وتقل مقاومتك ، ويزداد تأثير الخطيئة عليك ، وتزداد سيطرتها على تفكيرك وشعورك وإرادتك . إذ يكون فكر الخطيئة قد ثبت أقدامه داخلك . وحينما تحاول أن تخرج من نطاقه ومن مجاله ، تجد عقبات ، وتدخل في صراع ... وقد كنت تقوى عليه في بادئ الأمر...

بتساهلك تهدد عدواً في داخلك بقاومك ويضغط عليك .
وباستمرار التساهل ، تجد قوتك قد فرغت ، واستسلمت . كقطعة من الحديد ، وجدت نفسها في مجال من المغناطيس وتريد أن تخرج منه ولا تعرف . وأحياناً لا تريد ، بل تجد نفسها بكل ما فيها منجذبة إليه ...

في تساهلك مع الخطيئة ، تحزن الروح الساكن فيك .
وتطفئ حرارة الروح في داخلك (١ تس : ٥ : ١٩ ، أف : ٤ : ٣٠) . وتتنازل عن النعمة المعطاة لك . وتكون بهذا التساهل مع الخطيئة ، قد رفضت سلاحك الروحي ، وخنت الرب ، وفتحت الباب لأعدائه ومقاوميه . خنت عشرة الله ، ودخلت في عشرة الخطيئة ، ولوعت إهمال وتراخ .
صلابتك بدأت تهتز من الداخل . فالأقوياء لا يتساهلون...

تساهلك مع الخطيئة ، معناه أن مثالياتك بدأت تهتز .
بدأت تتنازل عن المستوى اللائق بك كصورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦) .
ورضيت لنفسك أن تتفاهم مع الشيطان ، وتسمح له بمكان داخلك . وراك الشيطان أنك من النوع الذى يمكن أن يخضع له ويستجيب ، وليس من النوع الصلب الذى يقاوم بشدة ، ويرفض كل اقتراحاته أياً كانت .

لقد كان الشيطان يختبرك ويحس نبضك ، ليعرف نوعيتك .
هل أنت سهل أم صعب ؟ هل ترفض كل ما يعرضه بحزم وبدون نقاش ؟ أم تقبل ؟ أم تتفاوض ؟ أم تتساهل معه وتقابله في منتصف الطريق . لذلك هو يعرض

عليك أفكاره وحيله . فإن تساهلت ، يعرض أيضاً ... فإن تساهلت أمامه وتراخيت ، حينئذ يعرف معدتك ، ويعاملك على أساس هذه الخبرة .

وتسقط هيبتك أمام الشياطين ، بسبب تساهلك معهم .

هناك قديسون تخافهم الشياطين وتهاجم . مثل ذلك القديس الذى أتاه شيطان ليحاربه ، فربطه خارج القلاية ، وجاء ثاثة وثالث فربطهم أيضاً خارجها . وظلوا يصرخون ، فقال لهم «إمضوا واخزوا» ... ومثل القديس الأنبا إيسيدوروس قس القلاية ، الذى قال له الشياطين «أما يكفيك أننا لا نستطيع أن نمر على قلايتك ، ولا على القلاية التى إلى جوارها . وأخ واحد لنا فى البرية ، جعلته يعتدى علينا الليل والنهار بصلواته ...؟!» .

والقديس مقاريوس الكبير ، الذى كانت تخافه الشياطين قائلة «ويلاه منك يا مقاره ...» هذا لما نفى إلى جزيرة فيلا من الأريوسيين ، صاحت الشياطين صارخة لمادخل إلى الجزيرة ...

الشیطان يخاف أولاد الله الحقيقيين ، الذين يهزمونه .

أما إن رآك أنت تقبل أفكاره ، وتتساهل معه ، وتفتح له أبوابك ، وتحنون الرب بسببه ، حينئذ تسقط هيبتك فى عينيه ، ولا يرى أنك صورة الله التى يخافها ، ولا هيكل الروح القدس الذى يرتعب منه ... حينئذ يلعب بك الشياطين ، ويسلمك كل واحد منهم للآخر لكى يلهو بك ... ككرة قد نزلت إلى الملعب ، واللاعبون يمررونها بينهم ... كل واحد منهم يقذفها إلى اتجاه ... ! إحترس إذن لنفسك ، ولا تكن كرة تنزل إلى الملعب .

فالذى يتساهل مرة ، يعود التساهل ويتمادى فيه .

قد تساهل سليمان مع نفسه فى كسر وصية الله التى تمنع الزواج بأجنبيات ، فتزوج إبنة فرعون (١ مل ٩ : ١٦) . ثم سهل عليه الأمر فتمادى فيه «وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل : لا تدخلون إليهم ، ولا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبهم وراء آلهتهم» (١ مل ١١ : ١ ، ٢) .

ولما رأى الشيطان تساهل سليمان ، دفعه إلى أخطر .

فكما تساهل مع نفسه ، وكسر الوصية في الزواج بهن ، ازداد تساهله ، فبنى مرتفعات لهؤلاء النسوة لعبادة إلهتهن . وقاده تساهله إلى أنه بنى مرتفعة لكوش إله الموابيين ، وأخرى لمولك إله العمونيين . ومال قلبه وراء آلهة أخرى (١ مل ١١ : ٩-١) .

ربما كان الشيطان يخاف سليمان أول الأمر ، لأنه كان أحكم أهل الأرض . فلما رآه يتساهل مع الخطيئة ، دفعه في هذا التساهل إلى أبعد حد يمكن تصوره ... !

وكذلك فعل معه من جهة التساهل في محبة النساء .

سمح سليمان لنفسه بالتساهل في تعدد الزوجات ، فلم يوقفه الشيطان عند حد معقول ، إنما جعل التساهل يتمادى معه ، إلى أن صارت له « سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السراري » (١ مل ١١ : ٣) .

إن كان التساهل يمكن أن يجر إنساناً حكيماً إلى هذا المستوى ، فإذا يمكن أن يقال إذن عن الناس العاديين ؟ !

لذلك لا تتساهل مطلقاً ، مهما بدت الخطيئة بسيطة .

مجرد قولك إنها خطيئة بسيطة ، يقودك إلى التساهل .

لا تقل هذا شيء بسيط ، وهذا أمر تافه لا يزعج الضمير ، وهذه ليست بخطيئة . وهذا التصرف لا يعثرني ، ولن يترك أثراً قتي . فكثيرون سقطوا لعدم التدقيق . والذي لا يحترس من الصغائر ، يمكن أن يقع في الكبائر . وكل خطيئة هي تمرد على الله وانفصال عنه ، ودنس وسقوط وضعف .

ولا تظن أن الخطيئة التي تهلك الإنسان هي مجرد الوقوع في كبائر ، كالزنا والتجديف والقتل والسرقة ... فقد قال الرب :

من قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم (متى ٥ : ٢٢) .

« ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب الجمع » ... كثيرون يتساهلون في الكلام بينما الكتاب يعتبر الكلام الخاطيء نجاسة . ويقول « ما يخرج من الفم ينجس الإنسان » (متى ١٥ : ١١) . وعن الحرص من جهة اللسان ، وعدم التساهل في أخطاء الكلام ، يقول يعقوب الرسول « إن كان أحد فيكم يظن أنه دين ، وهو ليس يلجم لسانه بل يخدع قلبه ، فديانة هذا باطلة » (يع ١ : ٢٦) .

إذن لا تحترس فقط من الزنا والسرقة والقتل ، فربما كلمة واحدة تكون سبب دينونتك ، لأن الكتاب يقول « بكلامك تبهر ، وبكلامك تدان » (متى : ١٢ : ٣٧) .

« كل كلمة بطلاة يتكلم بها الناس . سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (متى : ١٢ : ٣٦) .

لم يفهم القديسون عبارة (الكلمة البطالة) على أنها الكلمة الشريرة مثل الكذب والشتيمة والتجديف والإدانة . إنما فهموا الكلمة البطالة ، على أنها كل كلمة ليست للمنفعة ، ليست للبنيان ، لا تبني نفس السامع ، ولا تبني الملكوت ... وهكذا صمتوا ، وكانوا لا يتكلمون إلا بحساب ، حينما يرون أن الكلام سيكون للبنيان .

ولا شك أن الذى لا يتساهل مطلقاً مع نفسه ، فى اللفظ بكلمة ليست للبنيان ، لا يمكن طبعاً أن يتساهل مع نفسه فى أن يلفظ بكلمة شريرة ...

والذى لا يتساهل فى كلمة ، لن يتساهل فى العمل .

والتدقيق الذى يتعده ، يشمل كل حياته وكل تصرفاته ، عالماً أن كل فعل يأتى إلى الدينونة مهما كان بسيطاً . مجرد نظرة نظرتها امرأة لوط إلى وراء ، حولتها إلى عمود ملح (تك : ١٩ : ٢٦) . وكذبة كذبتها حنانيا وسفيرا جعلتها يسقطان ميتتين للتوبلا توبة (أع : ٥ : ١ - ١٠) .

إذن لا تقسم الخطية إلى كبيرة وصغيرة ، لكى تسمح لنفسك بالتساهل مع الصغيرة . إنما كن دقيقاً فى كل شيء . واعلم أن التساهل مع الشيء الصغير يجعله يكبر . والسيد المسيح لم يمنع عن الزنا فقط ، إنما عن النظرة المشتبهة أيضاً ... ولم يطلب منا فقط أن نحتمل من يسخرنا ميلاً ، بل دعانا إلى احتمال الميل الثانى أيضاً (متى : ٥ : ٢٨ ، ٤٩) .

الذى يتساهل فى الخطوة الأولى ، يقع فى الثانية .

والذى يتساهل فى الثانية ، يقع فى الثالثة ... وهكذا إلى غير حد . والشيطان - كما قيل عنه - « فتال حبال » ، يفتل حبالاً لاصطيادنا وحباله طويلة ، لا مانع أن يدبر حيلة فى عشر سنوات ، ليسقطك فى خطية واحدة ! فاحترس منه ، ولا تتساهل معه أبداً .

والشيطان قد يلومك إذا كنت مدققاً في تصرفك ولم تساهل .

وقد يصفك الشيطان بالتطرف أو الوسوسة وتعقيد الأمور .

فلا تسمع له ، وكن ثابتاً في روحياتك ، لا تشرك هذه الإتهامات . وكن مثل القديس ببنوده الأسقف ، الذى لما رأت إحدى النساء تدقيقه الشديد ، قال : إن هذا الشيخ موسوس ! فأجابها القديس قائلاً « هل تعلمين يا امرأة كم سنة قضيتها في البرية لكى أقتنى هذا الوسواس ؟ لقد قضيت خمسين سنة لأقتنيه ، فهل أفقده من أهلك في لحظة واحدة ؟ ! » وترك الأسقفية ومضى ... إن خلاص نفسه أفضل ...

واعرف أن الخطية هى كسر لوصية الله ، وبعد عن محبته . لذلك فأنت في تساهلك :

لست تساهل مع نفسك ، إنما تساهل في حقوق الله .

لا تساهل مع نفسك في ارتكاب الخطية . وإن أخطأت :

لا تساهل في معاقبة نفسك على خطيتها .

إن التساهل في تأديب النفس على سقطاتها ، قد يؤدى إلى اللامبالاه ، وعدم الخوف ، والإستهانة بوصايا الله ، والعودة إلى ارتكاب الخطية بسهولة ، إعتتماداً على أن الله محب وغفور « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا » (مز ١٠٣) .

لا تدلل نفسك إذن ، ولا تسامحها بسهولة .

واعلم أن الخطية التى لا تنال عقوبتها كما ينبى ، والتى لا تنسحق بسببها النفس وتُذَل ، ما أسهل أن يرجع إليها الإنسان مرة أخرى ... ولا تقل إن هذه الخطية قد عملتها في الماضى ، ومرت وانتهت ، ونلت عليها حلاً ومغفرة ! كلا ، بل بكت نفسك باستمرار .

وتذكر أن داود النبي بلل فراشه بدموعه فترات طويلة ، بعد أن سمع حكم المغفرة من الله على فم ناثان ... لكنه على الرغم من هذه المغفرة ، صارت دموعه له شرباً نهاراً وليلاً . وصغرت نفسه في عينيه ، وظل يبكثها زماناً هو العمر كله ، ويقول « خطيتى أمامى في كل حين » (مز ٥٠) .

فلتكن أنت كذلك . وافرض على خطاياك عقوبات شديدة ...

وكن حاراً في الروح (رو ١٢ : ١١) . واعمل عمل الرب بكل نشاط وكل حرص ، ولا تتساهل في ذلك فقد قيل :

ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة (أر ٤٨ : ١٠) .

كن كالراعى الساهر على غنمه ، الذى يحرس حراسات الليل ، كل يقظة ، لا يتساهل مع نفسه في أن يغفو لحظة ...

كن حاراً في عبادتك . وإن وجدت نفسك متعباً ، أو لا رغبة لك في الصلاة ، فلا تتساهل مع نفسك وتنام بغير صلاة . لثلا بهذا التساهل تتعود نفسك الإهمال والتراخى . بل كما قال مار اسحق : إذا حوربت بأن تهمل صلاتك وتنام ، لا تطاوع نفسك وإنما :

اغضب نفسك على صلاة الليل ، وزدها مزامير .

كذلك كن حازماً في صومك . لأنك إن تساهلت في موعد الأكل ، ستتساهل أيضاً في نوع الطعام وكميته ، ثم تتساهل في ضبط نفسك ، ويصحبك عدم الضبط هذا في كل تفاصيل حياتك الروحية .

كن متيقظاً إذن لخلاص نفسك ، بكل حرص ، ساهراً باستمرار ، لثلا يأتي بفترة فيجدهك نائماً (مر ١٣ : ٣٦) .

لا تنم . وإن نمت ، إحترس من الصحو المتأخر .

فشمشون ظل متساهلاً في روحياته ، غافلاً عن خلاص نفسه زماناً . ومتى صحا ؟ كان ذلك صحو متأخراً ، بعد أن فقد نذره ، وفقد قوته ، وسباه الأعداء ...

ولوط كذلك . متى صحا ؟ ... متأخراً جداً بعد أن فقد كل شيء في حريق سدوم . وكثيرون سقطوا ، لأنهم تساهلوا مع الغفلة الروحية ، ولم يستيقظوا لأنفسهم إلا متأخرين ، بعد أن كانت الخطية قد تمكنت منهم . فلا تكن كهؤلاء .

وكإنسان أمين على حياته الروحية ، لا تتساهل مع الخطية .





اعد تقيم سلوكك واحترس من ثياب الحملان

الخطية لا تحب أن تكشف ذاتها ، إنما أحياناً تنتكر .
 هى لا تكشف ذاتها إلا للمستترين الذين يحبونها . أما بالنسبة إلى أولاد الله ،
 فإنها دائماً تنتكر ، حتى لا يتنبهوا لها ويعدوا عنها . ولا مانع مطلقاً من أن تنتكر في
 زى فضيلة ، أو وراء أى إسم لطيف غير مكشوف . ويمكن أن ينطبق على أمثال
 هذه الخطايا قول الرب :
 يأتونكم بثياب الحملان . ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (متى ٧ :
 ١٥) .

المضللون من المعلمين الكذبة يفعلون هكذا . والخطايا التى تفضل الإنسان
 وتستغل بساطته ، تفعل هكذا أيضاً . والشيطان نفسه يأق بثياب الحملان . وكما
 يقول الرسول :

الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور .
 وخدامه أيضاً يغيرون شكلهم إلى شبه خدام للبر (٢ كو ١٠ : ١٤ ، ١٥) ...
 يحدث هذا لكى تتم الخديعة ، فتتم السقطة . ولهذا يحتاج أولاد الله دائماً إلى حكمة
 وإفراز ، لكى يميزوا بين طريق الرب وطريق الشيطان ، ويميزوا إرادة الله من
 الإرادات الخاطئة .

فكثيراً ما يسلك البعض في طريق خاطيء نتيجة للجهل وعدم المعرفة ، ونتيجة
 لخديعة الشياطين لهم . لذلك فالأب الكاهن في القديس الإلهى يطلب من الله
 المغفرة والصفح قائلاً « عن خطاياى وجهالات شعبك » .

ولماذا نسميها جهالات ؟ لأن الكتاب يقول :
 توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت .

عن محاضرة في بداية السينات ، أقيمت في دمنهور .

ذكرت هذه الآية في سفر الأمثال (أم ١٤ : ١٢) . وتكررت لأهميتها مرة أخرى في نفس السفر بنفس النص (أم ١٦ : ٢٥) ... مادام الأمر هكذا ، ويمكن للإنسان أن يتخددع ، وكما قال الرب « هلك شعبي من عدم المعرفة » (هو ٤ : ٦) . لذلك قال الحكيم أيضاً :

على فهمك لا تعتمد (أم ٣ : ٥) .

وهكذا نرى داود النبي يصرخ كثيراً في مزاميره ويقول « علمني يارب طرقك . فهمني سبلك » (مز ١١٩) . فإن كان النبي العظيم - الذي حل عليه روح الرب - يقول هكذا ، فإذا نقول نحن ؟

ليس جميع الناس حكماء ، وليس الحكماء حكماء في كل شيء « الحكيم عيناه في رأسه ، أما الجاهل فيسلك في الظلام » (جا ٢ : ١٤) . ونحن لا ندعى الحكمة . فإذا نفعل إذن ؟

علينا بالمشورة ، حتى لا نتخذعنا ثياب الحملان .

والكتاب يقول في ذلك « طريق الجاهل مستقيم في عينيه . أما سامع المشورة فهو حكيم » (أم ١٢ : ١٥) . وليس كل شخص نسمع منه المشورة . فقد كانت مشورة بلعام ضلالة (يه ١١) . وكانت مشورة أخيتوفل ليست حسب مشيئة الله . لذلك نستطيع أن نقول إنه ليست كل مشورة هي من الله ، فقد قال الوحي الإلهي : « يا شعبي ، مرشدوك مضلون » (أش ٣ : ١٢) .

فأكثر الذين هلكوا نتيجة الإرشاد الخاطيء . وليس هذا الإرشاد المضلل ثياب الحملان ، وهلك به أصحابه . كما يقول الكتاب « أعمى يقود أعمى ، كلاهما يسقطان في حفرة » (متى ١٥ : ١٤) . وقد رأينا كيف ضاع رحبعام نتيجة سماعه للمشورة الخاطئة (مل ١ : ١٢) . وقد وبنخ الرب الكتبة والفرسيسين على إرشادهم الخاطيء ، وقال إنهم « قادة عميان » (متى ٢٣ : ١٦ ، ١٣) .

هؤلاء طبعاً غير المرشدين القديسين (عب ١٣) .

الذين يقول عنهم الكتاب « أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله . أنظروا إلى نهاية سيرتهم وتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) ، وأيضاً « لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم ، كأنهم سوف يعطون حساباً » (عب ١٣ : ١٧) . لذلك نحتاج

لإفراز شديد تميز بين الإرشاد السليم والإرشاد الخاطئ، بين روح الحكمة وروح الضلال. كما قال الرسول «إمتحنوا الأرواح هل هي من الله» (١ يوحنا ٤: ١).
والذى يتمسك بروح الله فيه، سيرشده الروح. فأشعياء النبي يقول عن روح الرب إنه «روح الحكمة والفهم، روح المشورة» (أش ١١: ٢).

فلنصل إذن أن يتقنا الرب من كل خداع الشياطين،
ومن الخطايا التى تتكرر فى زى فضائل لتضلنا.

عل أنه إن سقط أحد فى خداع الشياطين هذا، فإن الإلتضاع يرفعه من سقطته. لأنه حالما ينكشف له الأمر، أو ينبه صديق مخلص أو مرشد حكيم، يعترف حينئذ بخطئه، ولا يعود إلى ذلك الخطأ مرة أخرى. ويكتسب بذلك معرفة وتوبة. أما المتعجرف بمعرفته أو بسلوكه، فإن توبته صعبة...

وذلك لأن الإنسان البار فى عينى نفسه، يدافع عن خطيئته، ويسميا
بغير إسمها حتى لا يخجل!

لأنه إن اعترف بأن هذه خطية، يعترف بالتالى أنه مذنب. وكبير ياؤه تمنع هذا! إذن لا مانع من أن يلبسها ثياب الحملان، ويسميا باسم آخر مقبول، غير محرج له، حتى لا ينكشف أمام الناس، وحتى يخدع نفسه فلا ينكشف أيضاً أمام نفسه. إن أمكن...

والذين يفظون خطاياهم بثياب الحملان، لا يتوبون.

إذ كيف يتوبون عنها ويتركوها، وهم لا يحسبونها خطية، ولا يعترفون أنها خطية؟! بل قد يسمونها باسم فضيلة! وهذه التسمية يدافعون عن سلوكهم، وبالتالى يستمرون فيه. وقد يصبح عادة لهم أو طبعاً لهم أو منهجاً ثابتاً فى حياتهم لا يغيرونه، لأنهم يسمون الخطية بغير إسمها الحقيقى، و يفظون عليها فلا تظهر!

وهذه التسمية وهذه التغطية، تهز المبادئ والقيم عندهم.

إن الخطية المكشوفة والمعروفة، من السهل مقاومتها وتجنبها. وهى تتعب الضمير السليم، حتى أنه إن وقع فيها الإنسان، من السهل أن يتركها... لذلك فإن الشيطان -الحكيم فى الشر- يعمل على تغيير القيم من جذورها...

وتسمية الخطية بغير اسمها، يدخل مع البشر فى حرب مسميات.

وتزداد خديعة الشيطان ، إن استطاع أن يجعل من هذه التسمية مفهوماً شاملاً بين الناس ، وهذا أخطر ، إذ ينتشر بين الكثيرين يردونه بلا وعى . وهذه التسميات هى خديعة مقصودة من جهة الشيطان أو دعاة الشر . أما من جهة العامة ، فقد تكون الخطيئة هنا جهلاً منهم يحتاج إلى توعية روحية ، أو يكون انقياداً غير حكيم ، وانسياقاً بغير عمق ، يحتاج إلى قوة فى الشخصية ، سواء فى الفكر أو فى التصرف ، حتى لا تشدها الدوامة ، وحتى لا تسير مع التيار أينما اتجه .

وهكذا فإنه نتيجة لخداع الشياطين وأتباعهم من معارضى الفضيلة...

نجد أن قيماً كثيراً ، تحتاج إلى توضيح مفهوماً .

أى أننا ندخل مع هؤلاء فى حرب تعريفات *definitions* ، بحيث لا بد أن نعرف : ما هو مفهوم هذه الفضائل أو القيم ؟ ما هو المقصود بها ؟ ما هو مضمونها أو تحديد معناها بالضبط ؟ حتى لا يكون هناك خطأ واضح فى التطبيق ، ربما يتنازعه تفسيران متضادان بالنسبة إلى فضيلة واحدة .

ومن أمثلة هذه الفضائل التى تحتاج إلى تحديد معناها :

ما هو مفهوم الحرية مثلاً ؟ وما هو مفهوم القوة ؟ وما مفهوم العظمة والكرامة ؟ كذلك ما معنى الانتصار ؟ وما معنى الرجولة والبطولة والشجاعة ؟ وما معنى النجاح ؟ وما معنى الطموح ؟

كلها قيم عظيمة . ولكن الناس يختلفون فى مضمونها ومعناها ، هذا بافتراض حسن النية . وبناء على ذلك يقع البعض فى الخطيئة ، بفهم خاطئ ، بينما يتحاشاها البعض الآخر بمفهوم سليم .

تحت إسم الحكمة مثلاً ، كم خطايا تختبئ ؟

يقع الإنسان فى التعلق وفى الجبن وفى الرياء ، ويسمى هذه حكمة . ويقع فى مجازاة الشر ، والسير فى التيار العام الخاطئ ، ويسمى هذه أيضاً حكمة . وقد يستخدم الكذب والخديعة واللف والدوران ، ويعتبر أن هذه حكمة منه ، يكفى أنها أوصلته إلى غرضه أو حفظته فى أمان . وكأن الوصولية أيضاً حكمة !

وهنا يكون قد أخطأ فى مفهوم الحكمة ! لأن الشر ليس حكمة . ولأنه ليس من الحكمة أن يخسر الإنسان الملكوت ، من أجل أى غرض زائل على الأرض . وصدق الرسول حينما قال :

لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله (١ كو ٣ : ١٩) .

وهي ليست جهالة فقط ، بل هي أيضاً سبب عقوبة « لأنه مكتوب الآخذ الحكماء بكرهم » (١ كو ٣ : ١٩) . إن (الحكمة) التي تصبح لونا من المكر والدهاء والحيلة ، ليست هي حكمة روحية ، فابتعد عنها . لأن الحية كانت « أحيل حيوانات البرية » (تك ١٣) . وكانت شيطانا...

إستخدم يعقوب الحكمة البشرية ، فأوقعته في خطايا كثيرة .

بتلك (الحكمة) أقصد بالحيلة والدهاء ، تحايل حتى سرق البكورية من أخيه ، بأسلوب خال من الحب الأخوى (تك ٢٥ : ٣٠ - ٣٤) . وبنفس (الحكمة) خدع أباه حتى سرق منه البركة بدلاً من أن يأخذها أخوه (تك ٢٧) . واشتركت معه في ذلك أمه رفقة . وبنفس الحكمة أيضاً ، أخذ من خاله لابان كل ما ولدته الغنم (تك ٣٠ : ٣١ - ٤٣) . ولم يكن في هذه النقطة بالذات أميناً مع خاله لابان... إنها نفس طريقة الحيلة البعيدة عن براءة البساطة...

كم يحتاج مثل هذا (الحكيم) أن يتوب عن حكمته .

لأنه سعى الأمور بأسمائها الحقيقية ، وقال إن هذا احتيال أو دهاء أو مكر ، أو اعتماد على ذراع بشرى ، لأمكن أن يتوب . أما أن يسميها حكمة ، فهذه تسمية تغطي على الخطية ، ولا تساعد على التوبة...

صدقوني إن الحكيم في عيني نفسه ، من الصعب أن يتوب .

لأنه لا يرى فيما يفعله خطية . بل يرى أن تصرفاته تدل على ذكاء وحسن تصرف ! وهل من المعقول أن يتوب الإنسان عن الذكاء وحسن التصرف ؟ كلا ، بل إن الناس يقصدونه ليعلمهم كيف يصل ، ويصبح مرشداً إلى طرق خاطئة . وأكثر من هذا ، أنه قد يفتخر بحكمته هذه ، وكيف استطاع أن يستخدم عقله للحصول على ما يريد . وينطبق عليه قول الكتاب :

مجدهم في خزمهم (في ٣ : ١٩) .

الذي تنسحق نفسه بسبب الخزي من أخطائه ، هذا يمكنه أن يتوب . أما الذي يرى في هذا الخزي مجداً له وفخراً ، فسوف يستمر فيما هو فيه ، راضياً عن نفسه . ومثال ذلك التاجر الذي يفتخر بأنه استطاع أن يلعب بالسوق ويكذب .

والموظف الذى يفتخر بأنه طوى رئيسه بأسباب ملفقة عرضها عليه ، فانطلت عليه الحيلة وصدقته . وكذلك الذى يفتخر بأنه يستطيع أن يمثل أى دور على أى أحد ، ويكسب الموقف بتمثيله المتقن . أو كالشاب الذى يفتخر بأنه يستطيع أن يسقط أية فتاة مهما كانت متدينة ؟!

كيف يمكن لهذا الإنسان أن يتوب ، إن كان يفتخر بأخطائه ؟!

يذكرنى هذا بالشياطين التى تفتخر بإسقاطها للقدسين !

لقد كان الفريسيون فى حريفتهم ، يفتخرون بأنهم يسرون فى أصعب طريق ، ويضيقون على أنفسهم . حتى أن بولس الرسول حينما كان يتكلم عن ماضيه قال « حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً » (أع ٢٦ : ٥) . ببنا السيد المسيح ويخ الفريسيين على تحميلهم الناس أحمالاً ثقيلة ، فما دخلوا ، ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣) .

إن الفريسيين كانوا يفتخرون بحريفتهم ، لذلك لم يتركوا الحرفية ، بل اعتبروها تدقيقاً فى أمور الدين ، وتشدداً فى التدين . كان لها إسم آخر يغطيها ويحامي عنها ... ! وكذلك كل خطية ، يمكن أن يكون لها إسم آخر ، يحتفى به الخطيئ ، فلا يتوب ...

فالتدخين لا يظهر على أنه قتل للصحة ، وعبودية للإرادة ، وإضاعة للأموال ، وإنما يأخذ إسم المتعة وإراحة النفس ، وهو إسم لا يتعب الضمير كثيراً . والرقص يأخذ إسم الفن ، ومحترفوه يسمون أهل الفن والفنانين . وكذلك الرسوم العارية التى تعثر كثيرين ، هى أيضاً فن لا غير ..! وما يشبه هذا كثير جداً . وخطية الزنى هى أيضاً تلبس ثياب الحملان ، وتحمل إسم الحب . ويخلط محترفوها بين الحب والشهوة ...

وإعلان عمل الخير أمام الناس لكسب مديحهم ، لا يؤخذ على أنه رياء ، إنما يلبس ثياب الحملان ، ويأخذ إسم القدوة الحسنة ، والتعليم العمل ، وتقديم صورة الله للناس ... وعدم إعثارهم .

وتحت إسم الدعابة والمزاح ، تستتر أيضاً خطايا كثيرة . يتكلم إنسان على آخر ، ويجرح شعوره ، ويتخذة مجالاً لضحكه ، ويضحك عليه

الآخرين غير مبالٍ بوقع كل هذا عليه... وإن لته، يقول إن هذا مجرد مزاح ودالة وعشم! وهكذا يسمى عدم إحترام الناس مزاحاً ودالة... وتحت إسم المزاح أيضاً قد يكذب ويسميه كذباً أبيض أو دعابة أو مزاحاً. وقد يسرق ويغنى أو يأخذ أشياء يملكها غيره، ويقول: كنت أمزح معه. وقد يتصرف شاب مع فتاة بعض تصرفات جنسية غير لائقة، ويقول كنت أمزح معها. وكل أنواع الهزل غير اللائق، تدخل تحت إسم المزاح والدعابة، وقد تشمل أى أحد مهما علا مركزه. حتى الله نفسه بالتجديف على إسمه، قد يعتذر عن هذا بأنه دعابة. وتدخل كلها تحت إسم خفة الدم، واللفظ، وخفة الروح؟!

وتسأل أليس لهذا المزاح حدود ؟ فلا تجد جواباً ...

ومن الناحية المضادة ، تلبس القسوة أيضاً ثياب الحملان .

فقسوة الأب على إبنته ، لا تظهر تحت إسم قسوة ، إنما تحت إسم الحزم والتأديب ، ويجد لها هذا الأب القاسى مفهوماً خاصاً فى قول الكتاب « فیراعهم بقضيب من حديد » (رؤ ٢ : ٢٧) . وينسى قول الزمور « لا تؤدبنى بسخطك » (مز ٦ : ١) . وينسى الكلام عن عطف الأب (مز ١٠٣) .

وقد يقتل أب إبنته الخاطئة ، ولا يسمى هذا الأمر جرعة قتل ، وإنما يسميها غسلاً ومحواً للعار، ودفاعاً عن الشرف! ... مجرد ثياب حملان لإراحة الضمير وتبرير العمل ...

واضطهاد من يخالف فى رأى أو العقيدة ، يسمى غير مقدسة .

وهكذا يأخذ إسماً آخر يصير فيه فضيلة . وفى هذا قال السيد المسيح « تأتى ساعة فيها يقطن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله » (يو ١٦ : ٢) . وهذه التسمية الجديدة كان شاول الطرسوسى يريح ضميره فى كل أنواع القسوة التى قام بها (أع ٢٦ : ٩ - ١١) . وقد قال فى ذلك عن نفسه فى افتخارات ماضية « من جهة الغيرة ، مضطهد الكنيسة » (فى ٣ : ٦) .

وبالمثل فإن كثيراً من ألوان الغضب والترفة ، قد تأخذ إسم الدفاع عن الحق ، والدفاع عن النظام ، والدفاع عن الكرامة . وكلها ثياب حملان لا تعب الضمير!

والحياة العابثة قد تختفى وراء إسم [الحرية] .

وربما الإبن الضال الذى ترك بيت أبيه ، قد ظن أنه يمارس حريته الخاصة ، ويجرب الحياة ، ويختبر...! والوجوديون فى كل أخطائهم يتعللون بهذا أيضاً: ممارسة الحرية ، والشعور بالكيان الشخصى ، الشعور بوجودهم! وتحت هذا الإسم يقتربون كل أنواع الإباحية ، والاعتداء على حريات الآخرين . وصدق الذى قال « كم من جرائم اقترفت باسمك أيتها الحرية! » .

وبالمثل خطايا أخرى كثيرة تلبس ثياب الحملان .

فالأم قد تتدخل فى شئون إبنتها - المتزوجة حديثاً - تدخلًا يخرب هذا البيت ، وتسمى هذا عجة لإبنتها ، ودفاعاً عنها ، وحرصاً على كرامتها... وقد يكذب محام أو محاسب ، وقد يضع هذا تحت عنوان مقتضيات المهنة! بينما المهنة شريفة ليس هذا من مقتضياتها...

إن الخطية ، لا تحب أن تظهر باسمها الحقيقى ، لأنه يتعب صاحبها .

فحقى البدعة فى الدين ، لا تظهر مطلقاً باسم بدعة .

بل يقدمها صاحبها على اعتبار إنها الفهم السليم للدين الذى يبجله الكثيرون . وإن كانت هذه البدعة تحمل عقيدة لم يألفها الناس ، فإنه يسمى هذا تجديداً! وإن قاومه المتسكون بتقاليد الكنيسة ، يقول : هل تحجبون على تفكيرنا؟ لنا الحرية أن نفكر كما نشاء! قد يكون له الحرية أن يفكر ، ولكن ليست له الحرية أن ينشر أفكاره الخاطئة بين الناس ، ويتعرض لحكم بولس الرسول (غل ١ : ٧، ٩) .

بل حتى الذى يعثر الآخرين فى التصرف ، لا يقول إنه يعثرهم ، بل إنه يعلمهم الحياة...!

أما أنت فاهرب من التسميات الخاطئة وثياب الحملان .

لتكن لك مبادؤك الثابتة الراسخة التى لا تتزعزع بمسميات جديدة ومفاهيم غير روحية ، بل تعتمد على كلمة الرب أولاً ، وعلى الإيمان المسلم لنا مرة من القديسين (يه ٣) . واحتفظ بنقاوتك . ولا تسمح أن تسمى خطيئتك باسم آخر يريح ضميرك إراحة وقتية زائفة ، بينما تشعر فى أعماقك إنه لون من الهروب من المسؤولية... بل بالحرى إكشف خطيئتك أمام نفسك لتتوب عنها ، وأمام الله لتنال مغفرة . طوبى لمن يكتشف خطاياهم ويندم عليها ، ولا يغطيها باسم آخر .

لأنك إن سميت خطيئتك باسم آخر ، لن تتوب .
 فالإنسان يترك ما يرى أنه خطأ . فإن لم يكن خطأ ، لماذا إذن يتركه ؟ إنها
 معرقلات من العدو يمنع بها التوبة . بأسلوب من الشفقة الزائفة ، قد يحاول بها أن
 يريح النفس ، ولكنه لا يريح الروح ولا يساعدها على الاهتمام بأبديتها .
 أما أصحاب ثياب الحملان ، فيجب أن ينزعوها ، لكي تظهر الخطيئة على
 حقيقتها ، خاطئة جداً تفقد النفس نقاوتها ، وتحتاج إلى توبة .

أما أصحاب المسميات الجديدة ، فيحتاجون إلى تجديد أذهانهم .
 كما قال الرسول « لا تشاكلوا هذا الدهر » أى لا تصيروا بشكله أو شبهه « بل
 تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رو ١٢ : ٢) . فأذهانكم هذه التي أفسدتها
 المسميات العالمية وثياب الحملان ، إعملوا على تجديدها بالفهم الروحي السليم
 « لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة » (رو ١٢ : ٢) .
 بتجديد الذهن هذا ، يمكن للإنسان أن يتوب ...
 وماذا أيضاً ؟ ...



أهرب من خطاياك المحبوبة وعالج فقط الضعف فيك

ليس الخطيئة هو الإنسان الذى يسقط في جميع الخطايا ، وهذا السقوط الكامل الشامل يهلك . إنما تكفى خطية واحدة يكون ساقطاً فيها ، هذه تلوث نفسه ، وتكون سبباً لهلاكه خطية يحبها ، تمثل نقطة الضعف فيه .

وتكون خطيته المحبوبة هذه ، هي العائق بينه وبين الله .
إن انتصر على هذه الخطية بالذات ، صار منتصراً في حياته الروحية . وإن انهزم فيها ، فلا تنفعه كل انتصاراته على باقي الخطايا الأخرى ...
هذه الخطية تمثل مدخل الشيطان إلى قلبه وإرادته . وينبغى أن ينتصر في هذا الميدان بالذات الذى هزمه فيه العدو . وغالباً ما تكون نقطة الضعف هذه ، هي النقطة الثابتة المتكررة في كل اعترافاته ، كلما ذهب ليعترف بخطاياها .

نقطة الضعف هذه ، تذكرنا بنقب واحد في سفينة .
مهما كانت السفينة هائلة ورائعة ، فهذا الثقب الواحد يمكن أن يكون سبباً في غرقها . كذلك بقعة واحدة في ثوب ، تكون كافية لتوسيعه ، مهما كان جليلاً ونظيفاً في باقي أجزائه . ونقطة حبر واحدة في كوب ماء ، تجعله كله غير صالح للشرب .
ولا بد لنا أن نجاهد لإصلاح الثقب الذى في السفينة ، مهما كانت التحسينات الأخرى الموجودة فيها . وكذلك نعمل على إزالة البقعة الواحدة من الثوب ، ولا نفتخر بأن الباقي منه نظيف .

مثال تلميذ رسب في مادة واحدة في الإمتحان ...
ومع أنها مادة واحدة ، فإنه يعتبر راسباً ، مهما كان ناجحاً في باقي المواد الأخرى . حتى لو حصل في باقي المواد على درجات نهائية ، فن أجل هذه الواحدة التى رسب فيها ، قد يعيد العام كله . عليه إذن أن يعرف نقطة الضعف التى عنده ، ويركز عليها ويعالجها .

عن محاضرة أقيمت في الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة ١٢/٢٩/١٩٧٨ ، إستعداداً لبداية سنة

جديدة .

أو مثال مريض يشكو من مرض معين يؤله .
مهما كانت باقى أجهزة جسمه سليمة ، سيقى متأماً مادام هذا المرض باقياً .
وعلى طبيبه أن يركز على موطن الألم بالذات لكى يعالجه . كذلك فى الحال مع
الخطية ، لأنها مرض .

خذ مثلاً آخر بإنسان يصوم ...

وفى صومه يمتنع عن أطعمة كثيرة . ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن طعام
معين بالذات ، يشتهيه ... فما الذى يستفيدة مثل هذا الإنسان من صومه ، مادام
ضعيفاً ، لا يقوى على ضبط نفسه ، فى النقطة التى يحارب فيها بشهوة الطعام . ألسنا
نقول حقاً ، أنه لو امتنع عن هذا الطعام بالذات ، لصار ناجحاً فى صومه وفى
روحياته ... أما إن سقط فى هذه ، فقد سقط فى الكل . وذكرونا هذا بقول
الكتاب :

من حفظ كل الناموس ، وإنما عثر فى واحدة ، فقد صار مجرمأ فى الكل
(يع ٢ : ١٠) .

فما معنى هذه العبارة من قول الرسول ؟ وكيف نفهمها ؟
تفهمها بسؤال واحد تحتاج أن تحبب عليه وهو : هل أنت تحب الله ، بحيث لا
يوجد شىء يمكن أن يبعدك عنه ؟ فإن وجد شىء ، أى شىء ، يكون هو المشكلة فى
حياتك ، وهو نقطة الضعف فىك . أو هو خطيتك المحبوبة التى تنافس الله فى قلبك .
إن الله يقول « يا ابنى أعطنى قلبك » ... فلو كان قلبك فى جهة أخرى بعيداً
عنه ، تكون هذه الجهة هى العائق الوحيدة الذى يعوقك عن الصلة بالله .

لم تكن هناك أشياء كثيرة تبعد آدم وحواء عن الله .
إنما كانت هناك تلك الشجرة الواحدة لا غير . لوإنها استطاعا أن ينتصرا
بالنسبة إليها لصارت حياتهما كاملة أمام الله . ولكن بانزمامهما خسران كل شىء .
إنتنصر إذن على نقطة الضعف التى فىك ، والتى يعرفها الشيطان عنك . ويدرك
تماماً أنه كلما يريد أن يهزمك ، يدخل إليك من هذا الباب بالذات ...

كثيرون يعزون أنفسهم بأعمال برهم ، يتذكرونها لتغطى على هذه الخطية .
ولكن الله لا يقبل هذه التغطيات ...

مشال ذلك الرجل الفريسي ، الذى كان الضعف فيه ، أنه يظن نفسه باراً ، ويحتقر غيره من الخطايا ... هذا كانت له نقط بيضاء كثيرة ، إذ أنه كان يعشر جميع أمواله ، وكان يصوم يومين فى الأسبوع . وكان واقفاً فى الهيكل يصل . ولم يكن من الناس الظالمين الخاطفين الزناة . ومع ذلك لم يخرج من الهيكل مبرراً (لو ١٨ : ٩-١٤) . فلماذا ؟ لأن كل هذه الأعمال لم تستطع أن تغطى على العجرفة الداخلية ، التى هى نقطة الضعف فيه بالذات . والتى يجب أن يتخلص منها ، ليتبرر أمام الله .

بنو اسرائيل أرادوا أن يغطوا على خطاياهم بالذبائح والبخور ... وبالتقدمات وحفظ المواسم من سيوت وشهور وأهله وباقي الطقوس والصلوات ... ولكن الله لم يقبل هذا منهم . بل قال لهم « لماذا لكثرة ذبائحكم يقول الرب ... لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة . البخور هو مكرهه لى ... رؤوس شهركم وأعيادكم أبغضتها نفسى . صارت على ثقلأ . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم ، أستر عيني عنكم . وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملأنة دماً . إغتسلوا ، تنقوا ، إ عزلوا شر أعمالكم » (أش ١ : ١١-١٦) .

هنا النقطة المطلوبة ، حيث موطن الداء ، لا تغطية الطقوس والممارسات .

الخطية لا تمحى بأعمال بر أخرى ، إنما بالتوبة .

لذلك لا تفضل الطريق ، فحيثما توجد خطيتك حارها وقاومها ... ولا تقل : سأصوم يومين . أو سأعطي أموالى للفقراء ... كل هذا لا يقبل منك ، إن كنت مائتزال مستبقياً الخطية فى قلبك ... إنما واجه حقيقة نفسك فى صراحة . واستفد دروساً لحياتك من قصص الكتاب .

وخذ كمثال : قصة الشاب الغنى (متى ١٩ : ١٦ - ٢٢) .

كان إنساناً يهتم بأبديته ، ويسأل « أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية » . وكان يحفظ وصايا الرب منذ حدثته . ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة فيه ، وهى محبة المال .

وقد ركز المسيح على نقطة الضعف هذه بالذات .

فقال له إن أردت أن تكون كاملاً ، إذهب بع كل مالك واعطه للفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء . وهنا وضع الرب يده على الجرح الذى كان يؤلم هذا الشاب ، فضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة .

ووضع الرب يده أيضاً على الجرح الذى كان يتعب أيوب .

كان أيوب الصديق « كاملاً ومستقيماً » بشهادة الرب عنه (أى ١ : ٨) ، « وليس مثله فى الأرض » . وكان يشفق كثيراً على الفقراء ، وينقذ الضعفاء من ظالمهم . وكان « عيوناً للعمى ، وأرجلاً للرج » (أى ٢٩) . وباختصار كان رجلاً باراً . فإذا كانت نقطة الضعف إذن ؟

كان باراً ، ويعرف عن نفسه أنه بار . فأتعبه البر الذاتى (أى ٣٢ : ١) . وهكذا جرده الرب من كل شيء : من أولاده وغناه ، ومن صحته وكرامته ، ومن احترام الناس له . ولم يبق له شيئاً . ودخل مع الله فى عتاب . وأخيراً قال « قد نطقتم بما لم أفهم . بعجائب فوق لم أعرفها ... أسألك فتعلمنى ... لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد » (أى ٤٢ : ٣-٦) . ولما وصل أيوب إلى التراب والرماد ، تخلص من بره الذاتى . ورفع الله عنه تجربته . وصار أكمل مما كان . إنتصر فى نقطة الضعف أيضاً .

وكان بلعام نبياً . وكانت له نقطة ضعف أهلكته .

ظهر له الرب وكلمه (عدد ٢٢ : ١٢) . ولما طلب منه بلعام أن يلعن الشعب ، قال « الكلام الذى يضعه الله فى فمى ، به أتكلم » (عدد ٢٢ : ٣٨) . وأقام سبعة مذابح ، وقدم سبع ذبائح . « ووضع الرب كلاماً فى فمه » (عدد ٢٣ : ٥) ... وتكلم كلاماً طيباً ، وتنبأ نبوءات عن السيد المسيح « وحى بلعام بن بعور ... وحى الذى يسمع أقوال الله . الذى يرى رؤيا القدير مطروحاً وهو مكشوف العينين ... أراه وليس الآن . أبصره وليس قريباً . يبرز كوكب من يعقوب . ويقوم قضيب من اسرائيل ... » (عدد ٢٤ : ٣ ، ٤ ، ١٥-١٧) .

ثم سقط بلعام بنقطة الضعف التى فيه ، حبه للمال . وتحدث الكتاب عن ضلالة بلعام إنها مأساة ...

وسقط سليمان بنقطة ضعفه هى محبة النساء ومجاملتهن .

كان أحكم هذه الأرض ، بحكمة من الله نفسه . وقد ظهر له الله مرتين وكلمه . وهو الذى بنى الهيكل ، وبارك الشعب . وكتب أسفاراً عديدة من الكتاب المقدس . ومع ذلك كانت فيه نقطة ضعف واحدة هى محبة النساء ، فتزوج أجنبيات ، وجرت هذه الخطية الواحدة إلى السقوط ، فال قلبه إلى آلهة زوجاته (١ مل ١١) .

وبنفس نقطة الضعف الواحدة هذه ، سقط شمشون الجبار ، نذير الرب ، الذى حلّ روح الرب عليه وكان يحركه !

وبعوزنا الوقت إن نحدثنا عن نقط ضعف أتعبت الأنبياء .
كان إبراهيم أبو الآباء كاملاً فى كل شيء وباراً . ولكن وجدت نقطة ضعف فيه هى الخوف ، وبالخوف وقع فى خطايا (تك ١٢ ، ٢٠) . وكان بطرس تلميذ الرب قديساً عظيماً . وكانت فيه نقطة ضعف هى الإندفاع . كما كانت نقطة الضعف عند توما الرسول هى الشك . وكانت نقطة الضعف التى أتعبت أبانا يعقوب أبا الآباء ، هى الاعتماد على الحيل البشرية .

وبعض الخطاة كانت نقطة ضعف واحدة تضعيهم :
خطية الحسد هى التى ضيعت قارين ، وقادته إلى قتل أخيه .
وخطية الكبرياء وحدها أسقطت كثيرين . وكذلك خطية الزنا .
وربما إنسان تكون فيه فضائل كثيرة . ولكن يسقط لعدم ضبطه لسانه ، حسب قول الكتاب بكلامك تتبرر وبكلامك تدان .
وإنسان آخر يسقطه العناد .

والشيطان أسقطته خطية الكبرياء وحدها .
هى الخطية الوحيدة التى تحدث عنها الكتاب فى قصة سقوط الشياطين ، كما رواها أشعياء النبي (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . ثم دخلته خطية الحسد ، ثم الكذب ثم تعددت خطاياهم . ولكن هذا كله جاء بعد خطية الكبرياء التى سقط بها من طهره الملائكى .

والمراطقة كذلك : لكل منهم سقطته الخاصة .
فلا تظنوا أن المراطقة كان كل تعليمهم هرطوقياً ، أو كان كل كلامهم بدعاً فى الدين . هناك منهم من له عظات عميقة مثل ترتليانوس الذى وقع فى هرطقة المونتانيين *Montanists* وصار قائدهم . ومثل أوطاخى الذى كان من أكثر الرهبان روحانية فى القسطنطينية ، ثم وقع فى بدعته .
إنها نقطة واحدة أهلكت كلاً من هؤلاء . والأمثلة كثيرة .
وكل إنسان له نقطة ضعف خاصة هى سبب سقوطه .

فتأمل ما هي نقطة الضعف التي فيك . وما هي خطيتك المحبوبة التي بها تسقط ، والتي تضعف مقاومتك أمامها .

وفي توبتك ، ركز على هذه النقطة كل جهادك ، وكل صلواتك ، وكل ما تأخذه من معونة النعمة . فإن انتصرت عليها ، سيخاف الشيطان من محاربتك فيها بعد . وبتركك هذه الخطية المحبوبة منك ، تعبر على أن محبتك لله هي التي تقود حياتك ، وليس حبك لشهواتك ...

إحذر من أن تحتفظ بهذه الخطية المحبوبة وتقول للرب :
أحبك يارب من كل قلبي . لكن أترك لي هذه النقطة وحدها .
فقولك هذا يدل على أنك لا تحب الله من كل قلبك ، إذ يوجد له منافس في قلبك هو هذه الخطية بالذات . وأنت تحبها أكثر مما تحب الله .
وكان الله يقول لك : قد وضع لك الآن الميدان الحقيقي الذي ينبغي لك أن تحارب فيه ، وهو هذه النقطة بالذات .

إن الشيطان لا يحاربك في كل الخطايا ، إنما يختبرك أولاً .
يمر في أرضك ، ويجسها ، ويعرف ما هي نواحي الضعف فيها . وبكل ذكاء يعرف في أي الخطايا يحاربك ، وفي أيها تكون أسهل سقوطاً ، وأكثر إستجابة له ...
وعليك أن تكون صريحاً مع نفسك ، وتفحصها وتعرف من أين تسقط . وإن لم تستطع أن تهرب وتبعد عن العثرات ، إحترس في هذه النقطة بالذات ، بكل حيطة .
واطلب من الرب معونة ليقف معك في حروبك .

ولا تضع لنفسك برنامجاً روحياً طويلاً لتسبر فيه .
إنما ركز في الميدان الأساسي ، سواء بالهروب أو بالحروب ...
في النقاط التي تعكر نقاء قلبك وصفاء روحك ، والتي هي ميدان هزيمة لك في الماضي . وخذ في جهادك درساً من داود النبي .

لا تقل أنا انتصرت على جليات الجبار وهزمته ، وانتصرت على الدب والأسد وانتزعت منها الفريسة . وانتصرت كذلك في مطاردة شاول لي . إحتملته وانتصرت على نفسي ... لا تقل هذا ، إنما قل : ميدان حرى هي بشيع . وهناك يجب أن أنتصر .

وليكن الرب معك ...

اهتم بأبديتك واحسب حساب النفقة

يا إخوتي ، طريقنا الروحي طريق طويل . العمر كله لا يكفيه .
ينبغي أن نعرف تماماً : ما هو المطلوب منا ؟ وهل نحن نسير في الطريق ،
ونتقدم فيه خطوة خطوة ، كل يوم ، نحو الهدف ... أم نحن لم نبدأ بعد ؟ أم سرنا
خطوات ووقفنا ؟ وهكذا فلنحسب من الآن حساب النفقة ، ساهرين على خلاص
نفوسنا ...

المطلوب منا ليس مجرد الإيمان العادي ، إنما حياة القداسة ، فيقول الرسول :
نظير القدوس الذي دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين (١ بط ١ : ١٥) .
« مكملين القداسة في خوف الله » (٢ كو ٧ : ١) . نعم نحن مطالبون بهذه
« القداسة التي بدونها لا يعاين أحد الرب » (عب ١٢ : ١٤) .

على أن هذه القداسة ليست هي آخر المطاف ، إنما ينبغي إن وصلنا إليها أن
ننمو فيها ... وإلى أي حد ننمو؟ ... ننمو حتى نصل إلى الكمال ، حسب وصية الرب
القائل :

كونوا كاملين ، كما أن أبائكم الذي في السموات هو كامل (متى ٥ :
٤٨) . فهل نحن قد وصلنا إلى هذه القداسة وإلى هذا الكمال ؟ والمعروف أن الكمال
النسي هو درجات ... يسعى فيها نحو الغرض جميع الكاملين منا (في ٣ : ١٤ ،
١٥) . وإلى أي حد يسعون ؟ ... إلى الحد الذي يقول فيه الرسول :
« ... لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٩) .

صدوقني ، لقد وقفت أمام هذه العبارة منذهلاً ، حينما قرأتها أول مرة ! ثم
أعدت القراءة ، فإذا الرسول يقول « وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة ، حتى
تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو . وتعرفوا
محبة المسيح الفائقة المعرفة ، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٨ ، ١٩) .

عن محاضرتين : الأولى (الطريق الطويل) أقيمت في مؤتمر الأصدقاء بكنيسة مارمرقس
بشبرا يوم ١٩٦٣/٢/٢٤ . والثانية (حساب النفقة) أقيمت في الكاتدرائية يوم ١٩٦٩/١٠/٣١ .

هنا وأصمت ... لأنه ماذا يمكن أن أقول ؟! ولكنى أتذكر أن الرسول لم يطالبنا فقط بأن نسلك حسب الروح (رو ٨ : ١) . وإنما قال :
إمتثلوا بالروح (أف ٥ : ٨) .

ما هو كنه هذا الإمتلاء بالروح ؟ أنا يارب لست أعلم ... هل معناه في بساطة أنه لا يوجد شيء في كياننا يكون خالياً من الروح بل هذا الملاء يشمل كياننا كله ... ؟ إن حدث هذا لنا ، أترانا حينذاك كيف نسلك ؟ يقول الرسول إن المطلوب منا هو أن نسلك كما كان المسيح يسلك على الأرض في تجسده .

« من قال إنه ثابت فيه ، ينبغي أنه كما سلك ذاك ، يسلك هو أيضاً »
(يو ٦ : ٢٦) .

من يستطيع هذا ، مهما حاول ؟!
حقاً ما أعلى هذه المرتفعات التي يريد الروح أن يقتادنا إليها ، لنكون « صورة الله ومثاله » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .
إنه وضع من النمو الدائم ، لا يقف عند حد ...

قلت يوماً إنه يشبه من يطارد الأفق .
ينظر إنسان إلى الأفق ، فيراه هناك في آخر الطريق . فيذهب إلى آخر الطريق ، فيرى الأفق عند الجبل ، حيث تبدو السماء منطبقة على الأرض ... فيذهب إلى الجبل ، فيرى الأفق بعيداً عند البحر . فيذهب إلى البحر ، فيراه ممتداً بعيداً ... إلى غير حدود ... هكذا حياة الكمال .

ولأجل هذا قال القديسون عن أنفسهم إنهم خطاة .
نقرأ عن آباء البراري ، الذين ارتفعوا جداً في حياة الروح ، فنرى أنهم كانوا يجلسون في قلايهم ويبكون على خطاياهم ... وحتى الرسل القديسون كانوا أيضاً يتحدثون عن خطاياهم . ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك قول بولس الرسول « الخطاة الذين أولهم أنا » (١ ق ١ : ١٥) . فإن كان بولس الرسول أول الخطاة . فإذن نقول نحن عن أنفسنا ؟!

إن مثال بولس الرسول يجعلنا ننسحق جداً .
بولس الرسول الذي تعب أكثر من جميع الرسل (١ كو ١٥ : ١٠) ، الذي كرز

في بلاد عديدة، وكتب ١٤ رسالة لأجلنا، الذي صنع آيات عجيبة ومعجزات ... ومن كثرة الاستعلانات، أعطى شوكة في الجسد، لكي لا يرتفع (٢ كو ١٢ : ٧) . بولس هذا الذي صعد إلى السماء الثالثة، وسمع كلمات لا ينطق بها (٢ كو ١٢ : ٤) . بولس هذا يقول عن نفسه : « ليس أنى قد نلت ... ولكنى أسعى لعل أدرك ... أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت . ولكنى أفعل شيئاً واحداً ... » (في ٣ : ١٢ ، ١٣) . وما هذا الذي تفعله ؟ يجيب :

أنسى ما هو وراء ، وأمتد إلى ما هو قدام .

يمتد إلى قدام !! إلى أين ؟ هل هناك ما هو أكثر من السماء الثالثة ؟ وهذه الحياة المملوءة بالكراسة والقداسة والمعجزات !؟ ... وإن كان بولس على الرغم من كل ما وصل إليه، يقول « أسعى نحو الغرض » (في ٣ : ١٤) . فإذا نقول نحن الذين لم ندرك شيئاً مما قد أدركه هذا القديس العظيم !؟
إننا لم نسلك بعد في محبة الله ، ولا حتى في طاعته . لم نتصرف كأبناء محبين ، ولا حتى كمبيد أمناء مخلصين ...

بل إننا لم نصل إلى درجة (عبيد بطلين) .

هوذا الرب يقول « متى فعلتم كل ما أمرتم به ، فقولوا إننا عبيد بطلون » (لو ١٧ : ١٠) . لأننا ما تزال في حدود الأوامر، لم نرتفع بعد فوق الناموس ، إلى درجة الحب ... الحب الذى يبذل كل شيء ... الذى يخسر كل الأشياء - وهو يحسبها نفاية - لكي يربح المسيح (في ٣ : ٨) .

إن كان هكذا حال الذى يقف عند حدود تنفيذ الوصية ... فإذا يقال عن الذى يخطئ ويكسر الوصية !؟ إنه ليس عبداً لله على الإطلاق، لا عبداً صالحاً ولا بطالاً، بل هو مقاوم لله، وعبد لإبليس ...

أقول لك هذا ، لكي تعرف نفسك ، ولكي تعرف ما هى المرحلة التى قطعتها في الطريق إلى الله ... لتلا تظن ، إذا صليت مزمورين ، أنك قد وصلت !!

إذن إعرف يا أخى أين أنت . واهتم بخلاص نفسك .

إن لك نفساً واحدة لا تملك غيرها . إن ربحتها ربحت كل شيء . وإن خسرتها خسرت كل شيء . لأنه ماذا يمكن أن تأخذ من العالم عوضاً عن نفسك ؟ وهذا الرب يقول عبارته الخالدة :

ماذا ينتفع الإنسان ، لوربح العالم كله وخسر نفسه . (متى ١٦ : ٢٦) ...
إجلس إذن إلى نفسك . وافحص حياتك جيداً : هل أنت سائر في الطريق أم لا ؟ وهل تفرص على أبديتك ، أم قد ضيعت نفسك ... وضاعت أيامك التي كان ينبغي أن تستخدمها في معرفة الله ، وفي محبته ، وفي النمو الروحي ، حتى تدرك الغاية التي من أجلها أدركك المسيح ...

يا أخى إن الطريق طويل قدامك ، وأنت لم تبدأ بعد .
الطريق يبدأ بالخفاة ، لأن « بدء الحكمة مخافة الله » (أم ٩ : ١٠) . والخفاة بالتدريج تقود إلى المحبة ... ولكنك إلى الآن لم تصل إلى مخافة الله ، لأنك مازلت تكسر وصاياه ... فتي تصل إلى المحبة إذن ؟
وأنت لا تستطيع أن تصل إلى الله ، إلا إذا كنت تسلك حسب الروح . وإن سلكت حسب الروح ، ستظهر ثمار الروح في حياتك .

وثمار الروح منهج طويل ، شرحه بولس الرسول .
فقال « وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف » (غل ٥ : ٢٢) .
والمحبة التي هي أولى هذه الثمار ، شرحها الرسول بالتفصيل في (١ كو ١٣) ، ووضع لها حوالى أربع عشرة علامة . فهل وصلت إلى شيء منها ... ؟
ثم ماذا عن الصلاة وتفاصيلها ؟ وماذا عن الهذيث والتأمل وكل الوسائط الروحية ... ؟ وماذا عن حروب الشياطين وكيفية الانتصار عليها ...

أنا لا أريد أن أثقل عليك بتفاصيل الحياة الروحية ، لأنني سأحدثك عنها جميعها إن شاء الله في كتاب كبير إسمه [معالم الطريق الروحي] ... أما الآن فكل ما أنصحك به ، هو أن تبدأ بالخطوة الأولى في العلاقة مع الله ، لأنه إن لم تبدأ بأول خطوة ، فكيف تصل ؟!

ونقطة البدء في علاقتك مع الله ، هي التوبة .
بها تصطليح مع الله وترجع إليه . أى تنتقل من خارج الدائرة إلى داخلها . ثم تحملك النعمة وتعبرك بـ درجات الطريق . وهكذا تنتقل من خطوة التوبة ، إلى النقاوة ، إلى القداسة ، إلى الكمال النسبي ، إلى النمو في هذا الكمال ...
أريد أن تبدأ الطريق وتخطو إلى التوبة . ضع أمامك هذه القاعدة :

إِقْتِن مَحَبَّةَ اللَّهِ لِتُطْرَدَ مِنْكَ مَحَبَّةُ الْخَطِيئَةِ

الإنسان لا يستطيع أن يعيش في فراغ عاطفي .
فهو إما أن يملأ قلبه بمحبة الله ، أو أن يمتلئ هذا القلب بمحبة العالم والجسد .
« ومحبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) .

نقطة أخرى ، وهى أن محبة الله أقوى وأعظم من أية محبة أخرى ، لذلك إن
أدخلتها في قلبك ، فإنها حتماً ستطرد كل الشهوات الأخرى منه . وصدق ذلك
القديس الذى قال :

التوبة هى استبدال شهوة بشهوة .

أى بعد أن كنت تشتهى العالم والجسد والخطية ، أصبحت كل شهواتك
روحية ، مركزة في الله والحياة معه . فلا يكن قلبك إذن خالياً من حب الله
وملكوته ، لئلا تسكنه محبة الخطية . واحفظ هذا الميزان سليماً داخل قلبك . لا تجعل
كفة العالم ترجح بتأثيرات كثيرة من النظر والسمع والقراءة والخلطة المعثرة ... إنفا
استخدم بكل قوة جميع الوسائط الروحية المتاحة لك ، التى تعمق محبة الله في عقلك .

وثق أن الخطية لا تستطيع أن تدخل قلباً يحب الله .

ولا نقصد بالإنسان الذى يحب الله ، مجرد ممارسته للوسائط الروحية كالصلاة
والصوم والقراءة الروحية وحضور الكنيسة والإعتراف والتناول . إنفا يهمننا قبل كل
شئ أن تكون هذه الوسائط الروحية نابعة من حب داخل في القلب .

فالدين هو الحب : حب لله ، وحب للخير وحب للغير .

وإن لم يوجد هذا الحب ، يفتر القلب ، ويفقد الشعلة الروحية التى تسلمها من
روح الله يوم عرفه . وقد يتطور الفتور إلى خطية ، مهما كانت لهذا الإنسان خدمة في
الكنيسة ، ومهما كان طاقة من النشاط والحركة .

عن محاضرة بعنوان (الحب وليس الممارسات) أقيمت في الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة

١٩٧٧/١١/١١

بدون محبة الله داخلك ، لا تستطيع أن تتوب .
وإن تركت الخطيئة ، لا يكون تركاً حقيقياً عن نقاوة قلب . وإنما قد تكون مجرد
إجراءات خارجية لصالح شكل مع الله ، أو خوفاً من غضبه وعقوبته ...
كإنسان يخاف أن يعاقبه الله ، ويخاف أن تدخله الخطيئة إلى جهنم ، فلكي يتق
الله وعقوباته ، يدخل في الدين . ويسمى هذه (تقوى) أى إتقاء الله وغضبه ...
وهذا الخوف ، قد يبعد عن الخطيئة بالعمل ، ولكن لا تبعد الخطيئة عن قلبه .
ويظل القلب مقلقلأً ، لليمين واليسار ، ولا يستقر إلا بالحب .

التوبة إذن ، هى تحويل مشاعر القلب بالحب نحو الله . وكل الممارسات
الروحية كالصلاة والصوم لا تكون قائمة بذاتها ، إنما ملتصقة بهذا الحب . فالصلاة
بغير حب الله ، ليست هى صلاة بالحقيقة . وكذلك الصوم . وكذلك حضور الكنيسة
والتناول .

فأنت تصل وتقول « عطشت نفسى إليك » « باسمك أرفع يدى ، فتشبع
نفسى كما من شحم ودسم » (مز ٦٢) ، « محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول
النهار تلاقى » (مز ١١٩) .

وأنت تقرأ في الكتاب وتقول « وجدت كلامك كالشهد فأكلته » .
وأنت تذهب إلى الكنيسة وتقول « مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات .
تشتاق وتذوب نفسى للدخول إلى ديار الرب » (مز ٨٣ : ١) .
بهذه المشاعر تجد لذة في التوبة . وتوبتك تستمر وتستقر .

أما إن لم يوجد فيك هذا الحب ، فحتى إن تركت الخطيئة ، ما أسهل أن
تتحاربك لترجع إليها ... لماذا ، لأنك لم تجد في الحياة مع الله شيعك . لم تجد في حياة
التوبة ما يملأ قلبك ، وما يملأ عواطفك ومشاعرك ، وما يحفظك من التماس الحب في
الخارج .

أنا أعرف أنك تريد التوبة ، ولولا ذلك ما كان هذا الكتاب بين يديك الآن ...
بل ربما تظن أنك بدأت التوبة فعلاً ، من أجل أنك تمارس وسائل روحية . ومع
ذلك فأنت :

تصل وتصوم ... ولا تشعر أن محبة الخطيئة قد فارقتك !

فلماذا ؟ ... كلنا نؤمن بفوائد الوسائط الروحية ، ولكن على شرط أن تمارسها بطريقة روحية... فإن كنت تصل وتصوم وتقرأ الكتاب ، وتجد في ذلك شعباً روحياً ، ولذة وتعزية وفرحاً ، ويقودك كل هذا إلى تعميق محبتك لله ... إذن فأنت سائر على الدرب . ومن سار على الدرب وصل .

إن لم تعيش في التوبة بهذا الحب ، تكون تائباً ... لا بد إذن أن تقتنى محبة الله ، التي تستطيع أن تطرد من قلبك محبة الخطية . لا بد أن تعرف المسيح ، لكي تستطيع أن تترك الجرة عند البئر (يوحنا ٤) . فإن لم يكن لك هذا الحب ، أطلبه في صلاتك بكل لاجئة ... هي صلاة تقوفا في كل وقت ، من كل قلبك ، ومن كل فكرك ، ومن عمق أعماقك : أعطني يارب أن أحبك ...

إنزع محبة الخطية من قلبي ، واعطني محبتك ... وابحث عن كل الوسائط التي تساعدك على محبة الله . ليست كل قراءة تفعل . ولكن هناك قراءات روحية تؤثر كثيراً في قلبك ، وتمس مشاعرك ، وتدفعك إلى محبة الله ... وكذلك هناك تراتيل معينة تشعل مشاعرك الروحية . وهناك أماكن مقدسة تؤثر فيك ، وأشخاص يحبون الله ، تراهم فتحب الله مثلهم ... بكل هذا وأمثاله ، التصق بكل قوتك .

وابعد عن كل شيء ، به تبعد محبة الله عن قلبك . كن حريصاً على هذه المحبة كل الحرص . لأنها هي التي تطرد منك محبة الخطية . بل كلما زادت محبة الله فيك ، حينئذ ينفرد قلبك من الخطية ، ويشمئ منها ، ويندم على أيامه الأولى التي عاشها في الخطية . وهذا يكون الله قد وهب قلباً جديداً ... قلباً يحب الله ، غير القلب القديم تماماً . وفي هذا القلب المحب لله ، تعبد الله بفرح ، ولا تجد صعوبة في حفظ وصاياه . بل تغنى مع يوحنا الحبيب قائلاً :

هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه . ووصاياه ليست ثقيلة (١ يوحنا ٥ : ٣) . ولماذا ليست ثقيلة ؟ لأنك تعيش فيها بفرح ، بحب ، من غير صراع داخلي يتعبك . إذ لا تجد ناموساً آخر في أعضائك ، يحارب ناموس ذهنك ، ويسببك إلى

ناموس الخطية» (رو٧: ٢٣).

الإنسان الذى يحب الله ، يجد لذة فى تنفيذ وصاياه .
ويجد لذة فى عمل ما يرضيه . ولا يسمح لنفسه أبداً أن يغضبه . كإنسان يحب
أباه وأمه ، ويجد لذة فى إرضائها ، وكسب بركاتها ورضائها ، ولا يسمح لنفسه أن
يغضبها فى شيء .

إن وصلت إلى هذا الشعور ، يمكنك أن تتوب بسهولة .
ولكن بدون محبة الله ، تجد التوبة صعبة وثقيلة . ولا تشعر برغبة فى ترك
الخطية ، إذ لا توجد محبة أعمق تحل محلها .
إبحث إذن عن هذه المحبة الأعمق . واسلك فى كل الوسائط التى توصلك إليها .
وحينئذ لا يمكن أن تجد التوبة صعبة ، ولن تجد الوصية ثقيلة .

ولكن متى تجد التوبة صعبة والوصية ثقيلة ؟
تجدها كذلك إن كانت محبة الله ليست كاملة فى قلبك ، أو لم تصل إلى شيء
مها بعد... وأيضاً حينما تكون محبتك للخير غير كاملة ، أو لم تصل إليها بعد...
ولذلك فأنت حينما تحاول أن تتوب ، تصارع محبة مضادة فى داخلك . وتضغط
على إرادتك ، وعلى قلبك وعواطفك... وتحاول أن تهرب من صور أثيمة راسخة فى
عقلك الباطن وفى ذاكرتك ، تشدك إلى أسفل ، بعيداً عن الله .
ولكنك إذا أحببت الله ، حينئذ لا تستطيع أن تخطئ ، والشرير لا يمكن
(١٠: ٣ ، ٩ ، ١٨: ٥) .

وحينئذ لا تكون الوصية ثقيلة ، بل تكون الخطية ثقيلة .

الخطية هى التى تصير صعبة ، مها حاول العدو أن يضغط على إرادتك ، تقاوم
وترفض أن تخطئ ، ونقول من كل قلبك « كيف أخطئ ، وأفعل هذا الشر العظيم
أمام الله ؟! » (تك ٣٩: ٩) .

وتجد وصية الرب مفرحة ، ومضيئة تنير العينين (مز ١٩) .
وتصبح التوبة سهلة عليك ، وتصل منها إلى نقاوة القلب .
ولكن لعلك تسأل : كيف يمكن أن أصل إلى محبة الله هذه ، التى تطرد منى
محبة الخطية ؟ ...

صارع مع الله وحذ منه معونه

أنت تريد أن تتوب ، وتنتصر على خطاياك . حسناً تفعل . ولكن ضع أمامك هذه القاعدة الهامة ، وهي :

النصرة على الخطية ليست مجرد عمل بشري .

١ - أولاً ، لأن الخطية قوية ، لها هذه القوة التي بها « طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوىاء » (أم ٧ : ٢٦) . فهل هذه الخطية التي أسقطت آدم وشمشون ودادود وسليمان ، تستطيع أنت أن تحاربها بمفردك ، بدون معونة إلهية ؟
محال ...

٢ - هذه الخطية قد أخذت سلطاناً عليك ، حينما أسقطتك من قبل .

٣ - إنها لا تقتصر على الحرب الخارجية ، إذ تجد لها أيضاً إستجابة في داخلك ، تجعل الحرب مزدوجة .

٤ - هذا هو تعليم الكتاب القائل « إن لم يحرس الرب المدينة ، فباطل هو سهر الحارس » (مز ١٢٧ : ١) . بل هذا قول المسيح نفسه :

بدوني لا تقدر أن تعملوا شيئاً (يو ١٥ : ٥) .

٥ - كل عمل تعلمه بمفردك ، دون أن يشترك الله معك ، غالباً ما تفشل فيه . وحتى إن نجحت ستنسبه إلى نفسك ، ويحاربك المجد الباطل ، معتقداً أنك بقوتك قد انتصرت .

والمعروف أن الإنضاع هو من أقوى الأسلحة التي يهزم بها الشياطين . وقد استخدمه القديس الأنبا أنطونيوس ، حينما كان يقول لهم « أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم » . ثم يصرخ إلى الرب قائلاً « إنقذني يارب من هؤلاء الذين يظنون أنني شيء » ...

(١) عن محاضرتين هما الجزء الثاني من سلسلة (اليقظة الروحية) ، ألقينا بتاريخ ١٩٧٠/١١/٢٠ ، ومحاضرة ثالثة موضوعها (الجهاد مع الله) بتاريخ ١٩٧٥/٣/٢٨ . ومحاضرة رابعة موضوعها (حياة الإنصار ، والحرب للرب) بتاريخ ١٩٧٩/٤/٦ . وكلها محاضرات ألقيت في الكاتدرائية الكبرى .

٦ - وقد أثبتت خبراتك الماضية ، فشلك في التوبة بمجهودك .

كم مرة حاولت أن تقوم وسقطت مرة أخرى . كم مرة عاهدت الله على التوبة ، ووعدته وعوداً ، وقلت في تصميم لن أفعل هذه الخطيئة مرة أخرى . بل أحياناً كنت تستنزل الولايات على نفسك وتقول : إمرضني يارب إن فعلت هذه مرة أخرى . كنت تقول هذا ، كما لو كان الأمر في يدك وفي إمكانك . ونصحتني لك ، بدلاً من أن تقول : أعدك يارب أن أتوب .

الأجدر بك أن تقول للرب : توبني يارب فأتوب (أر ٣١ : ١٨) .

أطلب منه التوبة كعطية صالحة من عنده ، لأنه هو نفسه وعد بهذا ، وقال « أعطيك قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة في داخلكم ... وأجعل روحي في داخلكم ، وأجعلكم تسلكون في فرائضي » (حز ٣٦ : ٢٦ ، ٢٧) (١) . فتمسك بوعده المقدس هذا ، واطلب منه أن يمنحك هذه التوبة ، ويعطيك القلب الجديد ، ويجعلك تسلك في وصاياه ...

وهذا ما تعلمنا إياه الكنيسة في صلوات الساعات .

ألسنا نقول في الزمور الخمسين « إنضج على بزوفاك فأطهر ، واغسلني فأبيض أكثر من الثلج » . إذن الله هو الذي يغسلك فتبيض ، ولست أنت القادر على غسل نفسك ... وفي كثير من الزمائر نقول : خلصني يارب . إحفظني . علمني طريقك ... وفي صلاة الساعة الثالثة نقول « طهرنا من كل دنس أيها الصالح وخلص نفوسنا » « طهرنا من دنس الجسد والروح . وانقلنا إلى سيرة روحانية ، لكي نسعى بالروح ولا نكل شهوة الجسد » ... وهذا ما نقوله أيضاً في القداس الإلهي :

طهر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا ...

ونكرر هذه العبارة في القداس أكثر من مرة ... إذن فنحن نتعلم من الكنيسة أن التوبة والطهارة والنقاوة ، ليست مجرد نتيجة مجهود منا ، إنما نحن أيضاً نطلبها من الله في صلواتنا ...

وكان الإنسان يقول لله : أنا عاجز يارب عن تطهير نفسي . فقم أنت بهذا العمل حسب سابق وعدك ... « قم أيها الرب الإله ... » « قم يارب خلصني يا إلهي ... » .

(١) أنظر فصل (قلباً جديداً) في كتاب (كيف نبدأ عاماً جديداً) ... من صفحة ٢٧ إلى

وهنا تظهر أهمية الصلاة في الوصول إلى التوبة (١) .
 مار اسحق ركز عليها وحدها ، لدرجة أنه قال : من كان يظن أن له طريقاً
 آخر للتوبة غير الصلاة ، فهو مخدوع من الشياطين .
 أما أنت ، فعلى الأقل في كل جهادك ، لا تكن معتمداً على قوتك ، ولا على
 ذكائك ، ولا على إرادتك وتداريك ، فأنت وحدك بدون معونة من الله ، لن تصل
 إلى التوبة بمجهودك الخاص .

قل له يارب أنا محتاج إليك ، وبدونك لا أستطيع شيئاً .
 الإرادة حاضرة عندي . ولكن أن أفعل الحسنى لست أجد .
 « الشر الذي لست أريده إياه أفعل » (رو ٧ : ١٨ ، ١٩) « ضللت مثل
 الخروف الضال ، فاطلب عبدك » (مز ١١٩) . ألسنت أنت القائل « أنا أرى
 غنمي وأربضها - يقول السيد الرب - وأطلب الضال ، وأسترد المطروء ، وأجبر
 الكسير ، وأعصب الجريح » (حز ٣٤ : ١٥ ، ١٦) . هوذا أنا هذا الضال الكسير
 والجريح ، فاطلبنى واستردنى واعصني ...
 أنا يارب قد وصلت إلى حالة من الضعف والعجز ، لست أستطيع فيها أن
 أعدك بأن أتوب . وإن وعدتك قد أخلف وعدى .

لست أعدك ، إنما أطلب وعداً منك بأن تخلصني من الخطية .
 ألسنت أنت القائل « تعالوا إلّى يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، وأنا
 أريحكم » (متى ١١ : ٨) . نعم ، أنا يارب محتاج أن تريحني من هذا الحمل الثقيل .
 ألم تقل إن « ابن الإنسان جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ : ١٠) .
 إننى أنا المحتاج إلى هذا الخلاص منك ...

ليس فقط الخلاص من الدينونة ، إنما الخلاص من الخطية ذاتها .
 لقد أسموك « يسوع » أى المخلص ، لأنك تخلص شعبك من خطاياهم (متى
 ٢١ : ٢١) . خلصني إذن من خطاياي . ليتنى أسمع منك قولك المعزى « من أجل
 شقاء المساكين وتهدد البائسين ، الآن أقوم - يقول الرب - أصنع الخلاص علانية »
 (مز ١١) .

(١) أنظر كتاب (الرجوع إلى الله) من صفحة ٥٣ إلى صفحة ٥٦ - الفصل الذى عنوانه
 الصلاة هى وسيلة للرجوع ، وأيضاً صفحة ٨٥ ، ٨٦ .

هكذا تعلم يا أخى الصراع مع الله لأجل التوبة .
صارع مثل غريق وجد أمامه قارب نجاة . صارع مثل يعقوب الذى قال للرب
« لا أطلقك إن لم تباركنى » (تك ٣٢ : ٢٦) . قل له : أنا يارب جربت نفسى ،
وعرفت ضعفها وعجزها أمام الخطية . بى أن تتدخل أنت .

لا تلمنى يارب من أجل ضعفى . إنما إنقذنى من هذا الضعف .
بدلاً من أن تدبىنى لأنى نجس ، طهرنى من هذه النجاسة ...
أنت قد أعطيتنى وصايا لكى أنفذها ، فأعطى أيضاً القوة التى أنفذ بها هذه
الوصايا . أعطى المقاومة التى أقاوم بها الشيطان . وأعطى محبتك التى تطرد من قلبى
عجة الخطية .

واثبت يا أخى فى صلاتك ، فهى طريقة مضمونة إلى التوبة .

فالإنسان الذى يعرف الصلاة القوية ، لا يعرف الهزيمة مطلقاً .
والإنسان الذى يُدخل الرب فى قتالاته وحروبه ، لا يمكن أن يهزم أبداً .
صارع إذن مع الله . خذ منه القوة ، والسلاح الروحى الذى تحارب به . خذ
منه الوعود الإلهية ، والقلب الجديد والروح النقية . خذ منه الإرادة والعزيمة . خذ
الإيمان الذى تحارب به ، والثقة فى أنك ستغلب .

ثق أنك إن انتصرت فى صلاتك ، ستنتجح فى ميادين القتال كلها . إن نجحت
فى صراعتك مع الله ، لن تقدر عليك أية قوة على الأرض ، بل تتمتع بالعبارة الجميلة
التي قالها الرب لأرميا الصغير :

يحاربونك ولا يقدرُونَ عليك ، لأنى أنا معك يقول الرب .
أنا معك - يقول الرب - لأنك (أر ١ : ١٩) . وحينئذ « يسقط عن يسارك
ألف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك ... » (مز ٩٠) ... حقاً إن
« الرب يقاتل عنكم ، وأنتم تصمتون » (خر ١٤ : ١٤) ...
يقاتل عنكم فى حروبكم الخارجية . ويقاتل عنكم فى حروبكم الداخلية ، فى
القلب والفكر . لذلك فى كل حروبك الروحية ، ضع أمامك هذه القاعدة . إن الحرب
للرب .

الحرب للرب ... (١ صم ١٧ : ٤٧) .

وليس للرب مانع أن يخلص بالكثير وبالقليل « (١ صم ١٤ : ٦) .
لذلك لما حارب الشعب عماليق ، لم يكن هو الذى يحاربه بل الرب . وهكذا
قيل « للرب حرب مع عماليق » (خر ١٧ : ١٦) ... كذلك كل الخطايا التى
تهزمك ، للرب حرب معها . هو الذى يغلبها فيك ولست أنت ، لأنه قال « أنا قد
غلبت العالم » (يو ١٦ : ٣٣) .

إنتصارك الروحى إذن ، هو عن طريق الرب وحده . ولن تصل إلى التوبة ،
ولن تنتصر على خطية واحدة ، إلا عن طريق الرب . فتقول مع داود « قوتى هو
الرب وقد صار لى خلاصاً » (مز ١١٧) . وتقول مع بولس الرسول :
يعظم إنتصارنا بالذى أحبنا » (رو ٨ : ٣٧) .

إذن ليس انتصارنا بعزيمتنا أو باتكالنا على ذواتنا ، إنما بهذا الذى أحبنا ، ومن
محبه لنا ، يقيمنا من سقطتنا بقوته ، و« يقودنا في موكب نصرته » (٢ كو ٢ :
١٤) . إن الله دائماً - كما يقول الرسول « يعطينا الغلبة ببرنا يسوع المسيح » (١ كو
١٥ : ٥٧) .

فلا تتحول عنه إذن ، مركزاً كل جهودك للتوبة في ذاتك . إنما خذ القوة منه
لكى تتوب . واهتف مع معلمنا بولس قائلاً :

أستطيع كل شيء في المسيح الذى يقوينى (في ٤ : ١٣) .

في المسيح إذن ، في قوته ومعونته ، تستطيع كل شيء . وخارج المسيح لا
تستطيع شيئاً . إذن صارع معه أولاً ، قبل صراحك مع الخطية ، مثلما صارع يعقوب
مع الله قبل أن يذهب لمقابلة عيسو . فلما غلب مع الله ، أصبح عيسو خفياً في
حمله ... أتقول ليعقوب إذ ذهب أولاً إلى عيسو . يجهيك : هذا الشخص لا يقدر عليه إلا
الله . إذن أنا أذهب إلى الله أولاً ، وأخذه معى لمقابلة عيسو... هكذا تفعل مع
الخطية ...

بكل اتضاع قلب ، قل أنا أضعف من هذه الحرب .

« أنا أضعف من أن أقاتل أصغرهم » كما قال القديس الأنبا أنطونيوس . وإن
قال باراق قائد الجيش : إنه لن يذهب إلى الحرب ما لم تذهب معه دبورة النبية

(قص ٤ : ٨) ... فأنت أيضاً لن تقوى على الخطيئة بمفردك ما لم يحارب الله معك .
قل من أنا حتى أقف أمام الشياطين وحدي ؟! أنا لست كفواً لهذا القتال .
وأنت يارب نصرقي . تعال واغلب العالم في قلبي كما غلبته من قبل ...

أنت تعرف يارب كل شيء . تعرف ضعفى وهزيمتى .
تعرف أنى لا أملك إرادة ولا قوة ولا عزيمة . بل أحياناً لا أملك مجرد الرغبة في
التوبة . ولا أعرف أن أحارب ، ولا أصمد على تحارب العدو . وباختصار لست
أعرف كيف أتوب . وإن عرفت لا أقوى . وإن قويت مرة أنهزم مرات .

إنشلى كشملة من النار مثل يهوشع (زك ٣ : ٢) .
هذا الذى من أجل توبته ، وقف ملاك الرب ضد الشيطان الذى يقاومه ،
وقال له : لينتهرك الرب يا شيطان ، لينتهرك الرب . أليس هذا شملة منتشلة من
النار ؟ ... وانتشله الملاك من النار ، وألبسه ثياباً مزخرفة (زك ٣ : ١-٥) .

إن الله يحب هذا الصراع معه . والذين صاروا معه ، في الصلاة والطلبة ،
أخذوا منه قوة ... ولكن ...

قد يقول إنسان : صليت كثيراً ولم أتب .
لا يا أخى ، فكل صلاة توافق مشيئة الله لا بد تستجاب . والصلاة من أجل
التوبة توافق مشيئة الله ، ولكن ...

١ - ربما تكون فعلاً قد صليت . ولكن ليست الصلاة الخارجة من عمق
القلب ، التى تصارع مع الله برغبة صادقة في هذه التوبة ، وبدالة الإبن عند أبيه ...

٢ - أو ربما تكون قد صليت ، ولم تثبت في صلاتك . إنما قلت كلاماً ، ومللت
بسرعة ! ولم تكن لك طول الأناة في الصلاة ... الصلاة التى تطلب ، وتنتظر الرب
في إيمان . الصلاة التى تتميز بالجهاد والإصرار واللجاجة والإلحاح ... مثلاً طلب إيليا
من الرب . وكرر الصلاة مرات ، حتى نال الإستجابة في سابع مرة (١ مل ١٨ :
٤٤) . وانظر إلى يعقوب إنه صارع الرب « حتى طلوع الفجر » (تك ٣٢ : ٢٤) .
أى طول الليل ولم يمل ...

٣ - أو ربما صلاتك في غير إيمان ، وفي غير انسحاق قلب .

٤ - أو ربما الإستجابة السريعة ليست في صالحك ، كما قال القديس
باسيليوس .

أحياناً يتأخر الله علينا في استجابة الطلبة ، لكي نعرف قيمتها . لأن الأشياء التي نناها بسهولة ، قد نفقدها بسهولة .

فيشاء الله أن تذلل بالخطية بعض الوقت ، حتى تعرف قيمة الخروج منها . وإذا أنعم عليك بالتوبة تشعر بفرح أعظم ، وتحرص عليها بكل قوتك ، لأنك لم تحصل عليها إلا بكل صعوبة وبعد وقت ... وحينئذ تكون في توبتك أكثر تدقيقاً ، وأكثر حرصاً وخوفاً من السقوط ...

٥ - أوعى تأخير التوبة ، سببه أن الله يريد أن يعرف مدى جديتك في طلب التوبة ، ومدى ثباتك في الطلبة .

٦ - وقد يكون تأخير الإستجابة بسببك ... فأنت الذي لا تريد ... حقاً تطلب بفمك ، أما قلبك فلا يريد . وأنت الذي تضع معطلات للتوبة . ويناسبك قول الكتاب « إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٣ : ٧) .

لذلك لا تطلب المعونة ، بينما تنام وتتراخى .

فعمل الله من أجلك ، ليس تشجيعاً لك على التهاون والكسل ، إتكالاً على عمل الله ! الله يريدك أن تعمل معه . هو يعمل لتوبتك ، وأنت تشترك معه . هو يقدم لك المعونة ، وأنت لا تضع المعطلات بإرادتك ، ولا تترك أبوابك مفتوحة للخطية ... وباختصار أدخل بكل إمكانياتك - مهما كانت ضئيلة - في شركة مع الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) .

قدم رغبتك أولاً ، وقدم استسلامك لعمل الله فيك . وقدم ما تستطيعه من عمل .

ومع ذلك لا تتضايق . لقد خلص الله كثيرين لا قدرة لهم على عمل شيء ...

هناك أشخاص لم يعملوا شيئاً : نازفة الدم مسّت هذب ثوبه في إيمان . وصاحب اليد اليباسة ، قال له الرب مديك قدّها . والمولود أعمى طلب إليه أن يغتسل في بركة سلوام فذهب واغتسل (يو ٩ : ٧) .

ولكن غير هؤلاء من لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً ، مثل المغلوج الذي دلوه من السقف (مر ٢ : ٤) . ومثل الجريح الذي حمله السامري الصالح ، وكان ملقى على الطريق ما بين حى وميت (لو ١٠ : ٣٠) . ومثل مريض بيت حسدا ، الذي

استمر ثمانى وثلاثين سنة عاجزاً عن الوصول إلى الشفاء (يو ٥ : ٥) . وكذلك كل أصحاب العاهات المستعصية ...

ماذا فعل هؤلاء ، من أمثال المفلوج وأشباهه ؟ لا شيء .

وبالمثل كل الموقى الذين أقامهم السيد المسيح ...

أكان باستطاعة الميت أن يفعل شيئاً ، ليتخلص من الموت ؟! كلا . بلا شك . والخطاىء يعتبر ميتاً ... ميتاً بالخطية (أف ٢ : ٥) . له إسم أنه حى ، وهو ميت (رؤ ٣ : ١) . إن كان لا يستطيع شيئاً ، فالمسيح قادر أن يقيمه .

لذلك لا تيبأس ولا تقلق . إن كل هذه الأمثلة فى رموزها تعطينا فكرة عن أن :

الله يبحث عن خلاص الخطاة ، الذين يقدرُونَ والذين لا يقدرُونَ .

الذى يقدر كالابن الضال ، الذى يستطيع أن يرجع إلى بيت أبيه . والذى لا يقدر مثل الخروف الضال والدرهم المفقود . وقد ورد ذكر الثلاثة فى أصحاب واحد (لو ١٥) . ولرب فى غير القادرين شرط واحد ، وهو أنهم لا يقاومون عمله لخلاصهم ...

ومن أمثلة الذين لا يقدرُونَ « العاقر التى لم تلد » (أش ٥ : ١) . وكانت رمزاً للنفس العقيمة التى لا تعطى ثمراً للروح . وقد جعلها الله مخصبة أكثر من ذات البنين ...

بل هناك أشخاص خلصهم الله دون أن يطلبوا ...

مشال لوط الذى قبل الرب شفاعة إبراهيم فيه ، فأخرجه من سدوم ، بينما لوط نفسه لم يطلب ... ولما أخبره الملاك أن سدوم ستحترق كان متباطئاً فى الخروج . ويقول الكتاب فى ذلك « كان الملاكان يعجلان لوطاً ... ولما توافى ، أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه ، لشفقة الرب عليه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة » (تك ١٩ : ١٥ ، ١٦) .

إن عبارة « لشفقة الرب عليه » عبارة معزية . ولا شك .

الله الذى أشفق على كل هؤلاء ، هو أيضاً فليشفق عليك ، ولينحك التوبة من عنده ، ويقودك إليها ، وينزع منك قلب الحجر ويعطيك قلباً جديداً (حز ٣٦ : ٢٦) .

مبارك هو الرب فى كل أعمال محبته ، وفى سعيه لخلاص الكل ...

علامات التوبة

ثمار تليق بالتوبة :

- الإعتراف بالخطأ .
- الحزى والحنجل .
- الندم والألم والدموع .
- الإنسحاق والإتضاع .
- إصلاح نتائج الخطأ .
- الإشفاق على المخطئين .
- مشاعر أخرى .
- الحرارة الروحية .
- السير في الحياة الفاضلة .
- التقاوة .

ثمار توبى بالتوبة

إن القديس يوحنا المعمدان الذى نادى قائلاً « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . نادى مع هذه العبارة قائلاً « إصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » (متى ٣ : ٨ ، لو ٣ : ٨) .

وهذا ما فعله القديس بولس الرسول أيضاً الذى كان ينادى جميع الذين كانوا فى كورة اليهودية ثم الأمم « أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله ، عاملين أعمالاً تليق بالتوبة » (أع ٢٦ : ٢٠) .

التوبة إذن ليست مجرد عمل قلبى ، إنما هناك أعمال وأثمار تليق بها وتدل عليها . وكما قال الكتاب « من ثمارهم تعرفونهم » (متى ٧ : ١٦ ، ٢٠) .

فما هى هذه الثمار التى تدل على أن الإنسان تائب ؟

نود أن نتناولها فى هذه الصفحات واحدة فواحدة ، لكىما يختبر بها كل إنسان نفسه : هل هو تائب أم لا ؟ ويعرف بها مدى صدق توبته ...

١- الاعتراف بالخطية^(١)

والإعتراف بالخطية ، يشمل أربع نقاط هامة وهى :

أ - الإعتراف بالخطية على الله فى الصلاة :

ذلك لأن الخطية موجهة أصلاً إلى الله ، كما اعترف داود النبي فى المزمور الخمسين قائلاً للرب « لك وحدك أخطأت » (مز ٥٠) . ومثل اعتراف دانيال النبي « أخطأنا وأثمنا ، وعملنا الشر قدامك ، وتمردنا وحدنا عن وصاياك » (دا ٩ : ٥) . ومثل اعتراف نحميا قائلاً « أنا وبقي قد أخطأنا . لقد أفسدنا أمامك ، ولم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التى أمرت بها موسى عبدك » (نح ١ : ٦ ، ٧) . وهكذا أيضاً اعترف عزرا الكاتب (عز ٩ : ٦) .

(١) عن محاضرة بتاريخ ١٩٦٨/٢/٢٤ مع محاضرات أخرى .

أنت أخطأت إلى الله . إلى قلبه الحنون ، وإلى عظمته .
أخطأت إلى القلب المحب العطوف الذى تولاك بالناية والرعاية والحب والستر،
فبعدت عن محبته ، ودنسنت هيكله المقدس الذى هو أنت . وأحببت العالم أكثر
منه ... وتهاونت بعظمته وكسرت وصاياه . ولهذا قال ناثان لداود « لماذا احتقرت
كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه » (٢ صم ١٢ : ٩) .

عجيب : يخجلون من أب الإعراف ، ولا يخجلون من الله !
وبنفس الوضع يخجل الإنسان من أن يرتكب خطية أمام الناس ، ولا يخجل
من ارتكابها أمام الله ! وقد خجل داود من عدم خجله فى ارتكابه الخطية أمام الله ،
لذلك قال له « لك وحدك أخطأت . والشر قدامك صنعت » (مز ٥٠) . وهكذا
قال دانيال « عملنا الشر قدامك » ... ومع ذلك أحالنا الله إلى من نخجل منه .

ب - الإعراف على الأب الكاهن .
باعتباره وكيلاً لله أو خادماً له ، وليس بصفته الشخصية . فالذى يعترف عليه
إنما يعترف على الله فى سماع الكاهن . ويذكرنا هذا بقول يسوع بن نون لصحان بن
كرمى « إعراف لله وأخبرنى ماذا فعلت . لا تخف عني » (يش ٧ : ٩) .

والإعراف على الكاهن معروف فى العهدين القديم والجديد .
كل الذين تقدموا إلى معمودية التوبة من يوحنا المعمدان الكاهن « إعتمدوا منه
فى الأردن ، معترفين بخطاياهم » (متى ٣ : ٦) . والخطاىء فى العهد القديم ، كان
حسب الشريعة « يقر بما قد أخطأ به ، ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه » (لا ٥ :
٥ ، ٦) . وفى العهد الجديد « كان كثير من الذين آمنوا ، يأتون مقرين ومخبرين
بأفعالهم » (أع ١٩ : ١٨) .

ويعترف الخطيىء على الكاهن ، لينال الحبل والسماح بالتناول .
والخجل أمام الأب الكاهن فى الإعراف ، مفيد يساعد على عدم معاودة
الخطية . لأن الخوف من خجل الإعراف يجعله لا يرتكب الخطية مرة أخرى ... إلى
أن يرتق روحياً فيتعود الخجل من الله الذى يراه ويسمعه أثناء خطيئته . كما أن
التناول مع خجل الإعراف ، يذكرنا بأكل خروف الفصح على أعشاب مرة (خر
١٢ : ٨) .

ويجب امتزاج الإعتراف بالتوبة ، وقد سمي سر التوبة .

إنه ليس تصفية لحساب قديم ، للبدء في فتح حساب جديد ! إنما هو توبة ، والإعتراف إحدى علاماتها . والإعتراف هو أن يكشف الإنسان ذاته ، ويدين ذاته . لذلك يحتاج إلى اتضاع وانسحاق ، وخشوع أيضاً . ولهذا لا يجوز أن يكون مجرد حكايات يحكيها المعترف للأب الكاهن . كما لا يجوز فيه أن يبرر المعترف ذاته ، أو يدافع عن نفسه ، أو يلصق مسؤولية أخطائه بالآخرين ، أو يحول الإعتراف إلى شكوى ... ! ففي كل هذا يكون الإعتراف قد خرج عن معناه كعلامة للتوبة ، وجزء من عناصرها ...

تحدثنا عن الإعتراف على الله والأب الكاهن . ننتقل إلى النوع الثالث .

ج - الإعتراف على من أذنبت إليه .

وذلك لكي ترضى قلبه من جهتك وتصلحه ، عملاً بقول الرب « أترك قربانك قدام المذبح ، واذهب أولاً إصطليح مع أخيك » (متى ٥ : ٢٤) . وهكذا تقول له « أخطأت إليك في كذا وكذا ، فاغفر لي » . وهو يغفر لك عملاً بقول الكتاب « إن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم ، ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلاً : أنا تائب ، فاغفر له » (لو ١٧ : ٤) .

يبقى النوع الرابع من الإعتراف ، وهو :

د - إعترافك بينك وبين نفسك أنك أخطأت .

وهذا هو المصدر لكل الإعتراقات الثلاثة التي ذكرناها ، ويسبقها في الزمن . لأنه إن لم تعترف داخل نفسك أنك أخطأت ، فعلى أى شيء إذن ستعترف على الله ، أو على الأب الكاهن ؟! وكيف تعترف على من أذنبت إليه ، إن كنت لا تشعر أنك أذنبت في شيء ... إذن لابد أن تحاسب نفسك ، وتشعر في أعماقك باقتناع كامل أنك أخطأت . لأنه بدون هذا لا تكون توبة ولا يكون اعتراف . وقد قال القديس مقاريوس الكبير :

أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك .

وقال أب رهبان جبل نتريا للقديس البابا ثاوفيلس « صدقني يا أبى لا يوجد أعظم من أن يرجع الإنسان بالملامة على نفسه في كل شيء » ...
إذن لا بد أن تدين نفسك أولاً داخل قلبك . وهذا سيدفعك أن تدين نفسك

أمام الله ، وأن تدين نفسك أمام الأب الكاهن .

والذى لا يدين نفسه ، لا يمكنه أن يتوب .

العشار أدان نفسه . حكم على نفسه أنه خاطيء . لذلك أمكنه أن يقف في الهيكل بخشوع يقدم توبة ، ويطلب مغفرة ، ويخرج مبرراً (لو ١٨ : ١٣) . أما الفريسي الذى لم يكن يدين نفسه فى شيء ، فلم يجد فى حياته خطأ يقدم عنه توبة ، أو يطلب عنه مغفرة !!

إن الذى يشعر أنه سليم تماماً ، هل من المعقول أن يسعى إلى الطبيب أو يطلب شفاء ؟ هكذا من الناحية الروحية : لا يطلب التوبة إلا من يعترف بأخطائه .

لما كان داود لا يحس بخطيئته ، لم يقدم توبة ...

لقد أخطأ داود ، ووسط دوامة الخطيئة ، ما كان يفكر مطلقاً فيما قد فعله . لذلك لم يقدم ندماً ولا توبة . واضطر الأمر أن يرسل الله له ناثان النبي ، الذى كشف له ثقل خطيئته وبشاعتها . فاعترف داود أنه أخطأ (٢ صم ١٢ : ١٣) . ومن ذلك الوقت فقط بدأت قصة توبته .

ويؤيب أيضاً ما كان يعرف أنه محارب بالبر الذاتى .

لذلك دخل فى جدل طويل مع أصحابه الثلاثة ، بل كثرت شكواه من الله نفسه ، وقال له « فى علمك أننى لست مذنباً ، ولا منقذ من يدك » (أى ١٠ : ٧) . « لأنه يعرف طريقى . إذا جربنى أخرج كالذهب » (أى ٢٣ : ١٠) . وهكذا كان أيوب بارأ فى عينى نفسه « (أى ٣٢ : ١) . واحتاج الأمر أن يرسل له الله اليه برخييل البوزى ليكشف له نفسه ، بل أن يكلمه الله ويشرح له ... إلى أن وصل أيوب أخيراً إلى انسحاق النفس ، وقال للرب « ها أنا حقير ، فاذا أجابوك . وضعت يدي على فمى » (أى ٤٠ : ٤) . وقال أيضاً « قد نطقت بما لم أفهم . بعجائب فوق لم أعرفها » (أى ٤٢ : ٣) .

أكثر أمرين يمنعان الإعتراف والتوبة ، الأعذار والبر الذاتى .

كان يعتذر الإنسان بضعفه ، أو بضعف الطبيعة البشرية عموماً ، أو بشدة الحروب الخارجية ، أو بأنه ارتكب الخطيئة عن جهل أو نسيان ، أو كان فيها ضحية لغيره . أو يلصق المسؤولية بغيره : فيتهم الكنيسة بعدم رعايتها له ، أو يتهم أب اعترافه

بعدم الإهتمام به ، أو يعاتب الله نفسه لأنه لم يرسل معونة...
أما التائب الحقيقي ، فلا يتم إلا نفسه ، حاملاً عار خطيئته بنفسه . ويقف
أمام الله كمنذوب لا يبرر ذاته ، كما حدث للص اليين الذى اعترف قائلاً « نحن
بعدل جوزينا ، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا » (لو ٢٣ : ٤١) .

إن الأعداء تحاول أن تغطى على الخطية ، أو تخفف ثقلها .
أما البر الذاق فهو أخطر ، لأنه ينكر وجود الخطية .
إنه أخطر من الأعداء التى تعترف بوجود الخطية ، وإنما تحاول أن تهرب من
مسئولياتها ، أو تقلل منها . أما البر الذاق ، فلا يرى أن شيئاً خاطئاً قد حدث منه .
لذلك ويخ الرب الفريسيين « اللواتين بأنفسهم إنهم أبرار » (لو ١٨ : ٩) . وقال
إنه « لم يأت ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (متى ٩ : ١٣) . حقاً هؤلاء الذين
يرون ذواتهم أبراراً ، ونفوسهم جميلة فى أعينهم... ربما ينطبق عليهم قول الكتاب
« يوجد بار يبيد فى بره » (جا ٧ : ١٥) . هؤلاء بعيدون تماماً عن التوبة .

وإن واجهتهم بأخطائهم ، يجادلون كثيراً ، ولا يعترفون .
إن الساء لا تفرح بتسعة وتسعين (باراً) من أمثلة هؤلاء ، الذين يرون أنهم
« لا يحتاجون إلى توبة » (لو ١٥ : ٧) . بل تفرح بالخطيئة المنسحق فى توبته ،
معتزلاً بأخطائه .

الأخطاء التى يعترف بها ، هى التى يتوب عنها ويطلب مغفرة .
إننا نندم فقط على الخطايا التى نعرفها ونعترف بها . ونحتاج أيضاً أن نندم على
الخطايا التى سوف نعرفها عن ماضينا ، حينما يكشفها الله لنا فيما بعد ، أو التى
تتكشف لنا من خلال قراءة الروحانية وما نسمعه من العظات ومن أفواه المرشدين
والآباء . فنبداً أن نتوب عنها . وهكذا نمضى فى توبتنا ، وننمى اعترافنا بأخطائنا .
مقاييسنا الروحية تصبح أكثر حساسية ، وموازيننا تصبح أكثر دقة :

فلا نعرف فقط أخطائنا ، إنما بالأكثر نشعر بثقل هذه الخطايا وبشاعتها . إن
داود النبي لما عرف عمق خطيئته ، صار له عمق فى التوبة ، وعمق فى انسحاق
القلب وتذلل أمام الله... لذلك علينا أن نتعمق فى الفهم الروحي لنعرف حالتنا
تماماً .

وجائز أن فضائلنا التي نفتخر بها الآن ، نبكى بسببها فيما بعد .
نبكى على ضآلتها وتفاهتها وضعف مستواها ، كلما تتسع أمامنا الآفاق الروحية
والرؤية الروحية ... ونبكى أيضاً على افتخارنا بهذه الفضائل ...
المهم أن تكون لنا المعرفة الحقيقية ، سواء بأخطائنا أو نقائصنا .

وبالإعتراف يستحق الإنسان المغفرة ...

وذلك حسب قول القديس يوحنا الرسول « إن قلنا إنه ليس لنا خطية ، نضل
أنفسنا وليس الحق فينا . إن اعترفنا بخطايانا ، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا
خطايانا ، ويظهرنا من كل إثم » (١ يو ١ : ٨ ، ٩) .

والإعتراف ليس هو مجرد كلمة : أخطأت .

لقد قال عخان بن كرمي هذه الكلمة بعد فوات الفرصة (يش ٧ : ٢٠) . إذ
ظل بعيداً عن الإعتراف طول الوقت ، إلى أن أشار الرب إليه بالإسم . فاضطر أن
يعترف . ولم ينسل سماحاً ، بل رجته كل الجماعة .

وهذا الإسخرىوطى قال : أخطأت (متى ٢٧ : ٤) ، ومات هالِكاً .

وفرعون - عن سياسة ، وليس عن توبة - قال : أخطأت (خر ٩ : ٢٧) .
وكررها مرة أخرى فقال لموسى وهرون « أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآب
إصفا عن خطيئي هذه المرة فقط » (خر ١٠ : ١٦) . ومع ذلك هلك فرعون ، لأن
قلبه لم يكن تائباً ...

الإعتراف الذى نقصده ، هو النابع من التوبة .

هو علامة من علامات التوبة ، وعنصر من عناصرها . أما الإعتراف بغير توبة ،
فلا يفيد شيئاً .

مادمنا إذن فى الجسد ، ومادامت أمامنا فرصة للتوبة ، قبل أن يغلق الباب ،
فلنفضح إذن ذواتنا ، ولندرك خطايانا ، ونعترف بها ، مقدمين بذلك توبة ... وهكذا
تتغلى الخطية بدم المسيح ، وننال عنها جِلاً . كما ننال أيضاً حلاً عن طريق
الإرشاد الروحى للسير فى الطريق السليم .

والإعتراف المزوج بالتوبة فيه ترك للخطية وندم عليها .

ومن علامات التوبة أيضاً :

٢- الخجل والحزى^(١)

الخجل والحزى بصاحبان التوبة ، متى شعر التائب ببشاعة الخطية .
وكأنه يقول لنفسه : كيف أمكن أن أسقط إلى هذا المستوى ؟ أين كان
عقلي ؟ وأين كان ضميري ؟ حين فعلت هذا ... كيف ضعفت هكذا ؟ وكيف
استسلمت ؟ وكيف نسيت صوريّ الإلهية ، ووضعى الروحي ؟!

إنه يخجل من خطيته ، التى تقف أمامه كل حين (مز ٥٠) .
تطارده صور الخطية كأنها سياط من نار تلهب ضميره ، فيشعر بخجل من
نفسه . وقد يخفى وجهه ويضع يديه على عينيه ، كأنه لا يريد أن يرى . هو أمام
نفسه إنسان قد ضبط فى ذات الفعل .

ولا يستطيع أن يرفع وجهه إلى الله من شدة خجله .
مثل العشار الذى قيل عنه إنه « وقف من بعيد ، لا يشاء أن يرفع عينيه نحو
الساء » (لو ١٨ : ١٣) . بل قرع صدره معترفاً بخطيته طالباً الرحمة .
ومثال الإبن الضال ، الذى من فرط خجله قال لأبيه « لست مستحقاً أن
أدعى لك ابناً » (لو ١٥ : ١٩) .

وكلما يتذكر خطيته ، يقول مع المرتل فى المزمور :
اليوم كله خجلت أمامى ، وخزى وجهى قد غطاني (مز ٤٤ : ١٥) .
وكأنه يقول مع دانيال النبى « لك يا سيد البر . أما لنا فخرى الوجوه » (دا
٧ : ٩) . إنه يخجل من عار الخطية ومن فضيحتها . ويخجل من دنس الخطية ومن
نجاستها . ويخجل من هزيمته أمام الخطية ، كما لو كان جندياً سلم سلاحه للعدو
وأخذ أسيراً ...

ويخجل من محبة الله له ، ومن قدسية الله ...
يخجل كلما قارن معاملته لله ، بمعاملته الله له . وكيف أنه قابل محبة الله بالجهود

(١) أنظر كتابنا (اليقظة الروحية) فيه فصل عن الخجل والحزى كأحد المشاعر التى تصاحب
اليقظة الروحية (من ص ٦٥ إلى ص ٧٤) .

والنكران، بل وبالحيانة أيضاً... وكيف أن الله كان يراه في سقطاته، الله الكل القداسة والكمال... ويخجل من طول أناة الله عليه، وكيف صبر عليه حتى تاب.

ويخجل من أرواح القديسين والملائكة .

الذين كانوا يرونه في سقطته ويتعجبون ، ويصلون من أجله لكي يقوم... بل يخجل أيضاً من أرواح أقربائه وأصدقائه الذين انتقلوا، وكيف إنهم لا بد تعجبوا إذ رأوا أن حالته هكذا...! كيف يواجههم فيما بعد.

بل يخجل من أعدائه الذين يشتمون به إن عرفوا سقطاته .

هو يخجل من كل هؤلاء ، بل يخجل أيضاً من الكنيسة وقيادتها ، ويخجل من الهيكل والمذبح ومن التقدم للتناول . ويخجل من صلواته التي فيها عبارات عن محبة الله والإلتصاق به، وهو الذي فصل نفسه عن هذه المحبة...

ويخجل من وعوده التي وعد بها الله قبلاً .

وكيف أنه حنث بكل عهوده ، حتى تلك التي كلم الله فيها بمجدية كبيرة، وربما كان ذلك أمام المذبح، أو وهو واضح يده على الإنجيل، أو في مناسبات روحية...

ويخجل أيضاً في اعترافاته ، كلما يذكر بشاعة خطاياهم .

نفسه تصغر في عينيه . ويشعر باحتقار هذه النفس في حالة سقوطها وضعفها، وكأنه يريد أن يتبرأ من ماضيه كله . ويخزي من نسبة هذا الماضي إليه...

ومع هذا كله ، فالخزي من الخطية علامة صحية .

إنها تدل على أن الإنسان رافض لها ومشمئز منها . وهذه علامة على نقاوة القلب، وتختلف عن حالة السقوط التي كان فيها قابلاً للخطية أو راضياً عنها أو ملتبساً بها . وإن بقي معه هذا الخزي من الخطية، فإنه يساعده على عدم السقوط في المستقبل .

وهناك أنواع من الناس تحاول الهروب من الخزي والنجس .

وذلك بأعمال خاطئة تدفعهم إلى التنادي في الخطية . إذ قد يستغل الشيطان خجلهم من خطاياهم السابقة ، ويدفعهم إلى تغيير الوسط الديني الذي يعيشون فيه، والذي ينجلون من مقارنة سقطاتهم بنقاوته، أو يدعوهم الى تغيير أب الاعتراف، إذ

يُجلبون من سرد خطاياهم أمامه ، أو إلى ترك الإعتراف كله ، أو ترك الكنيسة وحياة التدين . أو إنهم يهربون من خجلهم ، بالإستغراق في حياة الترفيه واللهو والضحك ...

وكل هذه تصرفات يائسة ضد حياة التوبة .
لذلك نحن نطوّب التائبين الذين يشعرون بالخرى من خطاياهم .
ويرافق هذا الخزي أيضاً الندم والدموع ووخز الضمير .

٣- الندم والالام والدروع

الألم بسبب الخطيئة ، علامة من علامات التوبة الحقيقية .
وعنه قال داود النبي في المزمور السادس « لأن عظامي قد اضطربت ، ونفسي قد انزعجت جداً » (مز ٦) . حقاً إن السيد المسيح قد تألم عن خطايانا ، ولكن يجب أن ندخل معه في « شركة الآلام » (في ١٠ : ٣) .

وألم التائب بسبب الخطيئة ، يتوازن مع لذته السابقة بها .
هذه اللذة التي حصل عليها قبلاً ، يردّها في التوبة أربعة أضعاف ، بتحمل آلام ووخز الضمير وتبكيته . بل إن عبارة « البكاء وصرير الأسنان » يقاسيها حرفياً في توبته بمقياس ما ، في جحيم يجوزه هنا على الأرض ، كالمحرقة التي تحتاز النار إرضاء لقلب الله (لا ١) . وقد يبكّت نفسه تبكيتاً شديداً ، ويؤدبها ويعاقبها بعنف . بل قد يطلب من أب الإعتراف عقوبات روحية ، لعل ضميره يستريح ولو قليلاً .
فبالعقوبات يعلن احتجاجة على خطاياها .

الذي يتوب حاملاً عاره ، يقبل نوعين من العقوبة .
النوع الأول هو العقوبات التي يفرضها على نفسه ، سواء بالتوبيخ المر ، أو بحرمان من أشياء تحبها نفسه ، لتزهد هذا العالم الذي أحبته قبلاً .

(١) محاضرة الدموع قديمة ، ترجع إلى سنة ١٩٦٤ . أضيفت إليها محاضرة بعنوان (يحمل عاره) أقيمت في الكاتدرائية الكبرى يوم ١٩٧٤/٤/٧ .

والنوع الثانى هو كل عقوبات تأتية من الخارج ، سواء من الله أو من الناس .
فيقبل كل تلك العقوبات برضى ، وبغير تذمر ولا شكوى ، وهو مقتنع بها وشاعر
أنها أقل مما يستحق .

حقى العقوبات التى تصيبه ظلماً ، يقبلها أيضاً برضى .

مثلاً حدث للقديس مار افرام السريانى الذى سجن مرة ظلماً ، فقبل هذا وقال
إنه يستحقه عن خطية قديمة لا علاقة لها بهذا الموضوع . ومثلاً قبل داود النبى تعبير
وشتائم شمعى بن جيرا (٢ صم ١٦ : ٥ - ١٠) . ومثلاً قبل القديس موسى الأسود
طرده يوم سيامته قساً وقال لنفسه «حسناً فعلوا بك يا أسود اللون يا رمادى
الجلد...» .

الذين لا يحتملون الأدب ولا العقوبة ، هم بعيدون عن التوبة .
لأن التائب الحقيقى يشعر باستحقاقه لكل ما يأتى عليه . ولا يرفض مطلقاً ما
تجلبه الخطية من مرارة ، بل يقبلها بشكر ، حاملاً عاره . والألم نتيجة واضحة
للخطية ، كما حدث لأدم وحواء (تك ٣ : ١٦ ، ١٧) . لا يجوز الهروب منها .

وكلما استمرت العقوبة فترة أطول ، يتنقى القلب بالأكثر .

مثل الفسيل الذى يستمر فى الغل فترة طويلة ، يصبح أكثر نظافة . ومثل
الذهب الذى يبقى فى النار فترة مناسبة ، يتنقى من الشوائب . وعلى عكس هذا فإن
الذى ينال الفخرة بسهولة ، هارباً مما تجلبه الخطية من ألم ... هذا ما أسهل أن يرجع
إلى الخطية مرة أخرى ، إذ لا يشعر ببشاعة نتائج الخطية ... !

لا تقل الرب حمل عنى كل الآلام ، وأنا أستريح !

لا تنظر إلى آلام المسيح بهذه اللامبالاه ، مفكراً فى ذاتك وحدك . وتذكر أن
الذين تناولوا الفصح ، إنما أكلوه على أعشاب مرة (خر ١٢ : ٨) . فما مركز
الأعشاب المرة فى حياتك ؟ وما مدى دخولك فى شركة آلام المسيح ؟
إن رأيت المسيح يحمل الصليب فداء لخطاياك ، إجر وراءه وقل له «أعطني أن
أحمله معك كالقيروانى (لو ٢٣ : ٢٦) . أو قل له فى ألم :

أنا يارب صليبك ، حملتني هذا الزمان الطويل كله .

أنا يارب الأشواك التى وضعوها حول رأسك . أنا المسامير التى ثقبوا بها يديك

وقدميك . ليتنى أصلب معك مثل اللص اليمين . أو ليتنى أقول مع بولس الرسول
 «مع المسيح صُلبت...» (غل ٢ : ٢٠) . ولا تدع آلام المسيح عنك تدعوك إلى
 الاستهتار وأنت تنظر إلى خطاياك بغير ألم .
 وإن كان يجب علينا أن نخرج مع الرب خارج المحلة حاملين عاره (عب ١٣ :
 ١٣) ، فعلى الأقل : لنحمل عار أنفسنا ، فى مذلة وفى دموع .

الدموع

الدموع أنواع كثيرة . ولكننا هنا نتكلم عن نوع واحد منها ، وهو دموع التوبة ،
 التى يبكى بها الإنسان على خطاياها .
 لا تظنوا أن البكاء على الخطايا ، هى درجة للمبتدئين . فكثير من القديسين
 الكبار كانوا يبكون على خطاياهم . بل كان هذا هو منهج روحى معروف لأباء
 البرية ...

ولعل أبرز الأمثلة للبكاء على الخطية ، داود النبي .
 هذا الذى قال «فى كل ليلة أعوم سريرى ، وبدموعى أبلى فراشى» (مز ٦ :
 ٦) . كم كانت كمية بكاء هذا النبي التائب ، الذى كان يعوم سريره بدموعه ؟
 فهل كان يبكى على خطاياها ، حينما يعود إلى بيته فقط فى نهاية كل يوم عند
 المساء ؟ كلا ، فهو يقول «صارت دموعى لى خبزاً نهاراً وليلاً» (مز ٤٢ : ٣) .
 حتى أثناء أكله وشربه ، يقول «أكلت الرماد مثل الخبز ، ومزجت شرابى بالدموع»
 (مز ١٠٢ : ٩) . أى أنه فيما هو يشرب ، تتساقط دموعه فى كوب شرابه ، فيمزج
 شرابه بالدموع .

وكانت دموعه غزيرة ، على الرغم من العظمة المحيطة به .
 إذ كان ملكاً ، وقائداً للجيش ، وقاضياً للشعب ، ورب أسرة كبيرة . ومع
 ذلك ، فهو لا يهتم بكل هذه العظمة وهذا الترف حتى يقول للرب «انصت إلى
 دموعى» (مز ٣٩ : ١٢) . ويقول له «اجعل دموعى فى زق عندك» (مز
 ٥٦ : ٨) .

ولعل إنساناً يسأل : لماذا أبكى وخطيئ قد غفرت ؟

فنتقول له : إن داود بكى على خطيئته بعد أن غفرت ، وليس قبل ذلك . فقبل المغفرة ما كان يحس بخطورة سقطته وبشاعتها ، إلى أن نابه ناثان النبي إلى ذلك ، فاعترف بخطيئته ، وغفر له الله على لسان ناثان النبي الذى قال له « الرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) . وبعد ذلك بكى داود كل ذلك البكاء ... فلماذا بكى ؟ هل كان ذلك خوفاً من عقوبة أو طلباً لمغفرة ؟ كلا .

إن العبد يبكى خوفاً من العقوبة .

أما الإبرن فيبكى من حساسية قلبه تجاه أبيه .

فن منا بكى مثل بكاء داود ؟ من منا عوم سريره بدموعه ليلة واحدة ، وليس فى كل ليلة مثله ؟ لقد ظل داود يبكى على خطيئته طول حياته . ولم يسترح من بكائه إلا عند موته . فحينما اقترب من الموت قال « إرجعنى يا نفسى إلى موضع راحتك ، فإن الرب قد أحسن إلى . وأنقذ نفسى من الموت ، وعينى من الدموع » (مز ١١٤) . أنقذه من الموت الأبدى بقبول توبته . وأنقذ عينيه من الدموع ، لأنه نقله إلى « الموضع الذى هرب منه الحزن والكآبة والتهد » . وأنقذه الرب من الدموع هناك ، لأنه بكى ههنا بما يكفى .

يذكرنا هذا بقصة القديس أرسانيوس الذى بكى كثيراً .

بكى وهو فى حالة القداسة ، وهو عمود فى البرية . بكى حتى تساقطت رموش عينيه من كثرة البكاء . وكان فى الصيف يبلل خوصه بالدموع . وكان يضع منشفة على حجره وهو جالس يستقبل فيها الدموع ... وساعة موته بكى كثيراً . فقال له تلاميذه « حتى أنت يا أبانا تخاف من هذه الساعة ؟ ! » . فقال لهم « إن خوف هذه الساعة ملازم لى منذ دخلت إلى الرهينة » ...

فإن كان هذا القديس يبكى ، على الرغم من فضائله الكثيرة ، وعلى الرغم من تواضعه ومن حكيمته وصمته ، وسهره طول الليل فى الصلاة ، وعلى الرغم من أن البابا كان يطلب زيارته ملتصقاً منه كلمة منفعة ... فإذا نقول نحن عن أنفسنا ؟ !
لذلك حينما سمع القديس الأنبا بيمن عن نياحة القديس أرسانيوس ، قال :
طوباك يا أبانا أرسانيوس لأنك بكيت على نفسك فى هذا العالم .

وتابع عبارته قائلاً « لأن الذى لا يبكى على نفسه فى هذا العالم ، لا بد سيبكى إلى الأبد فى العالم الآخر. أما بكاؤه ههنا فباختياره. ولكن هناك بسبب العذابات التى سينالها. ومن المستحيل على إنسان أن يفلت من البكاء هنا وهناك...

وكان هذا البكاء هو نصيحة القديس مكاريوس قبل وفاته .

قال القديس بلاديوس : سمعت أن الشيوخ الذين فى نتريا ، أرسلوا إلى أبأ مقاريوس الكبير الذى كان يسكن فى الإسقيط ، وتوسلوا إليه قائلين « نرجوك يا أبانا أن تأتى إلينا حتى نراك قبل أن ترحل إلى الرب ، لكي لا ينتقل كل الناس إليك » . ولما ذهب إليهم تجمعوا كلهم معاً إليه . وطلب إليه الشيوخ متوسلين أن يقول للأخوة كلمة منفعة . فبكى الرجل القديس وقال لهم :

فلنبك يا إخوتي ، ولتفرض عيوننا بالدموع ، قبل أن نذهب إلى المكان الذى تحرق فيه دموعنا أجسادنا .

فبكوا كلهم ، وسقطوا على وجوههم قائلين : صلّ عنا أيها الأب .

ماذا فعل القديسون من خطايا ، حتى بكوا هكذا ؟! ... وحتى كانت النصيحة المألوفة التى يقولها كل شيخ لمن يأق طالباً إرشاده « إجلس فى قلايتك ، وابك على خطاياك » ... إن كان هذا هو منهج القديسين ، فكيف بالأولى نفعل نحن ، ولنا خطايا لا تحصى ...

أنظروا أيضاً إلى بكاء رجل شيخ مثل بطرس الرسول ، هذا الذى لما أحس بنكرانه للرب « خرج إلى خارج ، وبكى بكاء مرأ » (متى ٢٦ : ٧٥) . إن بكاء الشيوخ أكثر تأثيراً فى النفس من بكاء الصغار والأحداث .

ومن الذين اشتهروا بالبكاء أيضاً ، القديس إيسيدوروس .

إنه قس القلاى العظيم ، الذى كان تحت إرشاده الروحي حوالى ثلاثة آلاف راهباً . وكان هو أب اعتراف القديس موسى الأسود . وكان رجل رؤى وعجائب ، وكان الشياطين يخافونه وهابونه جداً وهربون منه ... ومع ذلك كان هذا القديس يبكى بدموع غزيرة ، ويجيش بالبكاء بصوت عالٍ . لدرجة أن تلميذه الذى يسكن إلى جواره سمعه مرة يبكى ، فدخل إليه وسأله « لماذا تبكى يا أبى ؟ » فأجابه « أنا يا إبنى أبكى على خطاياى » . فقال التلميذ « حتى أنت يا أبانا ، لك خطايا تبكى

عليها؟!» فأجابته القديس : صدقتي يا إبني ، لو أن الله كشف لي كل خطايائي ، ما كان يكفي ثلاثة أو أربعة ييكون معي عليها...!

إنها حساسية في القلب المرهف ، والضمير الدقيق .

يبكى لأنه أغضب الله المحب ، ولأنه نزل عن المستوى الروحي اللائق به كصورة الله ، ولأنه سقط وما كان ينبغي أن يسقط . ويبكى خجلاً من حاله . ومهما غفرت الخطية ، هذا لا يمنع أنها حدثت...

لقد غفر الله نكران بطرس ، ولكن التاريخ لا يزال يتحدث عن ذلك النكران . وغفر الله لراحاب ، ومع ذلك فالكتاب المقدس يتحدث عنها بلقب «راحاب الزانية» (عب ١١: ٣١) .

والكنيسة تعملنا أن نبكى ، في كل يوم ...

فكل منا يقف ليصلي في المذبة الثانية من صلاة نصف الليل في كل يوم ليقول «أعطني يارب ينباع دموع كثيرة، كما أعطيت منذ القديم للمرأة الخاطئة...». وتطينا الكنيسة فصل الإنجيل الخاص بهذه المرأة التي بليت قدمي المسيح بدموعها ومسحتها بشعر رأسها (لو ٧: ٣٦-٥٠)، لكي نقرأه، ونتخذ هذه المرأة مثلاً لنا في البكاء على الخطية «لكي نفتني لنا عمراً نقياً بالتوبة» .

فإن صليت هذه الصلاة في نصف الليل ، قل : «أعطني يارب ينباع دموع كثيرة، لأبكي على كذا وكذا...»، واذكر أمام الله كل خطاياك وضعفاتك ونقائصك وسقوطك... وليتك تذكرها بدموع قدامه .

تقول : ولماذا أذكرها ، وقد غفرها المسيح ؟ ... هنا ، ويناسبنا جداً أن نتذكر قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس :

إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله ،

وإن نسينا خطايانا ، يذكرها لنا الله .

نعم أذكر خطاياك لكي تعرف ضعفك فتحترس وتدق في حياتك . واذكرها لكي تعرف كم غفر الله لك ، وكم حمل عنك على الصليب ، فتحبه . وتكون دموعك علامة حب ، كما كانت دموع المرأة الخاطئة .

القلب الرقيق هو الذي يبكي . أما القلب القاسي فلا يبكي .

فليكن قلبك رقيقاً في توبتك . وليكن بكائك نوعاً من الإعتذار تقدمه للرب
الذى أخطأت إليه ، وليكن بكائك دليلاً على خجلك مما فعلت . وثق أن الذى
يكى على خطاياها ، لا يرجع إليها بسهولة مرة أخرى . لأنه ذاق مقدار الألم الذى
تجلبه الخطية للقلب وللضمير...

والله يدعونا إلى بكاء التوبة هذا ...

فيقول في سفر يوثيل النبى « إرجعوا إلى بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء
والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم ، وارجعوا الى الرب إلهكم... » (يوه ٢ : ١٢ ،
١٣) . ويقول في سفر ملاخى النبى « مغطين مذبح الرب بالدموع بالبكاء
والصرخ » (ملا ٢ : ١٣) . كما يقول أيضاً « طوباكم أيها الباكون الآن » (لو
٦ : ٢١) ، « طوبى للحزانى ، لأنهم يتعزون » (متى ٥ : ٤) .

إليك إذن على خطيتك . وحينئذ سيعزيك قول المزمور :

الرب سمع صوت بكائى ... الرب لصلاقي سمع (مز ٦) .

قال داود هذا بعد قوله « وبدموعى أبلى فراشى » ...

إن الدموع علامة للتوبة ، ولها استجابة عند الرب . لها صوت يسمعه الرب ،
فيحن قلبه . وما أجل قول المثل :

الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالإبتهاج (مز ١٢٦ : ٥) .

هذا الإبتهاج هو التعزية التى يحصدها الإنسان من دموعه .

ولكن إحدرك من أن تكون دموعك مصطنعة ، أو أن تكون سبباً للبر الذاتى ،
بدلاً من أن تكون دموعك سبباً لانسحاق القلب ، أو نتيجة له ، أو علامة على
التوبة . وعلى رأى أحد القديسين « إذا أتتك الدموع ، فتذكر السبب الذى من أجله
جاءت » . أى تذكر خطيتك التى سببت لك الدموع . حينئذ لا ترتفع بدموعك بل
تنسحق ...

ولكن ربما يقول أحدهم : ومن أين لى الدموع ؟ وهل إذا لم أبك لا أكون
تائباً ، أو لا يقبل الله توبتى . كلا ، يقبلك الله . ولكن إبحث لماذا هربت منك
الدموع .

إن للدموع أسباباً تجلبها ، وأسباباً تمنعها .

ولعل السبب الأول هو نوعية القلب . فالقلب الرقيق بطبعه ، يكون سهل التأثر وسهل البكاء ، مثل قلب أرمياء النبي و مثل قلب داود... وهناك قلوب أخرى ليس من السهل أن تبكى . وإن بكت ، فلا بد أن يكون هناك سبب دفعها إلى البكاء كان أقوى من مقاومة طبيعتها . ويكون تأثيرها أكثر .

رقة القلب إذن تجلب الدموع . وتمنعها القسوة والعنف .

إذن إسع إلى هذه الرقة في حياتك ، وابتعد عن العنف . واعرف أن القسوة لا تتفق مطلقاً مع حياة التوبة . فالثائب إنسان يترجى مراحم الله . والكتاب يقول « طوبى للرحماء فانهم يرحمون » (متى ٥ : ٧) . فعليه إذن أن يكون رحيماً ، لكي يعامله الله بنفس الرحمة . لأنه يقول « بالكيل الذى به تكيلون ، يكال لكم » (متى ٢ : ٧) .

وإدانة الآخرين أيضاً تمنع الدموع .

لأن الذى يدين غيره ، لا يكون منشغلاً بخطاياهم ، وإنما بخطايا الآخرين . ويكون ناسياً لضعفاته وسقطاته ، ومركزاً على ضعفات غيره ، فكيف يبكى مثل هذا ؟ وعلى من ؟ ويزداد مثل هذا بعداً عن الدموع ، إن كانت إدانته لغيره فيها قسوة أو عنف أو تجن ، أو كان شديداً في توبيخ غيره على أخطائه .

ومن الأسباب التى تمنع الدموع : الغضب .

فالمفروض أن يغضب الإنسان الثائب على نفسه وليس على غيره . فإن غضب على غيره ، تتركز كل عواطفه وأفكاره في اخطائه غيره . وحينئذ تفارقه الدموع حتى إن كانت له من قبل . وفي الغضب أيضاً قسوة وعنف...

ومن الأشياء التى تمنع الدموع أيضاً : المتعة واللذة .

فالذى يحيا في رفاهة ومتعة ، في ملاذ العالم المتنوعة ، من الصعب أن تأتبه الدموع . وعموماً أمثال هذه الأمور لا تتفق مع حياة التوبة ، التى يضيق فيها الإنسان على نفسه ، ويعاقب ذاته ، ويحرمها من كثير من المتع ، ويفرض عليها أصواماً... ولهذا كانت التوبة عند كثيرين مصحوبة بالصوم والمسوح والتذل وإشهادها ، كما في الصوم أيام يوثيل ، وكما في صوم نينوى . وهذه تتفق مع التوبة ومع الدموع .

وطبعاً مما يبعد عن الدموع : الضحك والفرح .

حقاً إن لكل شيء تحت السموات وقت « فللضحك وقت ، وللبكاء وقت » (جا ٣ : ٤) . ولكن الضحك والمزاح ليس هو زمان التوبة ولا وقتها . وحياة اللهو والتكلم والفرح ومباهج الدنيا المختلفة ... كل هذه لا تتفق مع الدموع ، بل تعوقها ، لأن الذى يبكى على خطاياه ، هو إنسان يعصره الحزن على سقطاته ...

ومن الأشياء التى تجلب الدموع ، الشعور بغربة العالم . شعور الإنسان إنه غريب على الأرض ، لا يصح أن يضع آماله فيها . بل على العكس عليه أن يزهد العالم وكل ما فيه ، ويستعد لأبديته ... كل ذلك يساعد على الدموع .

وهكذا تذكّر الموت والدينونة والعالم الآخر . كل ذلك يجلب الدموع . ولذلك وضعت لنا الكنيسة أن نتذكر الموت فى صلاة النوم ، ونتذكر مجيء المسيح الثانى فى صلاة نصف الليل ، ونتذكر فى كليها وفى صلاة الستار أيضاً الدينونة العتيدة أن تكون ... وهذا كل يوم ... لأن كل هذه التذكارات نافعة لنا ، تساعدنا على التوبة والإستعداد ، كما أنها تجلب الدموع . وهكذا كانت زيارة القبور تجلب الدموع أيضاً ، إذ فيها يقول التائب مع داود النبي « عرفنى يارب نهايتى ، ومقدار أيامى كم هى ، لأعلم كيف أنا زائل » (مز ٣٩ : ٤) .

كذلك حياة الإنضاع والإنسحاق تساعد على الدموع . بينا الكبرياء والعظمة ومحبة المديح ... كل هذه لا تتفق مع مشاعر التوبة ، ولا تتفق مع الدموع . ولهذا يحسن أن ننقل إلى هذه النقطة من علامات التوبة .

٤- الانسحاق والانضاع

التائب الحقيقي يعيش بنفس منسحقة ، يعصره الخجل والندم ، ويشعر بمذلة الخطية . ويسلك بهذه المذلة داخل نفسه ، وأمام الله . ويظهر ذلك فى معاملاته للناس .

وهو في انسحاقه يبكث ذاته باستمرار على ما اقترفته .

يكتبها على أيام حياته التي ضاعت بلا ثمر ، ويكتبها على ضعفها وسقوطها ونحياتها للرب . ويقول لها « كثيرون غيرى سبقوني من زمان ، ووصلوا إلى علاقات حب عميقة مع الله ... وأنا مازلت أجاهد لأتوب ... ! فإلى متى هذا التواني والكسل ؟! » .

ينوح هذا التائب على ذاته التي سقطت ، متذكراً قول مار اسحق « التائب الذى لا ينوح فى كل يوم بسبب خطاياها ، فليعرف أنه أضاع ذلك اليوم ، ولو صنع فيه كل خير » ...

وتبكيته لذاته ، يجعلها تنضع ، معها تغيرت حياتها فى التوبة .

ومعها فعلت فى توبتها من حسنات ، فإنها لا ترتفع ، لأن خطيتها أمامها فى كل حين . والإنسان يذكّر نفسه بسقطاتها حتى لا ترتفع ، وحتى لا تدفعها ثمار التوبة إلى أفكار المجد الباطل . وكما قال مار اسحق أيضاً « إذا حوربت بأفكار المجد الباطل فلا تقبلها . إنما ذكّر مريم بزناها ، واسرائيل بانقلابه » ...
وبلومك لنفسك ومعرفتك لضعفك ، تقتنى اتضاع الفكر .

والتائب المتضع يرى أنه مستحق لكل حزن يصيبه .

لذلك فإنه يقبل كل ما يأتى عليه فى هدوء ورضى ، وبغير تذمر ولا تعب ولا شكوى ، شاعراً فى أعماقه أنه يستحق أكثر من هذا بكثير . بل يرتل مع داود قائلاً « خير لى يارب أنك أذللتنى ، حتى أتعلم حقوقك » (مز ١١٩) .

وكما طالبت فترة إنسحاق التائب ، تزداد توبته عمقاً .

لأنه يدرك مذلة الخطية ، وبشاعتها ، ونتائجها داخل نفسه . كما يدرك أيضاً ضعفه ، فيتمادى فى حياته الإحتراس والتدقيق . ومسكين هو الإنسان الذى فى التوبة ، يرى أن حياته قد تغيرت ، فيظن أنه لم يعد فى حاجة إلى جهاد وإلى إحتراس ، ناسياً ضعفه السابق ... !

خطورة على التائب ، أن يترك الإنسحاق بسرعة إلى الفرح .

فالخطية التى لم تأخذ فى التوبة حفظها من الإنسحاق والمذلة ، ما أسهل أن يعود الإنسان إليها ، لأن خطورتها وبشاعتها لم تنغرس طويلاً فى أعماقه .

إن داود لم يسرع في توبته إلى الفرح ، بل بقى منسحقاً تشهد مزاميره على انسحاقه . ورمم القبطية استمرت سنوات طويلة في انسحاق نفسها . ويعقوب المجاهد استمر حوالى ١٨ سنة يبكى على خطاياہ...

وفى حياة التوبة ، ما أخطر الذين ينتقلون بسرعة من الخطية إلى الخدمة أو إلى اشتباه المواهب .

وقد يقف إنسان حديث التوبة على منبر الكنيسة ، ليحكى خبراته الروحية ، فيقول فى بساطة « حينما كنت خاطئاً » أو « حينما كنت أعيش فى الخطية » ... كما لو كان حالياً لا علاقة له بالخطية ، التى هى من أخبار الماضى وحده ... ! وتساءله مثل هذا الإنسان « والآن ، ألا تخطئ ؟ » فيقول لك « الآن نشكر المسيح » يقصد أنه يشكره على البر الذى يعيش فيه ... بل قد يتحدث بكل جرأة عن النور الذى يضىء فى قلبه حالياً ، والحب الذى يملأ قلبه من نحو الله ...

ما أخطر عبارة « حينما كنت خاطئاً ... » .

إنها خالية من الإلتضاع . بل تدل على عدم معرفة حقيقية للنفس . وهى لا تتفق مع توبة العشار وصلاته فى الهيكل ، ولا مع قول بولس الرسول « الخطاة الذين أولهم أنا » . ولا تتفق مع كل قصص التوبة فى سير القديسين .

أنت يا أخى كنت خاطئاً ، ومازلت خاطئاً .

والفرق بين حالتك السابقة ، وحالتك الآن : أنك كنت خاطئاً ومستمرّاً فى الخطية ، وربما ماكنت تدرى بنفسك . أما الآن فأنت خاطئ ، وتشعر أنك خاطئ ، وتجاهد بنعمة الرب معك أن تتوب . والتوبة قد تستمر معك طول الحياة ، إلى أن تصل إلى النقاوة (١) .

إن الذى لا يشعر أنه خاطئ ، إنما يرتكب بهذا خطية أكبر .

لأنه لا يوجد أحد بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً .

كلنا نخطئ ، فى كل يوم . وكلنا نقف فى كل ساعة أمام الله كخطاة . وفى الصلاة الربية التى نصلحها باستمرار ، نقول « اغفر لنا خطايانا ... » . ونردد هذا فى

(١) أنظر الباب الخامس الخاص بحياة النقاوة فى هذا الكتاب ...

باقى صلواتنا . حتى لو كنت صديقاً ، هوذا الكتاب يقول « الصديق يسقط سبع مرات و يقوم » (أم ٢٤ : ١٦) .

ربما أنت الآن تائب . ولكنك لست معصوماً . ولن تصل إلى نقاوة القلب إلا بانسحاق النفس .

والذى لا يقتنى الإنسحاق ، ليس هو تائباً بالحقيقة .

إنه - لا شك - لا يعرف نفسه . وهو إنما يبني على أساس خاطيء يقوده إلى العجرفة . ما أجل تلك المديعة التى نقول فيها للرب « الخطية دى طبعى . وانت طبعك الغفران » .

اقرأ عن القديسين الذين تابوا ، واحتفظوا بمسكنة قلوبهم .

بل احتفظوا أيضاً بمذلة نفوسهم . وإن جاءهم فكر إنهم تابوا ، كانوا يرجعون الفضل إلى الله « المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المذيلة » (مز ١١٢) . ويصرون على اعتبار أنفسهم خطاة طول أيام حياتهم . مثل القديس العظيم الأنبا شيشوى الذى شاهدوه فى ساعة موته يطلب فرصة لكى يتوب .

لذلك مهما غوت فى النعمة ، الأفضل لك أن تقول :

أريد أن أبقي فى مشاعر التوبة طول عمري .

عش فى انسحاق القلب ، لأنه « قريب هو الرب من منسحقى القلب » (مز ٣٣) . وإن حاربك الشيطان أن تصعد إلى الدرجات العليا ، وأن تجلس فى السماويات ، وأن تحصل على المواهب ... فقل : أنا لم أصل بعد إلى شيء من هذا . كل ما أعرفه عن نفسى أننى خاطيء يريد أن يتوب .

وإن دخلت فى الخدمة ، لا تجعلها تنسيك خطيتك .

ولا تجعل نجاحك فى أى عمل روحى ، ينسيك دموعك وانسحاقك . بل على العكس وينح نفسك وقل : من أنا حتى أخدم . أنا لم أصل إلى روحيات الخادم ، مهما كانت لى من معلومات ... والمعلومات ليست هى التى تخلص النفس ...

إن بولس الرسول ظل منسحقاً حتى بعد الرسولية .

ظلت خطيته أمامه ، حتى بعد الرؤى والإستعلانات والعجائب ، وحتى بعد أن صعد إلى السماء الثالثة ، وبعد أن تعب أكثر من جميع الرسل (١ كو ١٥ : ١٠) .

ففي حديثه عن ظهور الرب لتلاميذه بعد القيامة ، يقول « وآخر الكل كأنه للسقط
ظهر لي أنا ، لأنني أصغر الرسل ، أنا لست أهلاً أن أدعى رسولاً ، لأنني اضطهدت كنيسة
الله » (١ كو ١٥ : ٨ ، ٩) . ثم يقول في رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس « أنا الذي
كنت قبلاً مجدفًا ومضطهداً ومفترياً . ولكنني رُحمت لأنني فعلت ذلك بجهل في عدم إيمان »
(١ تي ١ : ٣) .

ولعلنا نقول له : لست أنت أيها القديس العظيم بولس الرسول ، إنه شاول
الطرسوسي . أما أنت فشخص جديد في المسيح يسوع ، كارزاً ومبشراً ورسولاً وبانياً
للملكوت . ولكن هذا القديس يظل في انسحاقه ويقول « أنا الذي لست مستحقاً
أن أدعى رسولاً ... » .

خطيئته القديمة إنتهت من جهة العقوبة ، وليس من الذاكرة .
مازالت في ذاكرته ، تمنحه الإنسحاق ، والشعور بعدم الإستحقاق . وعلى الرغم
من السنوات الطويلة في الخدمة ، يحيا فيها كمبتدئ ، كأصغر الرسل ، كأول
الخطاة ...

عِش أنت أيضاً كمبتدئ ، كل أيام حياتك .
وكأنك لاتزال طفلاً في حياة الروح . وكيفيك أن « الرب يحفظ الأطفال »
(مز ١١٤) . ولا تظن مطلقاً أنك وصلت إلى هدفك الروحي . فبولس الرسول
العظيم يقول « لست أحسب نفسي قد أدركت أو نلت شيئاً ... لكنني أسعى لعل
أدرك » (في ٣ : ١٢ ، ١٣) . بل إن القديس العظيم الأنبا أرسانيوس كان يصل
قائلاً « هني يارب أن أبدأ » ... كأنه لم يبدأ بعد ... !
الإنسحاق علامة من علامات التوبة . ومن علاماتها أيضاً :

٥ - اصراع نتائج الخطأ

لا يكني مطلقاً أن تترك الخطية وتتوب عنها ، وتعترف بها وتنال الحل ... إنما
يجب أن تصلح نتائج خطيئتك على قدر ما تستطيع ... وستضرب لذلك بعض أمثلة :

لنفرض أن إنساناً سرق ، هل يكني أن يعترف بالسرقة ؟
هل اعترافه يكني للمغفرة ، بينما لا يزال يوجد عنده مال حرام حصل عليه

بالسرقة ؟ كلا . بل على قدر طاقته يعيد الشيء المسروق إلى أصحابه ، إن كان بإمكانه أن يفعل هذا ، ولو بطريقة غير مكشوفة...

وإن كان قد ظلم أحداً ، يحاول معالجة هذا الظلم .
وهذا أمامنا مثل واضح لتعليمنا هو زكا رئيس العشارين . هذا لما تاب ، قال للرب علانية « ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين . وإن كنت قد وشيت بأحد ، أرد أربعة أضعاف » (لو ١٩ : ٨) . فإن كنت لا تستطيع أن تفعل مثل زكا وترد أربعة أضعاف ، فعل الأقل رد المسروق نفسه ، أو ردّ الظلم وعالجه ، بدون أضعاف

إنك تشعر بجمال التوبة ، إن كنت فيها ترد الحق لأصحابه .
أملكك تشعر بخجل في ذلك ، إذ تعترف عملياً أنك ظلمت وسرقت . هذا خير لك ، لأن مثل هذا الخجل يكون كحصن لك يمنعك من ارتكاب هذه الخطيئة مرة أخرى . كما أنك في داخلك ، ستشعر بأن توبتك مبنية على قيم لها احترامها ، فيفرح قلبك ويتعزى ...

كذلك إن كنت قد شُهرت بأحد ، وأسأت إلى سمعته .
أليس من حقّه - في توبتك - أن ترد إليه اعتباره ، مادمت قد ظلمته وأسأت إليه ، وبخاصة من يشيع على أحد كلام كذب تكون له نتائج سيئة في حياته ...

فإذا إن كان إصلاح نتائج الخطيئة غير ممكن ؟
إن كان بالحق غير ممكن ، فعل الأقل تنسحق نفسك لهذا السبب ، أنك ارتكبت خطايا من الصعب علاجها ... !
علامة أخرى من علامات التوبة وهى :

٦- الانسحاق على الخطيئة

قال مار اسحق « الذى ينوح على نفسه ، ليس يعرف سقطات غيره ، ولا يلوم أحداً على إساءة » .

إن تاب إنسان ، ففى شعوره بالإنسحاق وعدم الإستحقاق ، لا يفكر مطلقاً فى خطايا غيره ، ولا يدين أحداً ، إذ هو نفسه واقع تحت الدينونة بسبب خطاياها . وكما

قال السيد للذين أرادوا رجم المرأة الخاطئة « من كان منكم بلا خطية ، فليرمها أولاً بحجر » (يو ٨ : ٧) .

حقاً إن المشغول بإخراج الخشبة التي في عينه ، لا يستطيع أن يدين القذى الذي في عين أخيه (متى ٧ : ٥) . وكلما يأتيه فكر إدانة لأحد ، يقول لنفسه : أنا سقطت في كذا وكذا . وهذا الإنسان أبر مني ، لأن خطايای أكثر منه بكثير...

إن الإنسحاق ينزع من قلب النائب كل قسوة ، ويعطيه رحمة على كل أحد منها أخطأ...

وتذكره لخطاياه يجعله يشفق على المخطئين ولا يدينهم ، بل يبكي لأجلهم كما كان يفعل القديس يوحنا القصير في انضاع قلبه . إذ كان حيناً يرى أحداً في خطية يبكي ويقول : إن كان الشيطان قد أسقط أخى اليوم ، فقد يسقطني غداً . وقد يفسح الرب لأخى فيتوب . وربما أسقط أنا ولا أتوب ... (ويبكي) .

ما أروع الكلمات التي قالها في ذلك بولس الرسول :

« أذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم ... » (عب ١٣ : ٣) .

« واذكروا المذلين كأنكم أيضاً في الجسد » .

إن الذي لم يخطئ ، قد يدين الخطاة بنزعة من الكبرياء . أما الذي أخطأ ، وجرب ضعف الطبيعة البشرية ، فإنه يشفق عليهم .

ولنا مثال واضح في سيرة القديس موسى الأسود .

هذا الذي لما دعى إلى مجمع رهباني لإدانة أخ أخطأ ، ذهب إلى هناك وهو يحمل خلفه زنبيلاً مثقوباً مملوؤاً بالرمل . فلما سأله عن هذا ، أجاب : هذه خطايای وراء ظهري تجرى وأنا لا أبصرها . وقد جئت إلى ههنا لأدين أخى...

النائب لا يذكر خطايا غيره ، حتى لو كانت ضده .

ذكر القديس الأب أموس أنه من علامات التوبة « الصفح عن خطايا القريب ، وترك دينونة الآخرين ، وتمسك القلب » .

ويقول مار اسحق إن النائب يكون له صبر كامل على الإهانة والملامة . ويقول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس « إذا لامك أحد من الخارج ، عليك أن تلوم نفسك من الداخل . فيكون هناك توازن بين خارجك وداخلك » ...

التائب يغفر لغيره ، كما غفر الرب له .

أو كى يغفر الرب له ، حسب قوله الإلهى « إغفروا يغفر لكم » (لو ٦ : ٣٧) . ولما علمنا الرب الصلاة الربية ، لم يعلق إلا على طلبه واحدة منها وهى الخاصة بطلب المغفرة ، فقال « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم ، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » (متى ٦ : ١٤ ، ١٥) . ولتكن هذه المغفرة فى حب ، تتفق مع وصية « أحبوا أعداءكم » (لو ٦ : ٢٧) . وتتفق مع حياة الإقتضاع اللاتقة التوبة .

٧- ساعراً فري

الإنسان التائب الباكى على خطاياه ، يكون دائماً وديعاً هادئاً ، لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته (أش ٤٢ : ٢ ، ٣) .
والتائب يشعر برغبة فى الصمت ، إذ يرى أنه ليس أهلاً للكلام ، وإنه من الخير له أن يسمع . فالإستماع أفضل من التكلم .
وهكذا فإن التائب يبعد عن التعليم ، متذكراً قول يعقوب الرسول « لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتى ، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم ، لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعنا » (يع ٣ : ١ ، ٢) . ويقول لنفسه : من أنا حتى أعلم غيرى . التعليم درجة فوق مستوى ... ما هى خبراتى الروحية ، حتى أعلم الآخرين أيضاً ؟!
التائب يشعر أن آفاقاً روحية ، قد فتحتها الله أمامه ، وأنه بدأ يدخل فى مذاقة الملوكوت ، لذلك غالباً ما نرى التائبين يتصفون بالحرارة الروحية .

٨- الحرارة الروحية

إن التوبة حرارة تسرى فى الإنسان ، تشعله بالرغبة فى تغيير حياته إلى أفضل . وصدق الشيخ الروحانى فى قوله عن التوبة « كل من وُلد منها ، أنبتت له أجنحة من نار ، ومع الروحانيين يطير إلى العلاء » ...
والتوبة تلد داخل القلب محبة جبارة نحو الله .

لأننا كلنا تأملنا في الحمل الثقيل الذى رفعه عنا ، وحمله عنا . وكلما نتأمل في بشاعة الخطايا الكثيرة والمريرة التى غفرها لنا ... حينئذ تزداد محبتنا له بالأكثر . مثل تلك المرأة الخاطئة التى بللت قدميه بدموعها ، وقال عنها إنها أحببت كثيراً ، لأنه غفر لها الكثير (لو ٧) . إن الخطاة الذين يشعرون بثقل خطاياهم ومغفرة الرب لها ، هم الذين يحبون الله بالأكثر ، وهم الذين يفهمون عمق الصليب وعمق الفداء .
وفي هذا الحب يكون مستعداً لبذل نفسه من أجل الله .

تملكه حرارة عجيبة ، تدفعه إلى قدام بشدة ... هذا الدفع الذى حوّل كثيرين من الخطاة إلى قديسين ، مثل بيلاجية ومريم القبطية وأوغسطينوس . هؤلاء هم الذين تابوا ، وشعروا بلذة هذه الحياة ، وغوا فيها . مشكلة كثيرين إنهم يفقدون حرارة التوبة التى بدأوا بها .

الحرارة التى كانت تشعل قلوبهم بالحب ، والتى تدفعهم إلى تعويض كل ما سبق من ضياع في حياتهم ... هذه الحرارة ، إن لم يحتفظ بها التائب ، ويشعلها باستمرار ، ما أسهل أن يفقدها ، ويتطور إلى الفتور ، وربما تبرد مشاعره بعد أن ينسى خطاياها و يبعد عنها بعض الوقت ... !

التائب يشعر أن عينه قد تفتحت على حياة جديدة .

كأن باب الفردوس قد فتح أمامه ، ورأى هناك ما لم يره من قبل ... وهذه الحياة الجديدة تجذبه إليها بشدة ، حتى أن بعض آباء الإعراف يخافون على أبنائهم المعترفين من تطرف الإندفاع في تلك الفترة .

وما أكثر الذين يندرون أنفسهم لله في حرارة توبتهم .

مثل القديسة بيلاجية والقديسة مريم القبطية ، وآخرين .

لأن هؤلاء في توبتهم وندمهم على خطيتهم شعروا بزهد في العالم كله ، ولم يعد فيه شيء يغريهم بعد أن ذاقوا محبة الله .

وفي الحرارة الروحية التى تصاحب التوبة :

يشعر التائب بقوة فيه ، ما كانت عنده قبلاً .

كان في خطيته ضعيفاً أمام الشيطان وحروبه ، أما في توبته فإن روح الله يعطيه نعمة خاصة ، وقوة على حياة التوبة . يذكرنا بالمرضى الذى من ضعفه نقلوا له دماً ، فتقوى بهذا الدم الجديد . أو أن الله أعطى هؤلاء التائبين قلوباً جديدة ، يجري منها دم جديد قوى ، مشبع بمحبة الله . فتتطبق عليهم نبوءة أشعيا :

« يجددون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور ... » (أش ٤٠ : ٣١) .
 « يركضون ولا يتعبون . يمشون ولا يعبون » وقوله أيضاً « يعطى المعنى قدرة ، ولعمري القوة يكثر شدة » (أش ٤٠ : ٢٩) .
 أتراك يا أخى لمست هذه القوة فى توبتك ، وشعرت كيف أن يمين الرب قد انتشلتك إلى حياة النور ، وأن الله « يجدد مثل النسر شبابك » (مز ١٠٣ : ٥) . فتغنى مع داود قائلاً « يمين الرب صنعت قوة ، يمين الرب رفعتنى . يمين الرب صنعت قوة ، فلن أموت بعد بل أحياء » (مز ١١٧) . وبهذه القوة تحيا حياة فاضلة .

٩- السير فى الحياة الفاضلة

لا توجد توبة بدون تغيير فى الحياة . فالتوبة ليست مجرد اعتراف وتناول ، إنما هى ترك للخطية للسير إيجابياً فى حياة البر . وهذا ينال الثائب المغفرة ، حسب قول القديس يوحنا الرسول :

« إن سلكتنا فى النور ، كما هو فى النور ، فلنا شركة بعضنا مع بعض ، ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية » (١ يو ١ : ٧) . إذن سلوكنا فى النور شرط أساسى لتطهيرنا من الخطية . هو إذن من علامات التوبة .

ويعبر القديس بولس الرسول عن هذا السلوك ، الذى يطهرنا من الخطية ، ويرفع الدينونة ، فيقول إنه « لا شئ من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع ، السالكين ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح » (رو ٨ : ١) .

إذن من شروط هذه الحياة الجديدة ، أن تسلك فى النور ، وأن تسلك حسب الروح . أو كما قال القديس بولس « أن تسلكوا كما يليق بالدعوة التى دعيتم إليها » (أف ٤ : ١) . وقال « لتسلكوا كما يحق للرب ... متمرين فى كل عمل صالح » (كو ١ : ١٠) . « اسلكوا فى المحبة ، اسلكوا كأولاد للنور » (أف ٥ : ٢ ، ٨) .

إذن التوبة ليست مجرد ارتقاء عند قدمى المسيح ، كما يقول البعض ... إنما هى تتميز بسلوك روحى خاص ، وبحفظ وصايا الرب .

قال القديس يوحنا الرسول « من قال إنه ثابت فيه ، ينبغى أنه كما سلك ذاك يسلك

هو أيضاً» (١يو ٢ : ٦) . وقال كذلك « من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياہ ، فهو كاذب وليس الحق فيه » (١يو ٢ : ٤) .
إننا نرتقى على قدمی المسيح ، لنأخذ منه معونة ونعمة . وليس معنى النعمة أن نكسل أو أن نستمر في حياة الخطية ، إنما نحفظ وصاياہ ، ونسلك كما سلك ذاك ، نسلك في النور كما هو في النور . وهذا يقودنا إلى العلامة الأخيرة للتوبة :

١٠- النقاوة

إنما العنصر الإيجابي في حياة التوبة ، ثمر تغيير الحياة .
فيها تختفي شهوة العالم والجسد والخطية ، وتصبح شهوة القلب مقدسة في حياة البر ومحبة الله . ولا يعود التائب ينفل مرة أخرى بمحبة الخطية .
ومن علامات النقاوة أن الإنسان يعمل الفضيلة بدون جهاد ، بدون تعب ، بدون صراع . لأنه لا يوجد داخله ما يقاومها .
إن كنت تجد صراعاً في داخلك بين الخير والشر ، فأنت لم تصل إلى النقاوة بعد ، ولكنك تجاهد لكي تصل . وإن كنت تتعب من أجل الوصول إلى حياة البر ، فأنت مازال في فضيلة الجهاد ، ولم تصل إلى النقاوة بعد .

بالنقاوة يملك السلام على قلبك ، ويبطل الصراع بانتصار الخير .
بالنقاوة تصبح راحتك في الله ، وشهوتك في الله ، وسعادتك فيه . وتشمل النقاوة كل حياتك : ألفاظك ، حواسك ، جسدك ، قلبك ، أفكارك ... وتصبح مسكناً للروح القدس ، تظهر منه ثمار الروح ...
إن موضوع النقاوة موضوع طويل ، نظلمه إن جعلناه مجرد فصل من هذا الباب ، كعلامة من علامات التوبة .

لذلك أستأذنك في أن نفرّد له باباً خاصاً .
نحدثك فيه عن النقاوة ، وكيف تكون ، وكيف تختبر ؟ وما هي عناصرها ؟ وإلى أي حد تصل النقاوة على الأرض ؟ وما هي النقاوة التي نناها في الأبدية ؟

(١) بديقا، قلوبا

الباب الخامس

نقاوة القلب

- النقاوة من الخطية .
- إختبار النقاوة .
- النقاوة من الأفكار والأحلام .
- النقاوة من الأباطيل .
- إيجابية النقاوة .
- النقاوة من معرفة الخطية .

(١) نقاوة القلب

مادام كمال التوبة ، هو كراهية الخطية ، أى أن يكون القلب قد تنقى تماماً من كل محبة للخطية أو تحاوب معها...

إذن فنقاوة القلب علامة من علامات التوبة الكاملة .

ولكن ما هو المقياس الذى نستطيع أن نقيس به نقاوة القلب من الخطية ؟ وكيف يعرف الإنسان أنه قد وصل إلى كمال التوبة ، أى إلى كراهية الخطية ؟ ... فلنفحص هذه النقطة معاً...

النقاوة من الخطية

١ - ربما يظن إنسان أنه تائب ، لأنه ترك الخطية الرئيسية المتعبة التى كانت تقلق ضميره ، ولم يعد يسقط فيها الآن .

أى لم يعد يزنى مثلاً ، أو يسرق ، أو يغش ، أو يسكر . ولم يعد يرتكب خطايا فى هذا المستوى . لذلك استراح ضميره ، وظن أنه تائب... ! وذلك لأن الخطايا الكبيرة التى كان يركز عليها قد غطت رؤيتها على الخطايا الأخرى التى لم يكن يلتفت إليها .

وربما فى نفس الوقت يكون واقعاً فى خطايا كثيرة يعتبرها طفيفة ، ولا تدخل فى مقاييسه الخاصة بالتوبة . مثل الحديث عن النفس ، والفرح بالمديح ، وتبرير الذات باستمرار ، وكثرة الجدل ، والسلوك حسب الهوى الخاص ، والتشبث بالرأى الذى

(١) مصدر هذا الفصل هو :

١ - محاضرة ألقيت فى كنيسة الملاك ميخائيل بدمشقر سنة ١٩٦٦ ، ضمن سلسلة عن حياة التوبة والنقاوة .

٢ - محاضرة ألقيت فى القاعة المرقسية بالأنايا رويس (الجمعة ٢٨/٥/١٩٦٦) .

٣ ، ٤ - محاضرتان ألقيتا فى الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة الأول مساء الجمعة ١٦/٢/٧٣ ، والثانية مساء الجمعة ١٩٧٣/٧/٦ عن حياة النقاوة .

٥ - محاضرة عن (معرفة الخطية) ألقيت بالكاتدرائية (الجمعة ١١/٣/١٩٧٧) .

يقود إلى العناد. مع إهمال بعض الصلوات ، وتقصير في القراءات الروحية . وربما
عدم احتمال الإساءة ، وعدم تقديس يوم الرب ...
ومع هذا كله ، ضميره لا يوبخه ، لأنه لم يصل إلى المستوى الذى يتبكت فيه
على أمثال هذه الأمور. فهل نعتبر مثل هذا تائباً؟!

إنه ولا شك محتاج أن ترتق مقاييسه ، لكى يتوب عن أمثال هذه الخطايا
التي يعتبرها طفيفة ، أو لا يلتفت إليها باهتمام .
فتى إذن نعتبره تائباً ؟ أليس إن ترك كل الخطايا ، حتى التي تبدو في نظره
صغيرة . يتركها بالفعل ، وأيضاً يطردها من قلبه ومن فكره .
وهنا يصعد الإنسان سلماً في التوبة ، كلها نضج روحياً . ويصير ضميره حساساً
جداً ، لا يتغاضى عن شيء . وهذا يدخل إلى التوبة الحقيقية .
فهل إذا وصل إلى هذا ، نحكم عليه بأنه وصل إلى نقاوة القلب ؟
هنا نبدي ملاحظة هامة ، لكى تكون لنا دقة الحكم ، وهى :

٢ - ربما هو لا يخطئ ، لأن الشيطان قد تركه إلى حين .

إن الشيطان حكيم في عمل الشر . يعرف متى يحارب ، وكيف يحارب ، وفي
آية خطية يركز قتاله ... فإن وجد شخصاً متحمساً جداً ومستعداً ، يتركه فترة حتى
يثق هذا الإنسان بنفسه ثقة ربما تدفعه إلى التهاون والتراخي وعدم التدقيق . ثم يرجع
إليه الشيطان في وقت يكون فيه هذا الإنسان أقل استعداداً وحرصاً ، فيسهل
إسقاطه .

وهذه الفترة لا تكون فترة إنتصار على الخطية ، إنما فترة عدم قتال . إنها فترة
راحة من الحروب الروحية ، وليست إنتصاراً ونقاوة .

وهناك فرق كبير بين الإنتصار وعدم القتال .

فإن وجدت نفسك لا تسقط في خطية معينة ، فقد لا يعنى هذا أنك تنقيت منها
تماماً ، إنما عدم سقوطك فيها قد يعنى أن الشيطان لا يقاتلك حالياً بها . أو ربما لا
تسقط فيها الآن ، لأن ظروفها غير مؤاتية . فلا توجد حرب ، ولا توجد عثرات ، ولا
يوجد ما يثيرك للخطية .

والشيطان لا يقاتلك الآن ، ليس حباً في راحتك ، وإنما لأنه يجهز لك فخاً من نوع آخر...

وبالإضافة إلى ذلك الفخ الآخر ، ربما يأتيك شيطان المجد الباطل ليقول لك « ويلاه منك . لقد أفلت منى . وقد تجددت وتقدس ، وصرت خليفة جديدة ، والأشياء العتيقة قد مضت » . فلا تسمع له ، ولا تردد في ذهنك ما يقوله لك ، فأنت تحت الضعف طالما أنت في الجسد . والشيطان لا يكف عن قتاله . والأليق بك أن ترد على تلك الأفكار وتقول « أنا أعرف ضعفى . وكل ما في الأمر ، أن الرب من حنوه قد ستر هذا الضعف » ...

لا تقل إذن إنك قد وصلت إلى النقاوة ولم تعد تسقط . إنما قل « لولا أن الرب كان معنا ... لابتلعونا ونحن أحياء » (مز ١٢٤ ، ٢ ، ٣) ... أنا في الواقع أضعف من أن أقاتل أصفرهم ، كما قال القديس الأنبا أنطونيوس . ولكن شكراً للرب أنه سترنا ...

ومن الملاحظ أن بعض الخطايا لها مواسم ، وليست دائمة . إنها مثل دورات الألم أو الوجع ، تلف دورتها في عنف وشدة ، ثم تهدأ ، ثم تلف دورة جديدة ... وهكذا ... أو كنبات ، له أحياناً موسم ركود ، وفي وقت آخر موسم إزهار وإثمار...

٣ - أو من الجائز أن الله أراد أن يربحك فترة من إرهاق الخطية ، حتى لا تبتلع نفسك من اليأس .

لأن توالى السقوط المتلاحق ، قد يجبر الخطيئة إلى اليأس . لذلك تدركه مراحم الله وترحمه ولو قليلاً ، وترفع الحرب عنه . تحفظه النعمة وتسنده ، ولو إلى حين . فتمر عليه فترة هدوء لا ترعجه فيها الخطية . ليس لأنه قد تنق ، وإنما لأنه غير مُقاتل .

٤ - أو جائز أنت مستريح الآن ، لأن صلوات رفعت لأجلك .

سواء من قديسين في السماء ، أو من أحياء لك على الأرض . واستجاب الرب لهم ، وأمر برفع القتال عنك . فاسترحت من الخطية وضغطاتها ، لهذا السبب وليس لأثك وصلت إلى النقاوة . أنت إذن في فترة هدوء وسلام ، وعدم قتال مع الشيطان . وليست هذه هي درجة النقاوة .

ومناسبة الفرق بين النقاوة وعدم القتال ، نورد ملاحظة هامة وهي :

هناك فرق بين نقاوة الأطفال ، ونقاوة الناضجين سناً وروحاً .

حقاً إن الأطفال لهم قلب نق بسيط لم يعرف الخطيئة بعد . ولكن هناك فرقاً كبيراً بين نقاوتهم ونقاوة الأشخاص الناضجين في السن . هذا الفرق هو أن الأطفال لم يدخلوا حرباً روحية ، ولم تختبر إرادتهم بعد . أى أنهم لم يصلوا إلى السن التي تختبر فيها إرادتهم . وهم غير الكبار الناضجين الذين دخلوا في حروب العدو وقتلوا وانتصروا ، ورفضت إرادتهم الحرة كل إغراءات الخطيئة . هؤلاء لهم مكافأة « الغالبين » التي ليست للأطفال .

ما أعظم الذين يصلون إلى نقاوة الأطفال ، بعد حروب لم يعرفها الأطفال . ونقاوتهم نتيجة صراعات وحروب ، خرجوا منها منتصرين ...
إن نقاوة القلب درجة عالية جداً . وحتى إن حارب إنسان بخطيئة معينة ، وتنقى منها ، فليست هذه هي النقاوة الكاملة .

النقاوة الكاملة هي النقاوة من جميع الخطايا .

بكل صورها وأنواعها ، سواء كانت بالعمل ، أو بالفكر ، أو بالحواس ، أو بمشاعر القلب ، أو بسقطات اللسان . سواء في العلاقة مع الله ، أو مع الناس ، أو مع الذات .

إنها نقاوة شاملة ، وليست مجرد تخلص من خطيئة معينة كانت تعاركك .
فالفريسى الذي صلى في الهيكل في وقت صلاة العشاء ، كان يظن أنه صار من الأتقياء ، لأنه « ليس من الظالمين الخاطفين الزناة » وليس من المقصرين في الصوم أو في دفع العشور (لو ١٨ : ١١ ، ١٢) . بينما أنه لم يكن قد تنقى من الكبرياء ، ولا من إدانة الآخرين ، ولا من -الافتخار والبر الذاتي... لذلك لم يخرج مبرراً .

لا تظن إذن إنك قد وصلت إلى درجة النقاوة ، إن كنت قد تخلصت من بعض الخطايا التي كان لها سلطان عليك . إنما المقياس الحقيقي لوصولك إلى النقاوة هو أنه :

لا يكون لأية خطيئة من الخطايا سلطان عليك .

أنظر إلى قول السيد المسيح « من منكم يكتفى على خطية ١؟ » (يو ٨ : ٤٦) .
أية خطية على الإطلاق... ولهذا استطاع أن يقول عن الشيطان « رئيس هذا العالم
يأتى ، وليس له فنى شىء » (يو ١٤ : ٣٠) .
فهل وصلت إلى هذه النقطة من جميع الخطايا ، بحيث لا يوجد للشيطان شىء
فيك ، كبيراً كان أم صغيراً ؟! حتى ولا من الثعالب الصغار المفسدة للكروم ، ولا
من الخطايا التى تتنكر فى ثياب الحملان... ؟

النقاوة الحقيقية تبدأ بالكراهية الكاملة للخطية .

عن معرفة واستنارة حقيقية ، وفهم صحيح بالروح القدس لما هو الخير وما هو
الشر « للبالغين الذين صارت لهم الحواس مدربة » (عب ٥ : ١٤) ، بحيث يكون
الضمير سليماً تماماً فى أحكامه ، لا يخدعه الشيطان فى شىء ، وتكون جميع أعمال
الإنسان نقية .

على أن هناك ما هو أهم من أعمال الإنسان الظاهرة ، وهو :

أن تكون النقاوة نابعة من القلب ، وليست مظهرية .

نقول هذا لأن كثيرين يهتمون بمظهر النقاوة لا بجوهرها . ومثال ذلك أن كثيراً
من الوعاظ حيناً يتكلمون عن حشمة المرأة ، يركزون على ملابسها وزينتها ، دون أن
يهتموا بالبائع القلبى الذى بسببه تركت الفتاة حشمتها . بينما لو اهتموا بعلاج
القلب من الداخل ليصل إلى النقاوة ، لكان من نتائج ذلك تلقائياً حشمة الملابس
والزينة... ونفس الكلام يقال عن الشبان الذين يطيلون شعرهم...

إننا لا نريد بالنقاوة تنظيف خارج الكأس . فقط (متى ٢٣) .

فى علاج خطايا اللسان ، لا يقتصر الأمر على تداريب الصمت . لأن الكلام
الخطأى له سبب داخل القلب . والكتاب يقول « من فضلة القلب يتكلم اللسان »
(متى ١٢ : ٣٤) . إذن نهم بنقاوة القلب ، فتكون الألفاظ نقية تلقائياً .

خذوا الكذب مثلاً . لا يكفى فقط أن تبعد عن تركه من الخارج ، إنما ينبغى
أن نعالج أسبابه داخل القلب ، سواء كانت خوفاً ، أو كبرياء ، أو وصولاً إلى
غرض معين . لأن الكذب كان نتيجة هذه الأخطاء الداخلية التى تحتاج إلى تنقية...
إهتموا إذن بالداخل . وهنا يسأل البعض :

هل أوجل النقاوة الخارجية ، إلى أن أصل إلى نقاوة الداخل ؟
كلا ، طبعاً . إنما المقصود أنك لا تكتفى بالنقاوة الخارجية ، فالله يريد القلب قبل كل شيء . إحترس من الخطأ الخارجى بكل قوتك ، لأن له نتائج غالباً ما تشمل غيرك أيضاً ... وفى نفس الوقت عالج الداخل بكل قوة ، وبكل صبر ، وبكل معونة من النعمة .

وهكذا تكون أعمالك النقية صادرة من قلب نقي . ويشترط لنقاوتها :
أن يكون العمل النقي ، أهدافه ووسائله نقية أيضاً .
فيكون كل عمل عمله : نقياً فى ذاته ، ونقياً فى الدوافع التى تدفع إليه ، ونقياً فى الوسيلة التى يتم بها ...

فهل تكون هذه هى النقاوة الكاملة ؟
النقاوة الكاملة موضوع طويل . إنما هذه هى النقاوة من الخطية .

إِخْتِبَارُ النِّقَاوَةِ

إن عدم السقوط فى الخطية ، ليس هو نقاوة القلب .
فقد تكون لعدم السقوط أسباب أخرى غير حالة القلب الداخلية ، شرحنا بعضها . كأن يكون الإنسان فى وقت ما غير محارب بالخطية ، أو تكون النعمة قد تدخلت - حتى بدون استدعاء لها منا - وانتصرت هى فينا . ولذلك نقول من جهة اختبار النقاوة :

يعتبر الإنسان نقياً تماماً ، لو دخل فى كل حرب مع الخطية فى عمق الحرب وشدها ، ولم يهتز ...
ليس فقط لم يسقط ، وإنما لم يهتز ...

كثيرون من الناس محاربون بالخطية من شهواتهم ومن أفكارهم ، وليس من الشيطان . لأن حروب الشياطين صعبة جداً . مثال ذلك قصة الشاب الذى شكّا إلى القديس الأنبا بيشوى قائلاً له « إن حروب الشيطان اشتدت على » . بينما قال الشيطان « أنا لم أحس بعد أن هذا الشاب قد ترهب » ... إن الشيطان قاس جداً

في حربه . ولو أمكن أن يأخذ حريته كاملة ، لجاهد أن يفضل حتى المختارين أيضاً
(مق ٢٤ : ٢٤) .

فإن انتصرت في حرب روحية ، قل : لعلها حرب بسيطة ...
لأن الله من حنوه ، لا يسمح أن نحارب فوق طاقة احتمالنا . وربما نجوز حروباً
خفيفة ونتصر فيها ، ليس بسبب قوتنا أو نقاوة قلوبنا ، إنما بسبب ضعف الحرب .
ولو كانت الحرب قد ثقلت علينا أو اشتدت ، لسقطنا ... لذلك نشكر الله على عظم
مراحه ، بدلاً من أن نفتخر باطلاً بادعاء النقاوة ...

إذن تختبر نقاوتك بالحرب الشديدة القاسية .
هل تصمد فيها أم تسقط ؟ خير لك أن تصرخ في انضاع وتقول : لست أنا أقوى
من سليمان أحكم أهل الأرض . ولست أقوى من داود مسيح الرب ورجل الزمار
والقيثار . ولست أقوى من بطرس الرسول في غيرته . ومادامت الخطية قد « طرحت
كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) ... فأفضل وضع هو أن
أعرف ضعفى ، وأقول إننى لم أصل إلى النقاوة بعد . وأنا أصل كل يوم قائلاً « لا
تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير » .
أدخلت في الحروب الشديدة وانتصرت ؟ ... إذن فأعرف هذه الحقيقة :

الحرب الشديدة تختبر الإنسان باستمرارها وإلحاحها ...
فقد ينتصر الإنسان في إحدى المرات في حرب شديدة . ولكنها لو استمرت معه
مدة طويلة ، ربما يضعف أمامها ، ولا يقوى على المقاومة . مثل شمشون الذى لما كثر
الإلحاح عليه ، ضعف أخيراً واستسلم (قض ١٦ : ١٦ ، ١٧) .

والحرب الشديدة تختبر الإنسان أيضاً بتنوعها ومفاجأتها ...
فقد ينتصر الإنسان في حرب معينة . ولكنه في نوع آخر من الحروب تقل
مقاومته ولا يصمد . والشیطان يختبر كل شخص ، ويدرس نواحي الضعف فيه ،
ويضبط بشدة على نقطة الضعف . وتزداد حروبه قسوة ، حينما يهجم فجأة بدون
استعداد من الإنسان لمواجهته . وهنا تُختبر النقاوة ...

إذن ما هو التعريف السليم للشخص الذى اقتنى نقاوة القلب ؟

هو الشخص الذى تنق من كل أنواع الخطايا ، فكراً ، وقلباً ، وحواساً ،
ولساناً ، وجسداً ، وعملاً... ودخل فى حروب العدو، بكل تنوعها ، وكل شدتها ،
وكل إلحاحها واستمرارها ، وجاهد ، وسندته النعمة ، وانتصر... واستمر منتصراً...
هى إذن درجة عالية جداً . ليست هى بدء الحياة الروحية ، إنما قد تكون فى
نهاية المطاف ، حتى تستحق الطوبى التى قال فيها الرب « طوبى لأنقياء القلب ، لأنهم
يعاينون الله » (متى ٥ : ٨) .
ومن مقاييس هذه النقاوة :

النقاوة من الإفطار والأعمال

بالإضافة إلى النقاوة من الخطية ، توجد النقاوة من الأفكار والظنون .
قال أحد القديسين « ليست فقط أعمالك الخارجية هى التى تظهر حقيقتك ،
إنما بالأكثر أفكارك وظنونك » ... وضرب لذلك مثلاً فقال : ربما يكون إنسان واقفاً فى
مكان فى الظلام ، يراه ثلاثة أشخاص . فيفكر أحدهم إنه سارق يختبئ إلى أن
يتحين الفرصة للسرقة ، والثانى يظنه سىء الخلق ينتظر امرأة . بينما الثالث يفكر أن
هذا الإنسان يقف فى الظلام ، فى مكان لا يراه أحد ، ليصلى ...

وهكذا حسب حالة القلب ، تكون الأفكار والظنون .
وفى ذلك يقول الكتاب « الإنسان الصالح من كثر قلبه الصالح يُخرج
الصالح . والإنسان الشرير من كثر قلبه الشرير يخرج الشر » (لو ٦ : ٤٥) . وكما
يقول المثل « كل إناء بما فيه ينضح » ...

لذلك إن كانت ظنونك سيئة ، فقلبك لم يتنق بعد .
فالإنسان ذو القلب النقي ، دائماً تكون أفكاره نقية ، ولا يظن السوء . وعلى قدر
إمكانه يأخذ الأمور ببراءة وطهارة . وهكذا لا يعثره شيء ، ولا يدين عملاً ما ، إلا
الخطية الواضحة التى تحمل دينونتها فى ذاتها .

والأمور التى تحمل وجهين ، يأخذ الوجه المنير منها .
من أجل هذا ، أمثال هؤلاء الأشخاص يكونون فى علاقة حسنة مع الناس ،

لأنهم لا ينسبون خطأ لأحد، ويعذرون كل إنسان في تصرفاته.

لعلك تسأل : هل معنى هذا أن القلب النقي لا تحاربه ظنون وأفكار شريرة؟

نقول : نعم قد تحاربه من الخارج ، دون أن تنبع من داخله . بل على العكس يكون من الداخل رافضاً لها . لا يقبلها ، بل يطردها بسرعة . والخديعة التي يتعرض لها البعض هنا ، هي أن يستيق الفكر الشرير ، ولو بحجة فحصه أو محاربته ، أو بنوع من الفضول ليرى إلى أين ينتهى ! فتكون النتيجة أن يدنس الفكر ، ويفقده نقاوته . والوضع السليم هو طرد الفكر بسرعة ، لأن القلب النقي يشمئز من الأفكار الخاطئة ، ولا يقبل حتى مجرد فحصها .

من ضمن مقاييس النقاوة إذن ، نقاوة الظنون والأفكار .

والمقياس الثانى للنقاوة ، هو نقاوة الأحلام .

فقد يوجد إنسان عقله الواعى محترس ، يراعى نقاوة أفكاره ، بينما تكون أحلامه فيها الكثير من الأخطاء ، لأن عقله الباطن يحوى رصيذاً قديماً من الخطايا ، لم يتنق بعد من صورها وقصصها وذكرياتها . فإما أن تكون ذاكرته لا تزال مدنسة بخزينا الردىء ، أو أن هناك بعض مشاعر فى القلب ، كامنة فى أعماقه لم تتنق بعد ، وهى مصدر أحلامه الخاطئة التى تعكر نقاء ذهنه .

يحتاج هذا أن يتنق من ماضيه ، كنهو نقاوته من حاضره .

وعلى أية الحالات ، قد تحتاج نقاوة الأحلام إلى فترة من الزمن ، إلى أن يصبح الإنسان فى وضع بعيد تماماً عن الأحلام الشريرة . فبالوقت وبعدم التكرار ، تختفى مصادر هذه الأحلام من الذاكرة . ويحتزن العقل الباطن بدلاً منها أموراً نقية طاهرة ، تتناسب مع حياة التوبة والنقاوة التى يحياها ، وتكون مصدراً لأحلام نقية تماماً .

إذن من مقاييس نقاوة القلب ، نقاوة الأفكار والظنون والأحلام ... تبقى درجة أخرى للكاملين أو للناضجين ، وهى :

النقاوة من الأباطيل

أى النقاوة من الأمور الزائلة أو الباطلة .

ونقصد بهذه الأمور الزائلة أو الباطلة ، من يقضى مثلاً وقتاً طويلاً يتحدث فى أمور تافهة ، لا هى خطية ، ولا هى بر... أو يقضى وقتاً يفكر فى أمثال هذه الأمور أو ينشغل بها... ويدل بذلك على أن فكره أو قلبه يمكن أن يشغل بهذه التافهات ، ويمكن بسببها أن يضيع وقتاً كان يمكن أن يقضيه مع الله ، فى صلوات أو تأملات أو قراءات روحية أو تسابيح ، أو أى أمر ذى قيمة ، يناسب حالة القلب النقي ...

هذه الأمور الزائلة لا هى خير فى ذاتها ، ولا هى شر فى ذاتها . ولكنها تفاهات تعطل العمل الروحى الإيجابى .

هذه الأباطيل هى التى منعنا عنها الرسول بقوله « غير ناظرين إلى الأشياء التى ترمى ، بل إلى التى لا ترمى . لأن الأشياء التى ترمى وقتية ، أما التى لا ترمى فأبدية » (٢ كو ٤ : ١٨) . والإنسان الذى لا ينظر إلى المراتيات ، هو الذى يقول مع داود النبى « أما أنا فخير لى الإلتصاق بالرب » (مز ٧٣ : ٢٨) . والإلتصاق الكامل بالرب ، لا يأتى إلا بنقاوة القلب .

إن النقاوة من الخطية حالة مقدسة ، لا يسميها الآباء نقاوة القلب .
إنما يسمونها الطهارة . والطهارة أقل من النقاوة فى الدرجة .

الطهارة - فى كثير من مفهوماتها - سلبية فى قداستها ، تعنى البعد عن النجاسة والخطية . أما النقاوة فقداستها إيجابية ، وهى الإلتصاق الدائم بالله فكراً وقلباً وعملاً . وتأتى كمرحلة بعد الطهارة . ومن مميزاتها النقاوة من الأباطيل ... فإلى هى هذه الأباطيل .

إننا نعيش فى عالم مملوء بهذه المراتيات الزائلة . فهل نغمض أعيننا حتى لا نرى ، عملاً بقول الرسول « غير ناظرين إلى ما يرى » ؟
كلا ، لا نغمض أعيننا . وإنما لا نهتم بما نرى ونسمع .

أى أن تقع أعيننا على شىء تراه ، فتجوز مقابله ، وهكذا باقى حواسنا . والمعروف أن « الحواس هى أبواب الفكر » . وأن ما تجمعهم حواسنا ، تفكر فيه

عقولنا ، أو على الأقل يدخل فكره إلى أذهاننا . وهنا نكون أمام أحد تصرفين :
إما أن يمر فكر هذه الأمور بسرعة ويعبر كال دخان . وهذه حالة من حالات
نقاء القلب . وإما أن يستقر الفكر قليلاً أو طويلاً فينا ، ويستغل في داخلنا
بدرجات تتفاوت في الحدة وفي المدة ، حسب نقاوة كل منا .

الإنسان الذي لم يتنق بعد ، قد تجلب له هذه المرئيات أفكار خطية ، وتتحول
فيه إلى رغبات وشهوات ... ولست عن هذا أتكلم ، فالحديث عنه خاص بالنقطة
الأولى وهي « النقاوة من الخطية » .

ولكني أقول إن مثل هذه المرئيات قد تجلب لإنسان الله ، لا أفكار الخطية ،
وإنما بعض الانشغال أو الإهتمام ، تختلف حسب نقاوة القلب ، حسب موته عن
العالميات ، أو موت العالميات في القلب .

هذه الأفكار الزائلة ، هي على الأقل تضيع الوقت .

والوقت هو جزء من حياتك . لم يعطه لك الله لكي تضيعه ، إنما لكي تستفيد
منه ، لأجل خلاص نفسك ، ولأجل تنقية قلبك وفكرك ، ولأجل ربط مشاعرك
بالله ... فلا تضيعه في التافهات .

والعقل المنشغل بالتافهات يدل على قلة محبته لله .

إذ أن قلبه ليس متحداً بالله اتحاداً كاملاً مستمراً ، وتوجد أمور تافهة تشغل عقله
عن الله ، ولو في ثرثرة لا فائدة منها . فتي تنق من كل هذا ، ولا يصيح في قلبك
إلا الله وحده ؟

**القلب النقي نقاوة كاملة ، هو القلب الذي مات بالتقام عن أباطيل العالم
كلها ، لكي يحيا بالتقام للرب .**

وعقله أصبح غير ممتلئ لهذه الأشياء التي تُرى ، من فرط انشغاله بما لا يُرى .
إن العقل دائب العمل ودائم التفكير . إنما يختلف تفكيره بحسب المادة التي ينشغل
بها ، وهي واحدة من إثنين : إما مرئيات ، وإما أمور لا تُرى . والانشغال بالأمور
الإلهية التي لا تُرى هي حالة النقاوة المثالية .

**وقد يكون التفكير في الأمور الزائلة ، هو حالة متوسطة بين أفكار الخطية
والأفكار الإلهية .**

إنها ليست خطية بالنسبة إلى الشخص العادى ، ولكنها حالة نقص فيه . وقد تتطور فتتحول إلى خطية . والقديسون يهربون من هذا النقص ، الذى يدل على أن القلب لم يتنق بالكمال من العالميات .

القديس بولس الرسول - فى حديثه عن المتزوج - قال إنه « يهتم فيها للعالم » (١ كو ٧ : ٣٢ ، ٣٣) . وهناك أمور أخرى غير الزواج تسبب اهتماماً بالعالميات ، رعا الوظيفة ، أو الأسرة ، أو الدراسة العالمية ، أو بعض النشاط الإجتماعى ، أو المال ، أو شهوات الجسد عموماً... فيفحص كل منا ذاته ، وليعرف الأبواب التى يدخل منها العالم إليه بأباطيله ، ويجد له مكاناً فى الفكر أو فى القلب .

وهنا أحب أن أفرق بين كلمتين : العمل والإهتمام .

قد يعمل الإنسان فى المراثيات ، دون أن تعمل المراثيات فيه

ويكون قلبه مع الله . كما كان الآباء القديسون يعملون فى الخوص فى البرية ، وقلوبهم يعمل عمله الإلهى فى التزمير والصلاة والتسبيح . كانوا يعملون فى هذه الأشياء ، وهم « غير ناظرين إليها » أى غير منشغلين بها .

إن الرب لم يوجه اللوم إلى مرثا لأنها كانت تعمل ، وإنما لأنها كانت بالعمل فى حالة اهتمام واضطراب (لو ١٠ : ٤١) . العمل لم يكن فى يديها فقط ، وإنما وصل إلى الفكر والقلب فانشغلا به . وفى انشغالها عجزا عن أن يتفرغاً للرب « فلازما الواحد ، واحتقرا الآخر » لأنه لا يقدر أحد أن يخدم سيدين فى وقت واحد (متى ٢٤ : ٦) .

فهل يمكن إذن أن نعمل عملاً ، دون أن نشغل ونضطرب ونهتم ؟ إن هذا هو المطلوب من القلب النقى « أريد أن تكونوا بلا هم » (١ كو ٧ : ٣٢) . وكيف يكون هذا ؟

بأن تكون علاقتنا بالمراثيات سطحية ، لا تدخل إلى العمق .

وهذا يتوقف على مدى تقييمنا للأمور .

كلما ازدادت قيمة الأمر فى نظرنا ، ازداد عمقه فىنا واهتمامنا به . لذلك فإن آباءنا الذين مات العالم فى نظرهم ، وحسبوه نفاية لكى يربحوا المسيح (فى ٣ : ٨) ، هؤلاء لم تعد لكل أمور العالم قيمة عندهم ، مهما كانت قيمتها خطيرة فى أعين

الآخرين الناظرين إلى ما يُرى... وبالتالي لم تعد هذه الأمور تشغلهم، ولا يضطربون لها، بل يحيون في سلام. وينطبق عليهم قول القديس بولس الرسول:
«والذين يستعملون هذا العالم، كأئهم لا يستعملونه» (١ كو ٣١: ٧).

ولكننا كثيراً ما ننسى أنفسنا وروحياتنا. فنسمع مثلاً خبراً معيناً، أو نقرأ عن حادث ما، أو ندخل في إحدى المناقشات... وهنا ننسى أن قلبنا وعقلنا كليهما للمسيح. ونظل نتكلم ونعلق ونناقش، ونبدى الآراء، ونتحمس في الرد على المعارضين. وقد يكون الأمر لا يستحق شيئاً من هذا. ولكنه مع ذلك يملك -لا على ألسنتنا فقط، ولا على فكرنا فحسب- وإفنا أيضاً على أعصابنا وعواطفنا... وهنا تكون المياه قد دخلت إلى أنفسنا. وأصبحنا نهم ونضطرب لأجل أمور كثيرة. أما الواحد الذى الحاجة إليه، فلا نكون متفرغين له، بل مفكرين أننا «عندما يحصل لنا وقت نستدعيه» (أع ٢٤: ٤٥).
وقد نرجع إلى بيوتنا، وما يزال الموضوع فى أذهاننا، وقد نصبه أيضاً فى عقول غيرنا، فنشغل الآخرين به.

والأفكار ليست عواقر، إنما تلد أفكاراً أخرى...
وقد يتعمق الفكر فى عقلنا الباطن، ويلد أحلاماً وظنوناً.
وقد نقف ونصلى، فتطيش عقولنا فى أفكار كثيرة، ذلك لأننا أعطينا تلك الأفكار عمقاً فينا، فأخذت سلطاناً علينا... فاحذر، لا تعط أمور العالم عمقاً فى فكرك ومشاعرك ووقتك. وإن سرقك الإعتياد القديم، إستيقظ بسرعة، وقل للرب مع المرتل «أردد عينى لئلا تعانينا الأباطيل» (مز ١١٨ هـ).

بقطة العقل والجهاد مع الأفكار، يسبقان نقاوة العقل والقلب.
القديس الأنبا أور كان يقول لتلميذه «أنظر يا إبنى، لا تدخل هذه القلاية كلمة غريبة» يقصد أية كلمة غريبة عن الله وملكوته. والقديس الأنبا يوحنا القصير كان ينفذ أذنيه قبل الدخول إلى قلايته، حتى لا تدخلها مناقشات سمعها من آخرين...

هذا جهاد سلبى... أما من الناحية الإيجابية فإنه :

تعوزنا الغربة عن العالم ، مع هذبة الفكر بالإلهيات .
 شعور الإنسان بغربته عن العالم ، يجعله لا يقحم ذاته في أمور العالم وحوادثه
 وأخباره وأحاديثه وارتبائكاته . وإن وصل إليه شيء منها ، لا يتفاعل معه ولا
 يتجاوب ، قائلاً لنفسه « غريب أنا . ما شأنى بهذا الأمر » .
 كذلك انشغال الفكر بالإلهيات ، يجعله غير متفرغ لأمور العالم بل نافرأ منها ،
 لأنها تعطله عن هذيذه الإلهى الذى يقول فيه « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول
 النهار تلاوتى » (مز ١١٨ م) .

مق يصل القلب والفكر إذن إلى النقاوة ؟
 عندما يتخلص الإنسان من الخطية ، وعندما يتنقى من الأحلام والأفكار
 والظنون ، وعندما يتنقى من الأباطيل ...
 كل هذا من الناحية السلبية . فإذا إذن عن الناحية الإيجابية ؟

الناحية الإيجابية فى النقاوة

فى نقاوة القلب ، تملكه محبة الله بدلاً من محبة العالم .
 فيفعل كل شيء من أجل محبته لله ، وليس لمجرد طاعة لأمره أو تنفيذاً
 لوصاياه . حتى ترك الخطية ، يتركها لأن محبة أعمق بكثير قد حلت محلها ، وأشعرته
 عملياً بتفاهة محبة الخطية ونجاستها أيضاً . ومحبة الله تدخل النقاوة فى دور إيجابى
 جديد ...

فتظهر ثمار الروح القدس فى حياة هذا التائب .
 التى قال عنها الرسول « وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ،
 لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف . ضد أمثال هذه ليس ناموس » (غل ٥ :
 ٢٢) . أى انتقل من مرحلة الناموس والوصايا ، إلى مرحلة الحب ...

تتحول علاقتك بالله إلى حب ...
 كعلاقة صديق بصديقه ، وابن بأبيه ، وحبيب بحبيبه .
 وتجد كل اللذة فى الوجود مع الله . وصلاتك تتحول إلى مناجاة حب ، لا
 تكون واجباً ، ولا عملاً كنسياً ، ولا صفة من صفات الروحانيين ، إنما تكون مجرد

تعبير عن الحب الكبير الموجود في قلبك نحو الله... وهكذا تكون باقي أعمالك الروحية...

والحبة هي أول ثمرة من ثمار الروح . وهناك ثمار أخرى ، لا بد أن تظهر في قلبك بحياة النقاوة . ولعلك تسأل :

هل كل ثمار الروح لازمة في حياة النقاوة ؟

نعم ، لأنه قال « إصنعوا ثماراً تليق بالتوبة » (لو ٣ : ٨) . ولأنه أيضاً قال « كل غصن فتي لا يأتي بشمر ينزعه . وكل ما يأتي بشمر ينقيه ، ليأتي بشمر أكثر » (يوحنا ١٥ : ٢) . إذن جاهد بكل قوتك لتحصل على هذه الثمار...

أتريدني أن أحدثك عن نقاوة القلب ؟ إذن فسأحدثك عن كل عنصر من هذه الثمار على حدة ، وعنها كلها معاً كوحدة متجانسة . وهذا أمر يحتاج إلى كتاب خاص أو إلى مجموعة كتب . وليس الآن وقته . أما الآن ، فأتابع معك نقاوة القلب ، وأحدث عن قتها :

هناك نقاوة نناها في الأبدية وهي :

نقاوة القلب من معرفة الخطية

وهذا نقسم نقاوة القلب إلى نوعين : نوع يمكن أن نناها هنا على الأرض ، وهو ما قد ذكرناه . ونوع لا نناها إلا في الأبدية في العالم الآخر ، نذكره هنا لكي نشتهي ونطلبه ، ولكي نعرف مقدار عمق النقاوة التي ستكون لنا هناك...

إن الذي أفقدنا نقاوتنا الأولى ، هو أكلنا من شجرة المعرفة .

كنا لا نعرف إلا الخير فقط . فلما أكلنا من شجرة معرفة الخير والشر ، صرنا نعرف الشر أيضاً . ودخلنا في ثنائية الخير والشر ، البر والإثم ، الحلال والحرام . أقصى ما نصل إليه حالياً ، هو أنه مع معرفتنا للخير والشر ، نختار الخير ونسير فيه . أما إننا لا نعرف الشر إطلاقاً ، فهذه درجة عالية لن نصل إليها على الأرض . إنما ستوهب لنا في الأبدية ، حينما نلفظ الثمرة التي أكلناها . وحينئذ : لا نعرف سوى الخير فقط . ونتخلص من ثنائية الخير والشر .

تصبح لها صفة البساطة والبراءة التي لا تعرف شراً .

مثل الطفل البريء الذي لا يعرف شيئاً من المكر والتدابير والحيل والشُرور التي يقدمها له المجتمع فيما بعد ، فتفقد براءته .

نقاوة مثل نقاوة آدم وحواء قبل الأكل من ثمرة الشجرة ، تلك التي أدخلت في عقله أفكاراً لم تكن فيه من قبل ، وأفقدته بساطته ، وفتحت عيناه على أمور ، لعله يقول « ليتني ما كنت قد عرفتُها » ... ثم تطور الإنسان من معرفة الشر إلى اختباره .

فإن كنت قد عرفت أشياء عن الخطيئة ، لا تكمل المسيرة .

مادامت معرفة الخطيئة تضرك ، فلا تضيف إليها شيئاً جديداً . وحاول أن تنسى ما عرفته بعدم استعماله ، وعدم الحديث عنه . ولا تفكر في تلك المعلومات . وإن تذكرتها ، حاول أن تستبدلها بغيرها .

ولا تجعل معرفة الخطيئة تتحول من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة . ولا تجعلها تتحول من معلومات إلى اختبار ، إلى مذاقة ، إلى قبول أو صراع معها . وأوقف هذه المعرفة عند حد ، على قدر إمكانك .

واطلب من الله أن ينقّي أفكارك ، ويظهر عقلك الباطن وذاكرتك ، من كل ما ترسب فيها وما تسجل فيها ...

واسرح في إكليل الرب الذي سببه الرب لنا ،

في ذلك اليوم (٢ تي ٤ : ٨) . حيناً تنزع منا كل معرفة للخطيئة ، ولا توجد خطيئة فيما بعد . وتصيح كل خبراتنا مع الخطيئة في هذا العالم ، كأنها حلم مزعج قد استيقظنا منه في الأبدية ، وقد نسيناه تماماً ... حقاً ما أجل هذا !

ولكن مادامت النقاوة من معرفة الخطيئة ، ليست في هذا العالم ، فإذا نفعل ؟

دربوا أنفسكم على حياة البساطة الروحية .

لا تجعلوا عقلكم وحده هو الذي يعمل ، في تعقيدات الفكر والجدل ، إننا أضيقوا إليه بساطة الروح . ولتكن لكم العين البسيطة النيرة . ولا تختلطوا بالخطيئة ولا بأفكارها وقصصها ، حتى لا تتدنس أذهانكم بتذكّار الشر الملبس الموت . واصبروا على النقاوة ، مهما تأخر وصولها . واطلبوها كهبة من الله لكم . واجعلوا الشر دائماً خارجكم ، مهما كثرت حروبها . وليكن الرب معكم .

بللت فراشى بدموعى

تقال على نعمة رى إجذبى

بللت فراشى ، بدموعى المرة وعاهدت إلهى إلهى ، دى آخر مرة
ها اثبت فى حبك ، واثبت كالصخرة من كل قلبى قلبى ، مش راجع تانى
مش راجع تانى ، مش راجع تانى ، من كل قلبى قلبى ، مش راجع تانى

وجات على ، الحرب قوية رجعت تانى تانى ، لعمق الخطيئة
فبكيت من قلبى ، بتوبة نقية لكن لمدة لمدة ، ورجعت تانى
ورجعت تانى ، ورجعت تانى ، لكن لمدة لمدة ، ورجعت تانى

قويت إرادتى ، كترت عهودى من فرط غرورى غرورى زودت عهودى
واثق بعزمى ، واثق بجهادى خانتنى نفسى نفسى ، ورجعت تانى
ورجعت تانى ، ورجعت تانى ، خانتنى نفسى نفسى ، ورجعت تانى

فصرخت بشدة ، وقلت ارحمنى أنا عارف ضعفى ضعفى ، يارب أعنى
القوة منك ، من فوق مش منى طول ما أنت معايا معايا مش هارجع تانى
مش هارجع تانى ، مش هارجع تانى ، طول ما انت معايا معايا مش هارجع تانى

الباب السادس

حفظ التَّوْبَةِ

- إمكانية الرجوع .
- بدأوا بالروح وكمّلوا بالجسد .
- الكنعانيون في الأرض .
- لا تعرجوا بين الفرقتين .
- الفصل بين النور والظلمة .
- الإهتمام بالروح .
- وسائل أخرى .

امكانية الرجوع

سهل أن يتوب المرء يوماً ، إنما المهم أن يتوب باستمرار .
أى أن يعيش فى حياة التوبة ، أو يعيش فى التوبة حياته كلها ، فلا يرجع مرة أخرى إلى الخطية ...

سهل جداً أن يدرب الإنسان نفسه ، وينجح فى تدريب روحى لمدة يوم أو يومين أو أسبوع . ولكن هل من الممكن أن يستمر فى هذا التدريب الروحى مدى الحياة ؟
هكذا فى التوبة ، المهم فيها هو حفظها ، أى استمرارها .
لأنه ما أسهل الرجوع ...

إن الشيطان الذى يرقب حياة الإنسان ، لا يستريح مطلقاً أن يفلت هذا الإنسان من يده بالتوبة . لذلك يحاول بكل الوسائل والحيل أن يرجعه عنها ، ولو بعد فترة طويلة ...

وعصر القضاة مثال واضح جداً لهذا الرجوع ...
كانوا يسرون فى عبادة الأوثان وفى نجاسات الأمم المختلطة بهم . وكان الرب يخلصهم بأحد القضاة يقيمه عليهم ، فيتوبون ... ولكن « عند موت القاضى ، كانوا يرجعون و يفسدون أكثر من آباؤهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ... » (قض ٢ : ١٩) .

وكانت فترات التوبة تستمر أحياناً عشرات السنوات ، ثم يرجعون .
نقرأ فى سفر القضاة « واستراحت الأرض أربعين سنة ، ومات عثنيل ... وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر فى عيني الرب » (قض ٣ : ١١ ، ١٢) ... « واستراحت الأرض ثمانين سنة ... وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر فى عيني الرب ، بعد موت أهود » (قض ٣ : ٣٠ ، ٤ : ١) ... « واستراحت الأرض أربعين سنة . وعمل بنو اسرائيل الشر فى عيني الرب » (قض ٥ : ٣١ ، ٦ : ١) ...

إنها قصة تكررت فى حياة هذا الشعب ، وفى حياة غيره .
سواء من الشعوب أو الأفراد ... من قلوب غير ثابتة فى محبة الرب ، وغير جادة فى حياة التوبة ... لم تنته من حياة الخطية . تتركها ثم تعود إليها ، حتى شبهها الرسول بتشبيه صعب :

كلب قد عاد إلى قيئه . وخزيرة مفتسلة إلى مراغة الحمأة .
وهكذا يقول بطرس الرسول « لأنه إذا كانوا بعدما هربوا من نجاسات العالم بمعرة الرب والمخلص يسوع المسيح ، يرتبكون أيضاً فيها فينغلبون ، فقد صارت لهم الأواخر أشرف من الأوائل . لأنه كان خيراً لهم لو لم يعرفوا طريق البر ، من أنهم بعد ما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة المسلمة لهم . قد أصابهم ما في المثل الصادق : كلب قد عاد إلى قيئه ... (بط ٢ : ٢٠-٢٢) .

نعم كثيرون ساروا مع الرب مرحلة ، ولم يكلوا الطريق .
إما أنهم شعروا بصعوبة الطريق ، فتركوه وتركوا الرب معه ... ولم يقدرُوا أن يحملوا صليهم حتى النهاية . أو أنهم خانوا الرب ، إذ عادوا ففضلوا الخطية عليه . وهؤلاء انطبق عليهم ما قاله القديس بولس الرسول عن الغلاطيين الأغبياء (غل ٣ : ١ ، ٣) :
إنهم :

بدأوا بالروح وكموا بالجسد

وقد قدم لنا بولس الرسول مثلاً آخر هو ديماس .
ديماس الذى كان أحد مساعدى القديس بولس فى الخدمة والكرازة ، أى كان أحد أعمدة الكنيسة . وقد قرنه الرسول مرة باسم لوقا الطبيب (كو ٤ : ١٤) ، وصرح بأنه من العاملين معه « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا » (غل ٢٤) ... ديماس الكارز هذا ، إنتهت قصته بعبارة مؤلمة قال فيها القديس بولس الرسول :
ديماس قد تركنى ، إذ أحب العالم الحاضر (٢ : ٤ : ١٠) .
إنه مؤلم حقاً أن تعود محبة العالم الحاضر ، فتغزو قلب كارز عظيم من مساعدى بولس الرسول . إن كان الأمر هكذا ، فليحترس كل أحد من العالم ومحبهه ، مهما تاب ...
والقديس بولس يذكر لنا أمثلة أخرى غير ديماس ، إنتهوا إلى نفس النهاية المؤلمة ، قال عنهم لأهل فيلي :
لأن كثيرين ... ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ،

(١) عن محاضرة ألفت في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٤/٨/٩ .

وهم أعداء صليب المسيح (في ١٨: ٣).

ويكل كلامه عنهم فيقول « الذين نهايتهم الهلاك ، الذين إلههم بطنهم ، وعيهم في خزيهم ، الذين يفتكرون في الأرضيات » (في ١٩: ٣) .
هؤلاء لم يكونوا مؤمنين عاديين ... يكتفى أن بولس الرسول كان يذكرهم في رسائله .
والمؤلم أن يقول « لأن كثيرين ... » فهم إذن ليسوا واحداً أو اثنين ... والمؤلم أكثر قوله « نهايتهم الهلاك » ... ومادام الرجوع إلى حياة الخطية ممكناً لمن لا يحترسون ، فيسمحون لدخول عجة العالم إلى قلوبهم :

إذن لا تفتخر إن تبت وبدأت حياة روحية ، المهم أن تكمل .

تكمل السير في الطريق الروحي حتى نهاية الشوط ، حتى نهاية أيام غربتك على الأرض . فقد قال الرسول « أنظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) . إذن المهم أن تستمر التوبة حتى نهاية السيرة . ولا يكون التائب كالذين بدأوا بالروح وكملوا بالجد ...

هل إن تبت ، وسرت مع المسيح فترة روحية جميلة ، ثم عدت إلى الخطية ...
أتستطيع الأيام الروحية أن تخلصك؟! أم أن ما انتهيت إليه ، هو الذي ستحاسب عليه ...؟

إن شاول الملك من الأمثلة الواضحة .

مسحه صموئيل النبي ملكاً ، وحلّ عليه روح الرب ، وأعطاه الرب قلباً آخر ، وتنبأ حتى تعجب البعض قائلين « أشاول أيضاً بين الأنبياء؟! » (١ صم ١٠ : ٩ - ١١) .
ومع كل هذا ، عاد شاول فأخطأ ، وكثرت أخطاؤه ، ورفضه الرب . وقيل عنه « وذهب روح الرب من عند شاول ، وبغته روح ردىء من قبل الرب » (١ صم ١٦ : ١٤) . لقد بدأ مع الله ، أو بدأ الله معه . ولكن شاول لم يكمل .

وكذلك شعب اسرائيل الذي جاز البحر وتبع الرب في البرية .

تخلصوا من عبودية فرعون . وعاشوا تحت قيادة الله المباشرة ، وظللهم السحابة نهاراً ، وهداهم عمود النور ليلاً ، وأكلوا المن والسلوى . وكانوا أول شعب أرسل له الله شريعة مكتوبة ، وتعدوا قائلين « كل ما تكلم به الرب نفعل ، ونسمع له » (خر ٢٤ : ٧) ... ومع ذلك عادوا وأخطأوا إلى الرب كثيراً ، وتذمروا ، وعبدوا العجل الذهبي (خر ٣٢) . وغضب الرب على ذلك الجيل المتذمر ، ورفض إدخاله أرض الموعد ، ومات كله في البرية ...

هل تظنون أن كل المالكين بدأوا طريقهم بالهلاك ؟

كلا طبعاً ، فالشيطان نفسه بدأ حياته كملاك طاهر منير ، ولكنه لم يكمل . فكمل
بالأولى البشر الذين عرفوا الخطية فترة ثم تابوا... إذن لا يهنا نقطة البدء ، بل نهاية
المطاف .

الهرطقة لم يبدأوا تاريخهم كهراطقة ...

بل إن بعضهم بدأ بداية طيبة جداً ... أوطأخى كان من أفضل رهبان
القسطنطينية . كان إنساناً روحياً ، ورئيس رهبنة . ولكنه لم يكمل ، وانتهى إلى
الهرطقة . وأريوس كان من أفضل وأقوى كهنة الإسكندرية ... ونسطور كان من أقوى
معلمي عصره ، ووصل به الأمر أن صار بطريركاً للقسطنطينية ... وانتهى كل هؤلاء إلى
الضياع .

وأوريجانوس كان أعظم عالم في عصره . وكان رجلاً زاهداً . وقد تألم كثيراً من
أجل المسيح ، ودافع عن الإيمان ... وأخيراً انطبقت عليه تلك العبارة الأليمة « أيها البرج
العالي ، كيف سقطت ؟! » ... إذن فليحترس كل أحد...

وإن كنت قد تبت ، فاسمع هذه النصيحة :

لا يكن الخروج من سدوم ، بل أكمل إلى صوغر .

لقد خرجت امرأة لوط من سدوم ، وكانت يدها في يد الملاك . ولم تحترق مع
المدينة المحترقة . ولكنها لم تكمل المسيرة مع الله ، وإنما نظرت إلى الوراء (تك ٢٩ :
١٦) . وهلكت بهذه النظرة الواحدة ... يالللرب !

إحترس إذن من النظر إلى الوراء ...

لا تعد تفكر في العالم الذي تركته من أجل الرب . ولا تحاول أن تتذكر ملاذ
الخطية التي تبت عنها ... لا تنظر مطلقاً إلى الوراء ، إنما « امتد إلى قدام » . وحاول أن
تنمو في توبتك لا أن ترجع إلى الخطية .

فالذي يرجع ، يكون كمن يهدم كل ما بناه .

أنا لا أريد أن أخيفك بقول الرسول « لأن أرضاً قد شربت المطر الآتي عليها مراراً
كثيرة ، وأنتجت عشباً صالحاً للذين فلحت من أجلهم ، تنال بركة من الله . ولكن إن
أخرجت شوكتاً وحسكاً ، فهي مرفوضة وقرية من اللعنة التي نهايتها الحريق » (عب

٦ : ٧ ، ٨) .

ولا أريد أن أكرر ما قاله الرسول في نفس الرسالة «إن أخطأنا باختيارنا ، بعدما أخذنا معرفة الحق ، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة خفيف...» (عب ١٠ : ٢٦ ، ٢٧) ... فلعل الرسول لا يقصد مجرد الخطية ، فكل إنسان معرض لها ، إنما يقصد حالة الإستمرار في الخطية...
إنما كل ما أريد أن أقوله ، هو أن تحترس في توبتك .

إن تبت ، لا تغتر بنفسك . لا تستكبر بل خف (رو ١١ : ٢٠) .
لا تظن أن التوبة أعطتك حالة عصمة . فليس أحد بلا خطية سوى الله وحده (متى ١٩ : ١٧) . وما أسهل أن يجازبك العدو ليسقطك . لذلك تمسك بالرب ، ولنسحق قلبك قدامه ليعطيك حياة النصر الدائمة . واذكر قول القديس بولس الرسول :

« تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (في ٢ : ١٢) .
ويطابق هذا أيضاً ما قاله القديس بطرس الرسول « ... سيروا زمان غربتكم بخوف » (١ بط ١ : ١٨) . وليس المقصود بهذا الخوف معنى الرعب . كلا ، بل المقصود به هو الحرص والحيلة ، والتدقيق في الحياة الروحية ، والبعد عن الغرور الذي يظن فيه التائب إنه قد تخلص من الخطية إلى الأبد ، وقد ارتفع فوق مستواها !!

في هذا الخوف أو الحرص ، لون من التواضع .
وكثيرون خلصوا بهذا التواضع ... الذي فيه يشعر الإنسان بضعفه ، وبأنه لا يزال تحت الزلزال ، ويحتاج إلى حرص حتى من أبسط الخطايا ... فالذي يشعر بضعفه ، تحيط به قوة الله لتعينه وتخلصه ... وما أجل تواضع القديس بولس الرسول في قوله :
« ... أقع جسدي وأستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين ، لا أصير أنا نفسي مرفوضاً » (١ كو ٩ : ٢٧) .

فإن كان بولس الرسول يقول هذا عن نفسه ، فإذا نقول نحن عن أنفسنا ، ونحن أدرى الناس بضعفنا...؟! وإن كان الرسول يقول « أقع جسدي وأستعبده » . ألا يعطينا بهذا درساً في استمرار الحرص مدى الحياة ؟!

الحرص يدل على أن التائب جاد في توبته .
ويدل على أنه صادق في مواعيده التي وعد بها الله لما بدأ توبته . فكن حريصاً

باستمرار «أذكر من أين سقطت وتب» (رؤ ٢: ٤) . إبحث عن أسباب الخطية التي
اسقطت فيها قبلاً ، وابتعد عنها بكل قوتك .
ومن الأفضل أن نفرّد لهذه النقطة موضوعاً خاصاً وهو :

الكنعانيون في الأرض

كثيرون بعد أن تابوا رجعوا إلى خطاياهم . وكان السبب هو أنهم :
تركوا أسباب الخطية قائمة كما هي ، وتركوا أبواب الخطية مفتوحة ...
لذلك عادت إليهم الخطية ، أو عادوا هم إليها ، لأن مصدر الخطية مازال موجوداً
كما هو . وهذا يذكرنا بقصة الكنعانيين في الأرض . فما هي هذه القصة وما مغزاها ؟
الكنعانيون هم بعض الأمم الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وقد صدر الأمر
بإخراجهم من الأرض حتى لا يصبحوا عثرة لجذب شعب الله إلى عباداتهم وعثراتهم .
وكان الكنعانيون أقوياء جداً . والذي حدث أن يشوع لم يطردهم من بعض المناطق ،
وبقوا عبيداً تحت الجزية (يش ١٦ : ١٠) . وازدادت شوكتهم . وكان شعب الله إذا
اشتدوا «جعلوهم تحت الجزية ، ولم يطردهم طرداً» (يش ١٧ : ١٣) . وتكررت
نفس العبارة في سفر القضاة أيضاً (قض ١ : ٢٨) .

فسكن الكنعانيون في الأرض (قض ١ : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣) .
وصار الكنعانيون شركاً لشعب الله ومضايقين له (قض ٢ : ٣) .
فاختلطوا بهم ، وتزاوجوا معهم ، وعبدوا آلهتهم (قض ٣ : ٥ - ٧) .
وأصبح الكنعانيون هنا رمزاً لبقايا الشر الموجودة في الأرض ، التي لم تنزع من
جذورها ، فصارت سبباً لنسيان الله والبعد عنه والرجوع إلى الخطية مرة أخرى .

هنا ونسألك : حينما تبت ، وسمح لك الله أن تأكل في حياتك الجديدة لبناً
وعسلًا ، هل استقيت بعضاً من الكنعانيين في الأرض ، ولو كمبيد يخدمونك وهم تحت
الجزية . تظنهم خاضعين لك ، بينما ينتهي الأمر أن تقع في نجاساتهم وتعبد عباداتهم !!
هل استقيت بعضاً من طباeck القديمة وأنت في حياة التوبة ؟
أقول هذا ، لأننا في بعض الأحيان ، نجد خداماً في الكنيسة ، وربما مكرسين

(١) عن محاضرة ألقيت في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٣/١٠/١٩٧٨ .

للخدمة ، وطبعاً هؤلاء يرون أنفسهم أنهم ليسوا فقط في حياة التوبة ، بل ربما بالأكثر في حياة البر ، ومع ذلك لهم طباع تشبه أهل العالم تماماً ! أخلاقهم علمانية وليست روحية ! فكيف حدث ذلك ؟ وكيف جمعوا بين الخدمة وهذه الطباع معاً ؟ فلنضرب لذلك أمثلة :

١ - إنسان قبل أن يعرف المسيح كان غضوباً ... ثم تاب . ولكنه استبق معه

الغضب !

قبل أن يتوب ، وقبل أن يدخل في حياة الخدمة ، كان بغضب ، ويحتد ، ويعلو صوته ، ويشتم ، ويتشاجر ... ثم تاب ، واستبق الكنعانيين في الأرض . ترك معه هذه الطباع كما هي وتراه في الخدمة ، وعلم الرغم من مسؤولياته الكثيرة فيها ، يثور ويضج ويحتد ، ويأمر وينهى بصوت عال ، ويشعل الجو ناراً ...

وتعاتبه على غضبه ، فيقول لك إنه الغضب المقدس ! ... أنا أغضب من أجل الله وحقوقه ! وأثور من أجل إصلاح الأوضاع الخاطئة ... من أجل الوصية ... من أجل أن أعلمهم ماذا ينبغي أن يكون !

وفي الحقيقة إنه يثور ، لأنه عاجز عن مقاومة الغضب داخله .

وفي الحقيقة ليس هذا غضباً مقدساً ، لأنه ضد الوصية التي تقول « المحبة تتأني وترفق ولا تحتد » (١ كو ١٣ : ٤ ، ٥) . وضد الوصية التي تقول « غضب الإنسان لا يصنع بر الله » (يع ١ : ٢٠) . وأيضاً ضد الوصية التي تقول « ليرفع من بينكم كل مراة وسخط وغضب وصياح ... وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض » (أف ٤ : ٣١ ، ٣٢) .

والغضب المقدس يجب أن يكون مقدساً في وسيلته أيضاً .

وليس فقط في هدفه وغرضه . فالذى يثور بهذا الشكل يدل على أن أعصابه ليست سليمة ، ويعطى قدوة سيئة ومظهراً غير مشرف للخدمة ، ويدل على عدم نقاوة في الأسلوب وفي طريقة التعامل ...

وكل ما في الأمر أن هذا الشخص استبق معه بعض طباع رديئة وأراد أن يسبق عليها صورة مقدسة ، ويستخدمها بنفس أخطائها داخل الكنيسة . وأصبحت توبته وخدمته معثرة ، وهي كمن يضع رقعة جديدة على ثوبه العتيق (متى ٩ : ١٦) . وكان الأولى به أن يترك كل الغضب القديم بكل صورته . وهنا يسأل : وهل لا أدافع عن

الحق ؟ فنجيبه :

إذا أراد الله أن يعطيك غضباً مقدساً للدفاع عن الحق ، فسيكون غضباً آخر مختلفاً في الجوهر والصورة والأداء والتعبير .
سيكون غضباً روحياً ، غير غضبك العلماني هذا . تغضب فيه ولا تخطيء (مز ٤) .

لقد دافعت أبيعابيل عن الحق لما كلمت داود ، ولكن في أسلوب رقيق ومؤدب وحكيم (١ صم ٢٥) . والسيد المسيح كشف للمرأة السامرية أخطاءها ، ولكن بأسلوب روحى غير جارح (يو ٤) . وأولاد الله دائماً يعبرون عن احتجاجهم على الخطأ بطريقة روحية ليس فيها صخب ولا ضوضاء ولا نرفزة ، كل هذه الأمور التى من بقايا الكنعانيين فى الأرض .

المشكلة هنا ، هى أن المقاييس الروحية غير سليمة .
إن المقاييس التى تحيز هذا الغضب الخاطىء ، وتعتبره مقدساً من أجل الله ، لا شك أنها مقاييس غير سليمة ، أو هى مجرد تبرير لوجود خطية قديمة لم يتطهر منها القلب بعد ، ولا تتفق مع حياة التوبة ، ولا مع ما يليق بالتوبة من تواضع وانسحاق ... ويمكن أن تتطور حتى تتلف روحيات الإنسان كلها ، وكأنه لم يتب .

٢ - مثال آخر هو الخلط بين الشتيمة والتوبيخ الروحى .
نفس الوضع . إنسان كان شتاماً قبل التوبة . ثم تاب ، أو ظن أنه تاب ، بينما استبقى بعض أخطائه القديمة . ومن ضمنها الشتيمة وبعض الألفاظ الجارحة . واعتبر إنها نافعة له يمكن أن يستخدمها فى توبيخ الخطاة . ومع نسيانه أن الثائب ليس له أن يوبخ إلا نفسه ، وليس له أن ينسى خطاياهم ، لكى يهتم بخطاياهم غيره ويكته عليها ... إلا أنه مازال يتمسك بقول بولس الرسول « وبخ إنترعظ » (٢ تي ٤ : ٢) .

وينسى ما هى الطريقة الروحية للإنذار ...
إن القديس بولس الذى قال هذه النصيحة لتلميذه الأسقف تيموثاوس ، هو نفسه الذى قال لكهنة أفسس « ثلاث سنين ليلاً ونهاراً ، لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد » (أع ٢٠ : ٣١) . فهل أنت تنذر الناس فى حب ودموع ، أم فى كبرياء وتسلسط وفى احتقارهم ولشاعرهم !؟

إن التائب لا ينتهر أحداً . وإن انتهر ، لا ينسى روح الوداعة .
تلك التي قال عنها الرسول « أيها الأخوة ، إن انسيت إنسان فأخذ في زلة ما ، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ، ناظرًا إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً » (غل ٦ : ١) . نعم ، فنحن كلنا تحت الزلزل . والتائب المتذكر لخطاياها ، إن تعرض لإصلاح أحد ، لا ينسى مطلقاً أنه أخطأ مثل هذا الإنسان قبلاً . فإن نسي ، يعرض نفسه لفقدان توبته ، وتدخله روح الكبرياء ...
أما الذي في انتهاره يتناول ويشتم غيره ، فهذا لم يتب حتى الآن ، وعليه أن يتذكر قول الرسول :

« ... لا شتامون ... يرثون ملكوت الله » (١ كو ٦ : ١٠) .
الذي يستبق الشتيمة في طباعه ، إنما يستبق الكنعانيين في الأرض لإتلافها .
والشتيمة لا يليق إستعمالها في الخدمة ، لأن وسائل الخدمة ينبغي أن تكون طاهرة .

لا يليق بالتائب أن يغطي خطاياها بآيات يسىء فهمها .
أو يسىء إستخدامها قصداً . الأفضل أن يعترف أن بعض ضعفاته مازالت موجودة لم يتخلص منها بعد ، مثل الغضب والترفزة وحدة الطبع والشتيمة . وقد حملها معه في حياته الجديدة ، تعكر هذه الحياة ، وتمنعه من حفظ التوبة .
لا تقل « الروح القدس يبكى الناس على لسانى » . فالروح القدس له أسلوبه الخاص وألفاظه النقية .
هناك إنسان آخر يظن أنه تاب ، بينما يكون قد استبق خطية أخرى :

٣ - يكون قد استبق في توبته ما في طبيعه من عناد .
والعناد يرتبط دائماً بالكبرياء . فهو نتيجة للثقة الخاطئة بالنفس ، والتشبث بالرأى الخاص ، واحتقار آراء الآخرين ، وعدم المبالاه بنتائج صلابه رأيه ...
وقد يكون هذا العناد وهذه الصلابه في محيط الكنيسة والخدمة ومدارس الأحد .
ويقول الجميع « فلان من الصعب التفاهم معه » ... ومع ذلك فهو ليس مجرد تائب ، إنما هو خادم ، وربما مسئول كبير في الخدمة ، ونشيط ، ويعظ ، ويتكلم في الروحانيات واللاهوتيات والعقيدة وقصص القديسين . له معلومات . ولكن الكنعانيين لا يزالون في الأرض .

ويعاود أن يسمى عناده باسم (الدفاع عن الحق) .
بينما الحق يدعوه أن يكون متواضعاً ومتواضعاً ومحترماً لآراء غيره... ولكنها ثياب
الحملان تلبسها بعض الخطايا . وحقيقة الأمر أن (الذات) ماتزال قائمة . وهذا الإنسان
ربما يكون في توبته قد تخلص من خطايا كثيرة ولكنه...

ولكنه لم يتخلص من [الذات] ، حملها معه في توبته .
وما أكثر الذين يفشلون في توبتهم بسبب (الذات) ، وربما تسقطهم في عديد من
الخطايا ، وترجمهم إلى حالة ما قبل التوبة . ولكن كثيرين من الذين تابوا ، لا يحسون
بحرب الذات هذه ، وربما لا يرون إنها أكبر خطاياهم .

٤ - وهناك من يتوب ، ويستيق خطية الإدانة والانتقاد .
إنسان كان واقعاً في هذه الخطية إلى حد بعيد . ثم دخل في حياة التوبة . وشغلته
إلى حين الخطايا الكبيرة التي تركها . ثم مالبت خطية الإدانة التي كانت عنده أن
ظهرت مرة أخرى... والعجيب أن هذا الإنسان كلما يحس أنه غما في التوبة ، واقترب
إلى الله ، وبعد عن الخطية ، على هذا القدر تزداد خطية الإدانة ظهوراً في حياته...
وأصبح ينتقد كل شيء ، وكل أحد ، ولا يعجبه شيء !
البصيرة الروحية التي وهبت له في التوبة ، صار يوجهها إلى أعمال غيره وليس إلى
أعماله ! والمثالية التي أحبا في التوبة ، أصبح يقيس بها تصرفات الناس وليس تصرفاته
هو! وإذا به ينتقد الكل...
المسألة في واقعها ليست حرصاً على المثالية ، إنما هي عدم قدرة على ترك خطية
الإدانة والانتقاد التي تركها معه من ماضيه ، وإذا بالكنعانيين لا يزالون في الأرض .

وهذه الروح تدخل حتى في الخدمة والتعليم .
ففرع من فروع الخدمة ، يرفض المنهج العام ، ويظل ينتقد : هذا المنهج فيه أخطاء
كذا وكذا ، وينقصه كذا وكذا . ومنهج فرعنا أفضل !... ويتحول هذا الفرع إلى
«قطاع خاص» في محيط الخدمة ، ولا تهمة وحدة التعليم في الكنيسة . [الذات]
لاتزال باقية . لم تمت حين بدأت التوبة...

وروح الانتقاد تجعل جماعات منغلقة على نفسها .

كانها جزائر داخل الكنيسة ، لا تتصل بأرض أخرى . قد تخرج منها سفن إلى هذه الأرض أو تلك ، وقد تأتيها سفن من أراض أخرى . ومع ذلك هي جزائر قائمة بنفسها ، داخل الذات ، التي ظلت باقية بعد التوبة .

ولا تكفى بهذه الإنفرادية ، وإنما تنتقد كل وضع آخر ، بكل عنف . فإن سألت واحداً منهم « لماذا كل هذا ؟ » يجيبك بعبارة أرمياء النبي « ليت عيني ينبوع دموع ، فأبكي نهاراً وليلاً قتل بنت شعبي » (أر ٩ : ١) .

يا أخى إيلك على خطاياك ، قبل أن تبكى على الشعب .

ولكن هذا النوع للأسف ، لا يرى له خطايا تحتاج إلى بكاء ... !

إنه بعد أن بدأ التوبة ، لم يعد مشغولاً إلا بخطايا غيره ، ولذلك يحيا باستمرار في جو مشبع بالإدانة والانتقاد للآخرين ، في غير رافة . أما من جهته هو ، فيضع نفسه تحت عبارة « لا يحتاجون إلى توبة » (لو ١٥ : ٧) . لذلك يعيش في منهج الفريسي لا العشار (لو ١٨ : ٩ - ١٤) ... الفريسي الذي يصوم ويعشر أمواله ، وليس هو من الظالمين الخاطفين الزناه . ولكنه يستبق الكنعانيين في الأرض ...

٥ - وقد يتوب الإنسان ، ولكنه يستبق في طباعه : الكسل .

ربما يكون إنساناً كسولاً ويتوب . ولكنه يترك خطايا الأخرى ، ويحفظ بالكسل . فترى هذا الكسل واضحاً في خدمته ، في عبادته ، في تداريبه ، في قراءاته ، في حضوره للإجتماعات ، في مواظبته على الاعتراف . وإن سأله أحد كيف يسمح لنفسه بالبقاء في هذا الكسل ؟ يجيب « يكفيني إني أحب يسوع » !

وتتعجب ، هل محبته لرب المجد سبباً لكسله ؟!

هوذا الرسول يدعونا أن نكون « حارين في الروح . غير متكاسلين في الاجتهاد . مواظبين على الصلاة » (رو ١٢ : ١١ ، ١٢) . ولكن يبدو أن محاولات تغطية الخطايا تكاد تصبح عادة عند البعض ... أما الإدعاء « بكفاية محبة الرب ، فالرد عليها بسيط ، وهو أن الرب نفسه قال : من يحبني يحفظ وصاياي (يو ١٥ : ١٠) . فأين حفظ الوصايا بالنسبة إلى هذا الكسل ؟!

٦ - وربما إنسان يتوب ، ويستبق معه خطية (التحاليل) .

قبل أن يتوب ، كان له هذا الطبع . يعرف أن يصل إلى غرضه بالأساليب

الملتوية ، باللف والدوران ، بالحيل البشرية ، بالدهاء ، بطرقه الخاصة ... وبعد أن تاب ، استبق هذا الطبع معه ... وصار يلجأ إليه أحياناً ، كما لجأ يعقوب إلى خديعة أبيه لأخذ البركة !!

ربما تقع الكنيسة في مشكلة ، أو تقع الخدمة في مشكلة . ويختار الكل كيف يكون حل الموضوع ، فيتدخل هذا الإنسان ويقول « أتركوا لي هذا الموضوع لأحله » ... وكيف تحله ؟ « أحله بطرق الخاصة ... أنا أعرف هذه اللعبة جيداً » ... طبعاً يعرفها لأنه كان يلعبها من قبل ، قبل أن يتوب . ولا مانع من أن يلعبها الآن ... ويتساءل البعض كيف أتى بذلك الحل ؟ والجواب واضح . من الكنعانيين الذين لا يزالون في الأرض ، يعطونه المشورة (الطيبة) !

وتشعر في حله للمشكلة أنه لم يتب بعد ... ومع ذلك ضميره لا يتعبه ! قديماً كان يلجأ إلى اللف والدوران وإلى الطرق الملتوية من أجل أمور العالم ... أما الآن فيلجأ إلى كل هذا من أجل الله !! لا داعي إذن لأن يوبخه ضميره ! وهكذا ينحدر خارج التوبة . ولا يشعر في توبته أنه قد تغير ... الشخصية القديمة مازالت كما هي لم تغير أساليبها ... وبنفس الوضع ينحدر إلى ما هو أسوأ ...

ويبقى معه الاعتماد على الذراع البشرى ، حتى في توبته . ويؤثر هذا الأمر على روحياته كلها ، وقد ينتهي إلى فشله في حياة التوبة . ولكن ما كان ينتبه إلى هذه النقطة ، إذ كان يظن أن التوبة هي مجرد ترك الخطايا (الكبار) أمثال الزنا والسرقة والسكر والقمار ... الخ

٧ - وربما شخص يكون قد (تاب) ولكنه استبق تبرير الذات . اعتبر أن الدفاع عن النفس شيء عادي . ولكنه صار يدافع عن نفسه في كل شيء ، كأنه لا يخطئ في شيء ، حتى أبعد عنه كل ذى نصيحة أو عتاب . وربما عن طريق تبرير الذات يقع في أخطاء لا تحصى ، مهما وصل إلى درجات في الخدمة ... وهناك نوع آخر غير كل هؤلاء . كان محارباً بالكآبة ...

٨ - ويتوب هذا الإنسان ، ويستبق الكآبة وباقي حروبها . وإذا بك تجده يتعب في حياته الروحية بسبب أية مشكلة ، وينهار ، ويضطرب

وفقد سلامه . ويقول : « لا فائدة منى . لقد يشئت . لقد تعقدت من الموضوع الفلانى » .

إن الكآبة حرب من الشيطان ، أو تعب فى الأعصاب . وليست هى صفة من صفات أولاد الله ، لأن من ثمار الروح : فرح وسلام (غل ٥ : ٢٢) . ويمكن بهذه الكآبة ينحرف الإنسان عن طريقه الروحى ، ويضل الطريق عن الله ...

إذن علينا أن نفحص أنفسنا جيداً ، لنرى ما الذى قد استبقيناه من حياتنا الأولى قبل التوبة ، لننتخلص منه .

لثلا نظن أننا قد دخلنا كنعمان فعلاً ، بينما نكون لانزال تائهين فى البرية . والذى يظهر نفسه من كل رواسب الحياة القديمة ، يمكنه أن يشق طريقه إلى الله بسهولة ، ولا ينتكس فى توبته .

وبالذات بالنسبة إلى الخطايا التى قد تأخذ صورة غير صورتها .

٩ - مثال حب المال أو حب القنية .

وقد يقول شخص : ولكن هذا الأمر واضح . كيف يمكن أن يتخدع به إنسان فى التوبة ؟ أقول لكم كيف تتم الخدعة ...

إنسان كان يحب المال ، أو كان بخيلاً لا يجب أن يصرف مما معه . ثم تاب ، أو ظن أنه تاب . وعاش فى الحياة الجديدة مع الله . وربما صار خادماً معروفاً ، أو راهباً فى دير . ثم تجد هذه الخطيئة القديمة تأخذ مظهراً كنسياً .

يرجع حب المال ، ولكن ... من أجل الكنيسة ، من أجل الدير !

ويكون ذلك بأسلوب قد لا يتفق مطلقاً مع حياة التوبة ، أو مع الروحيات عموماً . وقد يعتذر بقوله : أنا لا آخذ لنفسى شيئاً . أنا أجمع لله ! هذا حق ، ولكنه يجمع بطريقة علمانية غير روحية ، لا تتفق مع عدم محبة المال ، ولا مع النسك والزهد ! وقد ترى عجباً من بعض المسؤولين عن مال الكنائس والجمعيات . وتسال أين حياة التوبة ؟ ولكن أمثال هؤلاء قد استبقوا بعض الكنعانيين فى الأرض .

وينطبق على هذا ، الكنائس الغنية التى لا تساعد الكنائس الفقيرة .

أليس المال كله هو مال الله . وسواء عند الله تم الصرف على هذه الكنيسة أو تلك . ولكن محبة المال تدعو إلى جمعه هنا ، وليس هناك ... وما أكثر أمناء الصندوق

(١)

لا ترجعوا بين الفرقتين

قال إيليا النبي للشعب « حتى متى ترجعون بين الفرقتين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه . وإن كان البعل فاتبعوه » (١ مل ١٨ : ٢١) .

التعرج بين الفرقتين ، يدل على أن القلب غير ثابت في محبة الله ، وعلى أن التوبة غير صادقة أو غير كاملة .

إن وصلت التوبة إلى كمالها ، لا يعرج الإنسان بين الفرقتين ، بين الله والعالم . أما إن بدت نظراته تهتز بين هنا وهناك ، فإن هذا يدل على أنه بدأ يعادود النظر في التوبة . فتي يحدث هذا ؟

يحدث أحياناً إن الإنسان يقدم الإرادة لله ، من أجل الطاعة . ولكنه لا يقدم القلب ، كل القلب . يسلم يده للملاك ليقوده خارج سدوم ، وقلبه لا يزال داخلها .

قد تكون توبته مجرد محاولة لإرضاء الله ، وليست محبة للرب . أو ربما يكون قد ترك الخطية من أجل مخافة الله فقط ... لأجل خوف العقوبة ، لمجرد الحرص على أبعديته ، دون أن تكون محبة الله أو محبة البر ثابتة في قلبه . لذلك فإن أية هزة تتعبه من العدو ، إما أن ترجعه إلى الخطية أو تميل قلبه ...

وحدث هذا أيضاً إن كان هدف التوبة غير سليم .

حنانيا وسفيرا باعا ممتلكاتها وقدا الثمن للرسول ، ليس زهداً في المال وحباً لله ، إنما لكي يجاريا الجو الروحي السائد في العصر الرسولي ، مجرد مجارة ، مع عدم إيمان قلبي بتفاهة المال ... لذلك لم يقدموا المال كله ، وإنما احتجزوا منه جزءاً ، لأن محبة العالم كانت لا تزال داخل القلب (أع ٥) .

فهل أنت كذلك ؟ هل دخلت التوبة مجارة للجو الروحي ؟

أقصد لمجرد المجارة أو التقليد ، دون أن يتطهر القلب في الداخل من محبة الخطية ، ودون أن تقتنع تماماً بدنس الخطية وبشاعتها ... !

إن التوبة بسبب المجارة ، قد تدعو إلى التعرج بين الفرقتين .

إن راحيل تركت بيت أبيها لابان ، وذهبت مع يعقوب ، ربما محبة ليعقوب ومجارة

(١) عن محاضرة أقيمت في الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٥/٢/٧ .

له في ترك ذلك الوسط المتعب . ولكن الهدف الأساسي - الذي هو ترك مكان تُعبد فيه الأصنام - لم يكن موجوداً . ولهذا أمكن أن تخرج راحيل من بيت لابان ، وتأخذ معها أصنام أبيها لابان... ! وهكذا كانت تعرج بين الفرقتين (تك ٣١ : ٣٤) ...

وأنت : هل دخلت الحياة الجديدة بحبة لشخص كيعقوب أم بحبة لله ؟
ربما بحبة شخص روحي ، تقود إلى الطريق الروحي . ولكن هذه ينبغي أن تكون نقطة البدء فقط ، وتتحول إلى بحبة لله . لأنه لو بقي هذا الدافع وحده ، بقيت الحياة الروحية معلقة بحبة هذا الشخص الروحي . وأصبح التائب عرضة للرجوع .

بنو إسرائيل تركوا مصر تابعين موسى . ولكنهم ما كانوا قد كونوا علاقة ثابتة مع الله . لذلك تقلقلوا ورجعوا .

بمجرد أن غاب موسى عنهم أربعين يوماً ، حينما كان مع الله على الجبل ، جعل هذا الشعب يعيدون التفكير في علاقتهم مع الله ، وانتهوا إلى عبادة عجل ذهبي (خر ٣٢) . بل إن أية ضيقات كانت تحدث لهم في البرية ، كانت تدعوهم إلى التذمر ، وإلى اشتاء العودة مرة أخرى إلى مصر... واشتاء اللحم والبطيخ والكرات (عدد ١١ : ٤ ، ٥) .

إذن لا بد من تكوين علاقة ثابتة مع الله خوف الإنكاس .
نقطة البدء في التوبة ، لا يصح أن تبقى حيث هي . إنما ينبغي أن ينمو التائب في روحياته ، ودوافعه ، وعلاقته مع الله ، حتى لا يعود القلب فيشتاق الحياة السابقة في الخطية . وكلما كانت العلاقة ثابتة مع الله ، لا يتعرض التائب إلى مشاعر التعرّيج بين الفرقتين ، وشهوات الرجوع إلى الخطية .

وما أسهل أن يُحارب بالجمع بين الأمرين معاً : الله والعالم !
على الرغم من صراحة قول الكتاب « بحبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) . شمشون حاول أن يجمع بين كونه نذير الرب ، وصديقاً لدليلة في نفس الوقت ، ففشل وفقد نذره . ولوط حاول أن يجمع بين بحبة الأرض المعشبة الخاطئة وكونه رجل الله ، ففقد كل ما كان له في سدوم . حقاً إنه لا شركة بين النور والظلمة (٢ كو ١٤ : ٦) .

كذلك ملاك كنيسة ساردس حاول أن يجمع بين الخدمة والإهمال . وملاك كنيسة

لاودكية حاول أن يجمع بين الخدمة والفتور. وكل منها أرسل إليه إنذار من الله (رؤ ٣ : ١٦) .

عجيب إن شاو الملك أراد اللجوء إلى العرافة ، وإلى صموئيل النبي ، في نفس الوقت (١ صم ٢٨ : ١١) !

على التائب أن يكون دقيقاً في البعد عن العالميات .

فقد قال الرب في وضوح إنه لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين (لو ١٦ : ١٣) . وفي البعد عن العالميات اتقاء للتأثير المضاد الذي يجذب الإنسان بعيداً عن التوبة ... حقاً إنه تاب . ولكن العالميات لا تزال لها حروبها وضغطاتها ، وليس الإنسان معصوماً في التعامل معها . لذلك يجب الحرص والدقة .

وقد يحاربه العدو بما يسمونه « الطريق الوسطى » .

ومعروف المثل القائل « الطريق الوسطى خلصت كثيرين » . ويستخدمه بعض الآباء الروحيين في نصيح الذي يندفع في تطرف روحي قد يتعبه . ولكننا نقول إن البعد عن التطرف ، ليس معناه البعد عن التدقيق . فالذي يبعد عن التدقيق إنما يحاول الوصول إلى الله من الباب الواسع والطريق الرحب . وهذا ضد الوصية (متى ١٣ : ٧) .

كل ما نخشاه في هذا الأمر أن التائب يعود التساهل في حياته . وهذا التساهل يحدره إلى أسفل حتى يفقد حرارة التوبة ، ثم يفقد التوبة ذاتها ويخطيء ...

وقد يحارب التائب أيضاً بشكلية العبادة ، وشكلية الروحيات .

إنسان تائب تدفعه حرارة التوبة إلى النمو في العبادة . وقد يأخذ هذا النمو مقياس الطول وليس مقياس العمق . فيكثر من الصلوات ولو بغير روح ، ويكثر من القراءات ولو بغير فهم ، ويكثر من تناول ولو بغير استعداد ، ويكثر من إرهاق الجسد ولو بغير فائدة ... وشيئاً فشيئاً قد يتحول إلى شكلية العبادة . وهذه الشكلية لا تنفعه ، وقد يشعر بهذا فيتركها ، ثم يسأم الحياة الروحية ، فيشتاق إلى حياته الأولى !

والتائب هنا يحتاج إلى قيادة وإلى إرشاد روحي .

لكي يعرف ما هي روحانية العبادة ، وكيف يسلك فيها ؟ وكيف أن الله كان يرفض العبادة الشكلية والمظهرية . وأنه يريد القلب أولاً . وكل صور العبادة من صلاة

وتأمل وقراءة وصوم وتناول واعتراف ، ينبغي أن تكون صادرة من قلب محب لله ، وينبغي أن تمارس بفهم وبعمق وروحى ومحبة نحو الله . وتكون صادرة من القلب . وليضع التائب أمامه توبيخ الرب للعبادة الخاطئة بقوله « هذا الشعب يعبدنى بشفتيه . أما قلبه فبتعد عني بعيداً » (متى ١٥ : ٨) .

إن مظهرية الحياة الروحية ، تبعد عن حياة التوبة .

فالروحيات ليست مظاهر وشكليات . وهذه لا تدل على علاقة مع الله . وقد ويخ الرب الكتبة والفريسيين ، على الرغم من تدقيقهم الشديد فى حفظ الوصايا ، تدقيقاً وصل بهم إلى الحرفية والبعد عن الروح ! ولم يقبله الله منهم وقال لهم إنهم يهتمون بتنظيف خارج الكأس فقط ... و يقيناً لم يكن الكتبة والفريسيون تائبين . على الرغم من كل ما كانوا يفتخرون به من دقة فى تنفيذ الناموس ، كانوا بعيدين عن التوبة .

فلا تكن فى توبتك حرفياً ، ولا تهتم بالمظهرية .

لأنك إن فعلت هذا سترتد وتفقد توبتك . إنما اهتم بالروح قبل كل شئ . إهتم بحبة الله . ولتكن كل روحياتك صادرة عن هذه المحبة . بهذا تحفظ توبتك . وهذا تضمن أنك سوف لا تعرج بين الفرقتين .

إن بلعام كان يهيم أن يكون مظهره من الخارج سليماً ، لا تُمسك عليه خطية ولا كلمة خاطئة ، بينما قلبه من الداخل لم يكن مع الله (عدد ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) . كان يريد أن يتمتع بالخطية ، دون أن يظهر بمظهر الخطية . ولكن الله هو فاحص القلوب ... قلب بلعام لم يكن سليماً أمام الله . كان يعرج بين الفرقتين . يحب أموال بالاق ، ويريد أن يرضيه . وفى نفس الوقت لا يقول بلسانه كلمة تغضب الرب . وهلك بلعام . إن الذى يعرج بين الفرقتين ، قد يصل إلى هذا الوضع :

قد يرتكب الخطية ، إن وجد باباً للهروب من مسئوليتها .

الذى تشغله إذن هى المسئولية ، وليست نقاوة القلب ، وليست محبة الله . لذلك هو بعيد عن حياة التوبة .

فلا تكن أنت كذلك . ليكن قلبك ثابتاً فى محبة الله ، لا يعرج على طريق الخطية . ولكى يكون قلبك ثابتاً فى محبة الله ، إهتم بغذاء روحك ...

(١)

الفصل بين النور والظلمة

إن كنت قد تبت ، ودخل نور اله إلى قلبك :

فلكى تحتفظ بتوبتك ، إفصل نفسك عن كل أعمال الظلمة .

إنها قاعدة وضعها الله لنا منذ البدء ، يروها سفر التكوين بقوله « ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين النور والظلمة » (تك ١ : ٤) . وتستمر القاعدة في العهد الجديد إذ يقول « أية شركة للنور مع الظلمة ! » (٢ كو ٦ : ١٤) .
لا يمكن أن يجمع إنسان روحى بين الإثنين في حياته . لذلك فكل من يسير في طريق الله :

لا بد أن يفصل ذاته عن كل أسباب الخطية والعثرة .

فهكذا أراد الله منذ بدء الخليقة . ولكن القاعدة كسرت فتسببت الخطية . أول كسر لهذه القاعدة كان عندما جلست حواء مع الحية (تك ٣) ، ورأينا كيف طغت الظلمة على النور . ويحدثنا الكتاب عن كسر آخر خطير لهذه القاعدة ، حينما يروى قبيل الطوفان أن « أولاد الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا » (تك ٦ : ٢) . وكانت النتيجة أن شر الإنسان قد كثر ، واضطر الله إلى تطهير الأرض من الفساد بالطوفان . إذ أن الظلمة للمرة الثانية طغت على النور .

وعاد الله ففصل بين النور والظلمة ، بواسطة الفلك .

إختار جماعة مقدسة هى نوح وأسرته ، وفصلهم عن العالم الشرير ، حتى يستبقى له مجموعة بارة لا تفسد بفساد العالم ... وبالوقت لما دخل الفساد فى أولاد نوح ، اختار الله إبراهيم وفصله عن العالم الشرير ، فقال له « إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك ... وتكون بركة » (تك ١٢ : ١ ، ٢) . وكان الله يقول لعبده إبراهيم :

أتترك مكان الخطية ، لتحفظ بنقاوة قلبك ، بعيداً عن الشر .

يجب أن ينفصل النور الذى فىك عن الظلمة التى فىهم .

وبنفس الوضع أمر الرب شعبه أن لا يصنعوا عهداً مع شعوب الأرض ، ولا يتزاوجوا معهم (خر ٣٤ : ١٥ ، ١٦) . ومنعهم من النساء الغربيات الأجنبية (أم

(١) عن محاضرة ألتيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٦/١/٣١ .

٢ : ١٦). إن الله يريد لأولاده أن يبعدوا عن كل خلطة شريرة (مز ١).

وأمر الرسول أن لا يؤاكلوا ولا يخالطوا الخطاة (١ كو ٦ : ١١).

وأن يعزلوا الخبيث من بينهم . وبنفس المنهج قال القديس يوحنا الحبيب « إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم ، فلا تقبلوه في البيت ، ولا تقولوا له سلام . لأن من يسلم عليه يشترك في أعماله الشريرة » (٢ يو : ١٠ ، ١١) .
لأنه يجب الانفصال عن الخطية والخطاة ، سلوكاً ومعرفة .

إن كانت التأثيرات الخارجية قد أسقطت شمشون وداود وسليمان ، فليحترس بالحرى الضعفاء وليبعدوا فهذا أسلم لهم ...

وهكذا كانت الكنيسة في العصر الرسولي ، وفي القرون الأربعة الأولى للمسيحية بوجه خاص ، تعزل الخطاة خارج الكنيسة ، ويبقى المؤمنون كلهم كجماعة مقدسة منفصلة عن الشر والأشرار . كما حدث في قصة حنانيا وسفيرا (أع ٥) . وخطاىء كورنثوس (١ كو ٥ : ٥) .

أول اعتزال يعتزله الإنسان عن الشر ، هو في المعمودية .

حيث يجحد الشيطان معتزلاً عنه وعن كل أعماله الرديئة وشروره القبيحة ، وعن كل جنده وحيله وسلطانه . وكما يعتزل عن الشيطان ، يعتزل عن الإنسان العتيق الذي يدفن في المعمودية ، ليولد بدله إنسان جديد على صورة الله . ويضع أمامه طول حياته أن يعيش منفصلاً عن الخطية والخطاة .

ولعل إنساناً يسأل : وكيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟

إن لم تستطع أن تنفصل عن الخطاة مكانياً ، فانفصل عنهم عملياً . انفصل عنهم فكراً وأسلوباً ومنهج حياة .

أنت لا تقوى على عدم مخالطة كل الخطاة الذين في العالم ، وإلا كان عليك أن تترك العالم كما قال بولس الرسول (١ كو ٥ : ١٠) . ولكن لتكن خلطتك في حدود الضرورة فقط . وفكرك منفصل عن أفكارهم ، وأسلوبك غير أساليبهم . وحياتك غير حياتهم . بل أفاظك أيضاً غير أفاظهم ، كما يقول الكتاب « لغتك تظهرك » (متى ٢٦ : ٧٣) .

لهذا يقول القديس يوحنا الرسول : أولاد الله ظاهرون (١ يو ٣ : ١٠) .

إذا جلسوا مع أهل العالم ، يظهر الفاصل تماماً : ليس الفاصل في المكان ، وإنما في نوع الحياة ، وفي التعامل ، بل حتى في شكلهم وملاحظهم ونظراتهم وحركاتهم ... روحهم تميزهم . وترى عملياً كيف أن الله قد فصل بين النور والظلمة .

ولكني أحب أن يكون هذا الفصل عن غير كبرياء .
لا نريد لإنسان الله الذي يحيا حياة التوبة ، منفصلاً عن الخطاة ، أن يكون انفصاله عن تشامخ وتعال وكبرياء ، كأنه أفضل منهم ... ! مثلاً كان القريسيون والكتبة يفعلون ... ويلومون المسيح على مجالسته للعشارين والخطاة .
إنما نقصد ألا توجد شركة معهم في أى عمل خاطيء .
ولا توجد مجارة للأخطاء ، أو تقليد للطباع ، أو مجاملة على حساب الحق .
فالرسول يقول « لا تشاكلوا هذا الدهر » (رو ١٢ : ٢) . أى لا تصيروا شكلهم ...

التائب لا يجارى الخطاة في أخطائهم . وفي نفس الوقت لا يدينهم ، بل يشفق عليهم ، ويصلى لأجل خلاصهم . ويقول من جهة عدم خلطته بهم :
أنا من أجل ضعفى ، لا أقوى على هذه الخلطة .
إننى أبعد ، لأننى سريع التأثر ، سهل الإنجذاب . تستطيع العوامل الخارجية أن تقوى على إرادتى . لذلك البعد لى أضمن ، والهروب أليق . وليس الأمر تعالياً ، لأننى لا أنسى خطاياى القريية العهد .

وهكذا يختلف عن موقف الرعاة ، الذين يزورون الخطاة ويفتقدونهم .
ويفعلون هذا لكى يجذبهم إلى التوبة ، ويصلحهم مع الله . على شرط أن يكون الرعاة في أمثال هذه اللحظة ، متحفظين ، لا يفقدون هيبتهم الروحية ، ولا يندمجون مع الخطاة في لهوهم وعبثهم . بل يكونون شهوداً للحق ، وسفراء للرب ، وقدوة أمام هؤلاء ...

كان السيد المسيح يجلس في موائد العشارين ويدخل بيوتهم ، لكى يجذبهم إلى التوبة ، ولكى يرفع معنوياتهم . فيدركون أن لهم نصيباً فيه ، وأنه ليس للأبرار فقط .

أما التائب فيقول : لست أنا في مستوى الرعاة ، ولا في قوة المسيح . إننى أضعف من هذه الخلطة . فلأبعد عنها .

أنا لم أصل بعد إلى مستوى من يهدى غيره ويقوده إلى التوبة ، فأنا مازلت محتاجاً

إلى من يهدينى ، ويشيقى فى توبى .

لذلك فهو يعتزل الخطاة ، محتفظاً بانسحاق قلبه . لا يحتقر أحداً منهم . ولا يرى فى داخله إنه نور يفصل عن الظلمة . فجرد هذا التميز فى ذهنه لا يتفق مع مشاعر التوبة .

وفى قلبه يعرف من الذين قيل عنهم إنهم نور .

الإنسان البار ، الذى هو نور ، أو من ضمن الذين قال لهم الرب « أنتم نور العالم » (متى ٥ : ١٤) . هذا إذا حلّ فى أى مكان تحتفى الظلمة بسبب نوره . مثلاً إذا وضعت مصباحاً فى أى مكان مظلم ، تنقشع ظلمته و يصير مضيئاً . كذلك وجود الأبرار فى أى مكان يحلون فيه ، ينتشر فيه النور ، وتحتفى الظلمة .

هكذا هؤلاء القديسون : الذين بسبب هيبتهم الروحية ، لا تستطيع الظلمة أن تجد مجالاً لها فى وجودهم .

بل يستحى الخطاة منهم ومن وقارهم ومن قدسيتهم . ولا يجروأ أحد فى وجودهم أن يتصرف تصرفاً شائناً ، أو يتلفظ بلفظة خارجة . بل يخجل من ذاته ومن تصرفه . ويشعر الموجودون أن جوّاً روحياً قد ساد المكان ، يحلّول أحد من هؤلاء الأبرار فيه ... وإن كان هناك حديث خاطيء قبل دخولهم ، فإنه ينتهى ويصمت الكل ، وتحتفى الظلمة . ولا يستطيع أحد أن يخطيء فى وجودهم ...

فهل أنت هكذا ؟ هل صرت بعد توبتك نوراً ؟

هل صرت ولو شمعة صغيرة ، تعطى نوراً خافتاً ، ولكنه على أية الحالات يبدد الظلام . إن لم تصر نوراً هكذا ، فاحترس كل الإحتراس من الظلمة . واذكر كل حين قول الرب « لتكن أحمأؤكم ممنطقة ، ومصايحكم موقدة » (لو ١٢ : ٣٥) .

ولیکن نورك أولاً من أجل ذاتك .

من أجل أن تبصر جيداً . من أجل أن تكون لك البصيرة الروحية التى تميز طريق الله ومشيبته . كإحدى العذارى الحكيمات (متى ٢٥) ، اللاتى كان هن زيت فى مصابيحهن ، فأضأن وكن مستحقات الدخول مع العريس ...

بهذه المصابيح الموقدة ، إكشف الظلمة وأبعد عنها ...

ومن أجل الإحتفاظ باتضاعك ، خذ الظلمة بمعناها الموضوعى ، وليس بالمعنى الشخصى . خذها بمعنى الخطية فى كل صورها . وافصل نفسك عنها .

إفصل نفسك عن كل فكر شرير وشهوة شريرة .

لكي تستطيع في توبتك أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك حسب الوصية (تث ٦ : ٥) . وكيف يكون الحب من كل القلب ، إن لم يكن القلب منفصلاً عن كل شعور خاطيء ، وليست له خلطة بأفكار العالم وشهواته . وكلما يحاربك في توبتك فكر من أمور العالم ومحبته وملاذه ، أذكر قول الرسول : لا تحبوا العالم ، ولا الأشياء التي في العالم (١ يو ٢ : ١٥) .

يقوله « إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » ، « العالم يمضى وشهوته معه » (١ يو ٢ : ١٥ ، ١٧) ... ولكي تبعد عن محبة العالم ، إبعد عن التفكير فيه وفي شهواته . أنت لا يمكنك حالياً أن تنفصل عنه مكانياً ، فانفصل عنه فكراً وشعوراً . وقل للرب كما نقول في صلاة القسمة في القداس الإلهي : كل فكر لا يرضى صلاحك ، فليبعد عنا ...

وكن دقيقاً جداً ، وسريعاً جداً ، في فصل ذاتك عن الأفكار الخاطئة ... لأن الخطيئة يمكن أن تدخل إلى قلب الإنسان ، ولو من ثقب بسيط . وتظل توسع لها مكاناً فيه حتى تضيقه .

فاجلس إلى نفسك وافحصها واسأل : هل ما زالت في داخلي أية خلطة مع أسباب الخطيئة ، ومع أفكارها ومشاعرها . وإن وجدت شيئاً من ذلك فيك ، إنتهره واطرده وقل له : لقد فصل الله بين النور والظلمة ...

(١) الاهتمام بالروح

الاهتمام بالروح هو الناحية الإيجابية اللازمة لحفظ التوبة .

فما ذكرناه عن طرد الكنعانيين من الأرض ، وعدم التعرّيج بين الفترتين ، والفصل بين النور والظلمة ، إنما يمثل الحرص من الناحية السلبية . أما الاهتمام بالروح فيعمل العمل الإيجابي . لأن الروح القوية يمكن أن تحفظ الإنسان طاهراً . لذلك يلزم أن يهتم الإنسان بروحه ، كما هو يهتم بجسده . يهتم بالإثنين معاً ، ويحفظ

(١) عن محاضرتين ألقيتا في هذا الموضوع في القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس مساء الجمعة ١٥/١٠/١٩٦٥ ، ومساء الجمعة ٢٢/١٠/١٩٦٥ .

النظام والتوازن بينها . ويراعى هذه القاعدة :

إن العناية التي تبذل لأجل أحدهما ، ينبغي ألا تضر الآخر .

أقول هذا لأن البعض ربما في اهتمامه بالجسد وصحته ، يمتنع عن الصوم ، وهكذا يضر بروحه . وكثيراً ما يقع آباء وأمهات في هذا الخطأ في تربية أولادهم ، وكأنهم يربون أجساداً فقط بغير أرواح... ! إننا في تربية الحيوانات إنما نهتم بأجسامها ، فإما أن نعمل على تقويتها لأجل الشغل ، أو نعمل على تسمينها لأجل الذبح . ولكن هل نفعل نفس الأمر بالنسبة إلى الإنسان ، فنرى له جسداً لكي يأكله الدود . عار أن نهتم بالجسد الإنساني فقط . لذلك إهتموا بصحة أولادكم جسدياً ، واهتموا أيضاً بصحتهم الروحية . وكذا بصحتكم .

إن صحة الروح نافعة للروح وللجسد أيضاً .

فإذا مرضت الروح ، يمكن أن يمرض الجسد معها ، وبعض أمراض الجسد ترجع إلى أمراض روحية .

وإن كان مرض الروح يضر الجسد ، فليس بالضرورة أن مرض الجسد يضر الروح . بل على العكس غالباً ما ينفعها . إن أشد أمراض الجسد يمكن أن تنفع الروح ، وتقود الإنسان إلى التوبة ، وإلى الصلاة ، وتوقظ نفسه ونفوس الذين حوله ، وتعلمهم الزهد في الحياة . إهتم إذن بصحة روحك أكثر مما تهتم بصحة جسدك .

لا تكن حنوناً جداً على جسدك ، بينما تهلك روحك .

فإن السيد المسيح طلب عكس هذا ، حينما قال « إن كانت عينك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والحقها عنك... وإن كانت يديك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والحق عنك » (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) . وأرانا بهذا أن الروح هي الأهم . ومن أجلها تضحي بالجسد...

روحك هذه هي صورة الله ومثاله . وهي غالية عنده جداً .

من أجلها تجسد . ومن أجلها بذل دمه الطاهر على الصليب . إذن ثمن روحك هو دم المسيح ، وكل ما تحمله المسيح من آلام لأجلك .

روحك أيضاً وحيدة ، لا يوجد لديك غيرها .

إن فقدتها فقدت كل شيء ، وإن ربحتها ربحت كل شيء . إنها أغلى من العالم

كله . لذلك قال الرب « ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟! أو ماذا يعطى فداء عن نفسه » (متى ١٦ : ٢٦) .

روحك هذه ، لا يستطيع أحد أن يؤذيها ، إلا أنت .
قد يتمكن إنسان من أن يحبس جسده . ولكنه لا يستطيع أن يحبس روحك .
حتى في السجن تبقى طليقة . وقد يستطيع إنسان أن يقتل جسده ، ولكنه لا يقدر أن يقتل روحك ...

روحك عنصر سماوى . هي التي تعطى الحياة للجسد .
إذا اهتممت بها يمكن أن ترفع الجسد إلى فوق ، وتجعله في حالة روحية سامية .
وتصير أنت شبه ملاك أرضى . ينبغي إذن أن تهتم بها ، حتى لو ضعف جسده في سبيل ذلك .
فهذا الرسول يقول « إن كان إنساننا الخارج يفتنى ، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً » (٢ كو ٤ : ٦) .
إنساننا الخارجى هو هذا الجسد . والداخل هو الروح ...
هذا الجسد شبه الرسول بخيمة نحن ساكنون فيها (٢ كو ٥ : ١) . والأهم أن الساكن في الداخل هو الله .
لنتنا إذن نهتم بأرواحنا هذه ، حتى لا تخطيء ، وتخطيء الجسد معها ...

أنت تغذى جسده كل يوم . فيجب أن تغذى روحك أيضاً .
إن الروح تغذى كما يتغذى الجسد . يقول الرب « طعمى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى » (يو ٤ : ٣٤) .
وتتغذى الروح أيضاً « بكل كلمة تخرج من فم الله » (متى ٤ : ٤) .
فهل روحك تتغذى بكلام الله وبصنع مشيئته . وتأخذ هذا الغذاء كل يوم ؟
الجسد يتغذى بثلاث وجبات كل يوم .

في أول النهار وفي المساء وما بينها .
فهل تحرص أن تعطى روحك غذاءها مرات كل يوم أم تحملها فتضعف ؟

والجسد يتناول أنواعاً متعددة من الأغذية ليستوفى كل العناصر اللازمة .
إنك تعطيه غذاءً كاملاً فيه المواد الدهنية والسكرية والكربوهيدراتية ، وفيه البروتينات والفيتامينات والمعادن ...
وتحرص ألا ينقصه شيء مما يلزمه .
فهل تعطى روحك مثلما تعطى الجسد كل ما يلزمها ؟
هل تعطىها غذاءها من الصلوات والتسابيح

والتأملات والقراءات الروحية والمطانيات ؟ وهل تعطى ما يلزمها من عبة الله ؟ وهل هذا الغذاء تأخذه كل يوم ، ودفعات في اليوم ؟ مع باقى الأغذية الأخرى ... وأنت لا تكتفى بأن تعطى جسدك غذاء كل يوم ، ومرات في اليوم ، وعناصر متنوعة متكاملة . وإنما في غذائه أيضاً :

تعطيه طعامه بكميات كافية ، بقدر ما يحتاج من سعرات حرارية . فهل تعامل روحك بنفس المعاملة ؟ هل تعطى من الصلوات ما يشبعها ، أم تصلى دقائق معدودة وتسأم ؟ وهل تعطى من القراءات الروحية ما يشبعها من الكتاب المقدس وسير القديسين والموضوعات الروحية ؟ أم أنت غير مواظب وغير مهتم ، ولا يهيك أن تستوفى الروح غذاءها ، بينما هى تجوع وتعطش إلى البر (متى ٥ : ٦) .

والجسد لا يكتفى بكل الكميات والأنواع السابقة من الطعام ، إنما يشترط : أن يكون الطعام جيد الطهى حسن المذاق لتقبله شهيته . فهل أنت تقدم لروحك أطعمة جيدة حسنة المذاق ، أم تقدم لها صلوات سريعة بلا فهم بلا عاطفة بلا حرارة بلا روح وممزوجة بطياشة الفكر ؟! هل تظن هذه الصلوات يمكن أن تستفيد بها الروح ؟ وهل أنت تقدم لها قراءات بلا تأمل بلا عمق بلا فهم بلا تطبيق ؟ أتستطيع الروح أن تهضم هذا الغذاء وتستفيد به لنفوها ؟ وهكذا فى باقى الوسائط الروحية ... إهتم إذن بروحك ، واعلم أنه :

كما يضعف الجسد وعرض لقلّة الغذاء ، كذلك الروح أيضاً . الجسم يهزل لقلّة الغذاء ، والروح تفرّ وتفقّد حرارتها . ما أكثر الذين يصابون بأنيميا روحية أو بهزال روحى . وكما يمرض الجسد بسوء التغذية وبالعدوى ، كذلك الروح تمرض بهذه جميعها . وتحتاج إلى وقاية وحصانة كما يحتاج الجسد تماماً .

والجسد إذا مرض يحتاج إلى أطباء ، وكذلك الروح ... وأطباء الروح هم آباء الإعراف والمرشدون الروحيون . والأدوية الروحية معروفة وكثيرة ، ويحتاج إلى تناولها كل من يشعر بنقص فى ناحية معينة . ونحن نقول للرب فى القداس الغريغورى « ربطتنى بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة » ... ونقول له « أيها الطبيب الحقيقى الذى لأنفسنا وأجسادنا ... » لا شك أن الجسد يلاقى من الإنسان إهتماماً كبيراً لا تلاقىه الروح . ولذلك فإن

أحد الآباء قرأ مرة في سفر الجامعة قول الحكيم :

رأيت عبيداً على الخليل ، ورؤساء ماشين على الأرض كالعبيد (جا ١٠ : ٧) . فقال إن العبيد الراكبين على الخليل هم الأجساد التي نكرمها أزيد مما يلزم . والرؤساء الماشين على الأرض كالعبيد هم الأرواح التي لا تجدد إكراماً كالأجساد ، بل تجدد إهمالاً من كل ناحية ... الروح التي لها السيادة بحكم طبعها ، نهملها حتى تفقد سلطتها وتخضع للجسد ، وتمشي على الأرض كالعبيد ... !
إننا نهتم بالجسد فنعطيه غذاءه . ونجمله بالزينة .

وكما يتزين الجسد ويلبس ، ينبغي أيضاً أن تتزين الروح .
والروح تتزين بالفضائل ، زينة الروح الوديع الهادئ كما يقول الرسول (٢ بط ٣ : ٤) . وتلبس «لباس العرس» (متى ٢٢ : ١١ ، ١٢) . الذي يستحق لابسوه الدخول مع الرب في ملكوته . وتلبس البز (الحرير) الذي هو تبريرات القديسين (رؤ ١٩ : ٨) . وتقف أمام الله في ثياب بيض ...

فهل أنت تزين روحك بكل ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . أم تقف أمام الله عرياناً مثل ملاك كنيسة لاودكية (رؤ ٣ : ١٧) . واعرف أن كل زينة الجسد من الخارج لا تنفع ، كما يقول المزمور :

كل مجد إبنة الملك من داخل (مز ٤٥) .

مع أنها «مشملة بأطراف موشاة بالذهب ، ومزينة بأنواع كثيرة» ، فلتقف روحك في اليوم الأخير بكامل زينتها أمام الله «كعروس مزينة لعريسها» (رؤ ٢١ : ٢) .

ومن جهة لباس الروح ، ما أجل تلك العبارة التي قيلت عن المعمودية «لأن جميعكم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣ : ٢٧) ، يوم خرجت الروح من المعمودية في أكمل بهائها ... ويضاف إلى هذا أيضاً :
ما تلبسه الروح من أكاليل ، نتيجة لجهادها وانتصارها .

فا الذي تلبسه روحك من كل هذا ؟ هل أنت مثل تابوت العهد الذي كان مصفحاً بالذهب من الداخل ومن الخارج (خر ٢٥ : ١١) ؟

* وفي الإهتمام بالروح ، ضع أمامك هذه الوصايا :

١ - اسلكوا بالروح ، فلا تكلوا شهوة الجسد (غل ٥ : ٦) .

٢ - إمتلئوا بالروح (أف ٥ : ١٨) .

٣ - حاربن في الروح (رو ١٢ : ١١) .

وهكذا تعبد الله بالروح (في ٣ : ٣) . وتصلى بالروح ، وترتل بالروح (١ كو ١٤ : ١٥) . وتثمر ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) ، عالماً أن « من يزرع للروح ، فن الروح يحصد حياة أبدية » (غل ٦ : ٨) . إن سرت هكذا يمكنك أن تحفظ توبتك ولا ترجع إلى الوراء ...
إعط روحك غذاءها . أما جسدك فاعطه ما يقوته ، لا ما يشتهي .

إن تقويتك لروحك تحفظك من السقوط ...

إن التجارب والإغراءات والحروب الروحية يتعرض لها الكل . ولكن يثبت الأقوياء روحياً كالبيت المبني على الصخر (متي ٧ : ٢٤ ، ٢٥) . هؤلاء الذين تغذت أرواحهم بكلمة الله ، وقويت بكل التداريب الروحية ، وأصبحت لها خبرة بحروب الشياطين ، وقدرة على قتالهم ... صاروا أقوياء من الداخل ، كمدن محصنة . ولكن لماذا يسقط البعض ؟

يسقطون ، لأنه لا توجد مقاومة في الداخل ، ولا حصانة .

كمريض يهاجم بلدة بأسرها ، فيصمد له الأقوياء ، ويقع الضعفاء .

إن كان الأمر هكذا ، حاول إذن أن تقوى بالروح ، حتى إن أتت الخطية ، لا تجد قبولا ولا تجد استسلاماً ، فتعبر وتمضى ... كوّن لك رصيذاً روحياً ينفعك في السنوات العجاف ...

غالبية الذين يسقطون ، والذين ينتكسون بعد توبتهم ، اكتفوا بترك الخطية في بدء التوبة . وفي نفس الوقت تركوا أرواحهم بلا تغذية ، بلا تقوية ، بلا عناية ، حتى أصبحت في حالة من الضعف تجعلها سهلة السقوط .

أما أنت فلا تكن هكذا ... فلتكن لك وسائط روحية تربطك بالله ، تسير عليها في نظام ، ومواظبة . ولتكن لك الإجتماعات الروحية ، والأصدقاء الروحيون ، والقراءات الروحية ، وجو روحي يحيط بك من كل ناحية ، مع الأب الروحي وإرشاداته وتوجيهه ...

١ - ما يساعد على حفظ التوبة ، أن تستوفى نصيبها من الإنسحاق .

وذلك حتى يدرك الإنسان تماماً بشاعة الخطية ومرارة نتائجها ، ويختبر عذاب الضمير ، فلا يعود إلى الخطية مرة أخرى ... ولقد تحدثنا في باب سابق عما يصحب التوبة من شعور بالحزى ، مع حزن ودموع ، كما في قصص القديسين ... وكذلك ما يصحب الإنسحاق من بعد عن المتكاثات الأولى ، ومجالات القيادة التي تجعل الإنسان ينسى خطاياه . غير أن البعض للأسف الشديد ، يحاول من بدء توبته أن يقفز سريعاً إلى الفرح ، دون أن يعبر على مرحلة الإنسحاق والندم والحزن ، ناسياً أن الفرح هو مرحلة متأخرة ، لا يحتفظها لنفسه ، إنما يمنحها الرب للذين أثبتوا بانسحاقهم صدق وثبات توبتهم ...

التائب الذى يسرع إلى الفرح ، سهل رجوعه إلى خطاياه القديمة .

أما الإنسحاق فهو سور متين يحمى التوبة ، ويحفظ القلب يقظاً ، ويدعوه باستمرار إلى الحرص والتدقيق ، ويثبت فيه مخافة الله . كما أن الإنسحاق يحفظ التائب في تواضع القلب . والنعمة تعمل في المتواضعين وتحفظهم من السقوط . وطالما يكون التائب منسحقاً ، فإنه يتذكر ضعفه وسقوطه ، وهذا يدعوه إلى الإحتراس الدائم .

أما الشيطان فيحرضك على سرعة الفرح ، ليقودك إلى الامبالاه .

يشرك أنك خرجت نهائياً من دائرة الخطية ، وتقديست وتجددت ، ولم يعد للخطية سلطان عليك ، لأنك محروس ومحموظ بالنعمة . وهكذا يجعلك لا تبالي ...! حقاً إن النعمة تحفظنا ولكنها لا تلغى إرادتنا ، ولا تجعلنا مسيرين نحو الخير . فإذا يحدث إذا لم نتعاون نحن مع عمل النعمة فينا ؟

لذلك إن دعيت إلى الفرح ، قل أنا لا أستحقه . وإن أنعم الله عليك بهجة خلاصه (مز ٥٠) ، فلتكن هذه الهجة سبباً لمزيد من الإنسحاق ، مع توبيخك لنفسك ...

في نظام الآباء الأول ، كانت هناك قوانين عقوبات شديدة .

ونتيجة هذه العقوبات ، كان كل تائب يشعر بمقدار الخطأ الذى وقع فيه فينسحق

قلبه ، ويشعر بعدم استحقاقه حتى لدخول الكنيسة . وفي ذلك الزمان كانت الكنيسة أكثر قداسة ، وكان المؤمنون أكثر جدية وتديقاً في حياتهم . ولما وقفت تلك العقوبات دخل الاستتار إلى نفوس كثيرين . فialت كل تائب يضع أمامه قول القديس أبأ مقار الكبير « أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك » ...
لأننا إن كنا نندم على خطايانا كما ينبغي ، فإن الندم على الخطية ، سيساعدنا على عدم الرجوع إلى الخطية . إذ كيف نرجع إلى ما نندم عليه ...

٢ - ومن أسباب النكسة الروحية ، والرجوع إلى الخطية ، المفاهيم الخاطئة عن الروحيات وعن محبة الله ...

كثيراً ما يركز البعض على محبة الله وغفرانه ومساعدته ، تركيزاً ينسبهم صلاح الله وقداسته ، وينسبهم مخافة الله أيضاً . فلا يكون عندهم الخوف الذى يدفعهم إلى الحرص . وإن سقطوا لا يندمون كثيراً . معتمدين على محبة الله . وهكذا تصبح الخطية سهلة أمامهم ...

ومن المفاهيم الخاطئة أن يظن البعض أن الإعراف ، هو مجرد أن يذكر خطاياه للكاهن ويأخذ عنها حلاً وينتهى الأمر... دون أن يقرن الإعراف بالتوبة الصادقة ، وبالندم الشديد ، وبكبت النفس ، والعزيمة الصادقة على ترك الخطية والبعد عن كل أسبابها ...

إن سهولة الإعراف ، ربما تكون سبباً فى رجوع الإنسان إلى الخطية .
ومن المفاهيم الخاطئة أن يظن الإنسان أن التوبة مجرد تغيير سلوك بسلوك ، من تصرف خاطئ إلى حياة الفضيلة ، دون التركيز على وجود علاقة مع الله . أما أنت فقل :

لو أننى أعطيت كل الفضائل من غيرك يارب ، لا أريدها .
إننى فى توبى أريدك أنت . وما الفضيلة سوى تعبير عن التصاق بك ... هل أقول أعطيك قلبى كمجرد طاقة تظل بها على مشاعرى ؟ كلا ، بل أعطيك فى هذا القلب كل الحب ، لأحيا معك وأثبت فيك .

فالتوبة ليست هى وصولى إلى الفضيلة ، إنما وصولى إليك .
بهذا الوضع يمكن للتوبة أن تثبت ... التوبة المؤسسة على محبة الله والإلتصاق به .

فإن المحبة كما قال الرسول «لا تسقط أبداً» (١ كو ١٣ : ٨). وكما قيل في سفر
النشيد «مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفى المحبة» (نش ٨ : ٧).

٣ - ومن أسباب النكسة الروحية أيضاً : نسيان وعودك لله .

تلك الوعود التي قلتها للرب يوم توبتك . وربما تكون قد قطعت مع الله بتفاصيل
معينة ! لذلك إن حوربت بالخطية ارفضها ، وتذكر مواعيدك وعهودك . قل «أنا قد
اتفقت مع الله . ولا يمكن أن أرجع في عهودى معه . لقد وعدت . وأريد أن أكون
رجلاً حسب وصية الكتاب «تشدد وكن رجلاً» (١ مل ٢ : ٢) .
لا تكن مثل الأرض التي ألفت فيها البذار ، وأنت الطيور فالتقطتها ... أو أحاطت
بها الأشواك فخنقت ما قد غا فيها .

٤ - ومن أسباب النكسة الروحية أيضاً : الضمير الواسع .

ذلك الضمير الذى يتسع لكل شيء ، ويبرر كل شيء ، ويبلغ الجمل (متى
٢٣ : ٢٤) . وقد يساعده عقل يكون في خدمة كل انحراف تحارب به النفس ، فيقدم
الأدلة والبراهين ، وربما الآيات وقصص القديسين ، لكى يؤيد بجهالة كل رغبة خاطئة
للنفس ...

لذلك يعوزك الإرشاد المستمر حتى لا تنحرف .

ضع نفسك تحت قيادة إرشاد حكيم . وتذكر أن «الذين بلا مرشد يسقطون مثل
أوراق الشجر» . وقد قال أحد القديسين إن أعظم سقطة لشاب هى : أن يسلك حسب
هواه . وقال الحكيم «على فهمك لا تعتمد» (أم ٣ : ٥) .
والمرشد يحفظ التوازن في حياة التائب . فلا يجعله بغاى في الكآبة التي قد توقعه في
قطع الرجاء . كما لا يغاى في طلب الفرح والبهجة ، فيقوده ذلك إلى اللامبالاة .

”إعزموا لا للطعام البائس ، بل للطعام الباقي“

”ير ٦ : ٢٧“

بعض أسئلة عن التوبة

١ خطيئى أمامى كل حين

سؤال : إلى أى مدى نفذ عبارة « خطيئى أمامى كل حين » (مز ٥٠) ؟
هل معنى هذا أن نتذكر خطايانا باستمرار؟

الجواب : المفروض أن نتذكر باستمرار أننا خطاة ، وتكون خطايانا أمامنا كل حين ، لكى تجلب لنا الإلتضاع وانسحاق القلب ، وتشعرنا بضعفنا فنزداد حرصاً ، ونطلب معونة الله بالصلاة...

أما إن كان التذكاري بعيد إلينا الخطية ، فلنمتنع عنه ...
متذكرين ما نقوله فى القداس الإلهى : « تذكاري الشر الملبس الموت » .
وحسب تعليم الآباء ، من الصالح لنا أن نبعد عن تذكر الخطايا الشهوانية والخطايا الإلتفالية ، لأن تذكرها قد يعيد إلينا حروب الخطية .

فإن تذكرنا خطية شهوانية ، لا ندخل فى تفاصيلها لأنها معثرة .
خطية الزنا مثلاً ، لا يجوز للتائب أن يتذكر تفاصيلها وخطوات ارتكابها ، لئلا تعود إليه شهوة الخطية مرة أخرى . حتى إن لم تحاربه الشهوة فى أول مرة يذكر فيها هذه التفاصيل ، يمكن أن تحاربه فيما بعد .

ومثل شهوة الزنا أيضاً ، شهوة العظمة والمناصب ، وشهوة المتكآت الأولى ، وما يتبع كل ذلك من أحلام اليقظة .

فإن دخل التائب فى تفاصيل آماله هذه وأحلامه ، وما كان يشتهي من أوضاع ومراكز وشهوة وتقدم على الآخرين وحب للمديح والكرامة ، ما أسهل أن ترجع إليه هذه المشاعر مرة أخرى ، وتدغدغ حواسه ، ويطيش فيها بلذة ، وربما تكون سبب لأحلام من هذا النوع أو تطيش فيها أفكاره وقت الصلاة . والأحرى به أن يهرب من كل هذا .

لذلك فخطية الحسد ، لا يجوز الدخول في تفاصيلها .

إذ سيتذكر من كان يفوقه في شيء ما ، أو يتمتع بشهوة كان هو يريدها ولم يستطع . وهذه التذكارات تعيد إليه حروب شهوراته القديمة ، بل قد تعيد مشاعر عدم عجة نحو ذلك المحسود...

وبالمثل خطايا الغضب من إساءات الناس ، ظاهراً أو مكبوتاً .

مع تذكر أسباب تلك الإساءات ومظاهرها ، وما تحرك في القلب من مشاعر الغيظ أو الحقد أو الرغبة في الانتقام .

إن تذكر التائب هذه التفاصيل ، ربما يشعر أنه بدأ يسخن من الداخل و يتفعل ، بدلاً من أن يتبكت على غضبه ! هذا إن دخل في التفاصيل .

على أية الحالات ، فليكن الإنسان رقيقاً على مشاعره .

الخطايا التي يذكرها أو يذكر تفاصيلها بطريقة ألمية تعيده إلى مشاعر الخطية ، فليبعد عنها . أما التذكار الذي يجلب له الندم والدموع وانسحاق القلب ، فليستمر فيه مادام هو داخل مشاعر التوبة .

٢ قراءات التائب

سؤال أنا إنسان حديث العهد بالتوبة . ما هي القراءات التي تنصحني بها لفائدة الروحية في هذه الفترة ؟ وعن أى شيء أمتنع ؟

الجواب إبعد عن القراءات المعثرة ، والتي تجلب الفتور وإدانة الآخرين

وكذلك القراءات التي تثير فيك الجدل أو حب التعليم ، أو الشعور بالتفوق وسعة الاطلاع . وأيضاً القراءات التي تبرد حرارتك الروحية ، وتخفف دموعك ، وتدخلك في جو من اللهو والمزله...

ومن النافع لك جداً قراءة سير القديسين .

وكذلك شخصيات الكتاب المقدس - لأن هذه القراءات تقدم لك مثاليات عملية

تشتاق أن تحيا مثلها ، فتعطيك طاقة وحرارة روحية .

وكذلك تنفعك قراءة الكتب الروحية والكتب النسكية .

لأنها تنير لك الطريق ، كما أنها تحفظ فكرك في جو روحى نقي . والمهم أن تختار الكتب التى لها عمق ، والتى تتأثر أنت بها ، وتدفعك إلى الالتصاق بالله ، وتبكتك على خطاياك ، وتفتح أمامك آفاقاً سامية ، وتجعلك تتضع معها بلغت في توبتك .

ومن النافع لك أيضاً قصص قدسى التوبة .

مثل سيرة القديس أوغسطينوس واعترافاته ، وسيرة القديس يعقوب المجاهد ، والقديس الأنبا موسى الأسود وغيرهم . وكذلك سير القديسات الثابتات مثل مريم القبطية ، وبيلاجية ، ومرثا ، وأفدوكية ، ومريم ابنة أخى ابراهيم المتوحد...

ومن الكتاب المقدس تخبر لك فصولاً معينة تتأثر بها .

مثل سفر الجامعة ، وسفر الأمثال ، ويونان ، ويوثيل ، وسفر التثنية ... ومن العهد الجديد : الرسالة إلى فيلبى ، وإلى أفسس ، والرسالتين إلى كورنثوس ، وإلى تيموثاوس . واكتب في مذكرة الآيات التى تأثرت بها لتحفظها ...

٣ التداريب الروحية ومحبة الله

سؤال أيها أصلح لى في فترة التوبة : التداريب الروحية ، أم الدخول في محبة الله بقوة تجعل الطريق قصيراً .

الجواب في هذه النقطة ، ليس جميع الناس نوعاً واحداً .

البعض ينعم عليه في توبته ، بمحبة ملتهبة في قلبه ، تكتسح أمامها كل الضعفات السابقة وكل الخطايا والنقائص .

على أن هناك من يشق طريقه وسط صخر ، ويحتاج إلى جهاد كبير يقاوم به كل خطية ، بتداريب قاسية شديدة ، وبسهر منتبه جداً على خلاص نفسه ، مثلما نبه القديس بولس العبرانيين قائلاً :

لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .

وهنا يدرب الإنسان نفسه ، ومحاسنها كيف سلكت في كل تدريب .
 والتدرب عاش فيها القديسون أيضاً في الأمور الخاصة بحياتهم الروحية وبنموهم
 الروحي . فيقول القديس بولس الرسول : « لذلك أنا أيضاً أدرب نفسي ، ليكون لي
 دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس » (أع ٢٤ : ١٦) . وقال أيضاً « في كل
 شيء ... قد تدربت أن أشبع وأن أجوع ، أن أستفضل وأن أنقص » (في ٤ : ١٢) .

لذلك حسباً يمنحك الرب ، هكذا أسلك .
 إن أشعلك بالحب ، سر في طريق الحب ... وإن قادك خطوة بخطوة بجهد وتعب ،
 جاهد أنت أيضاً واتعب ، لكي تصل ...

٤ الأصدقاء القدامى

سؤال هل تظن أنه من السهل التخلص من الأصدقاء الذين عشت بينهم
 سنوات طويلة قبل التوبة ، بعشرة لاصقة بالقلب وعلاقة عميقة ، وكانوا موضع ثقتي
 وعندهم أسرارى ... كيف أتركهم ؟

الجواب صديقك الحقيقي ، هو رفيقك في طريق الملكوت ، يشترك معك
 في الحياة الروحية ، ويشجعك عليها ، وتشجعه أنت أيضاً .
 أما كل علاقة أو عشرة خارج محبة الله ، فينبغي التخلص منها . لأن الرب يقول
 « من أحب أباً أو أمّاً أكثر مني ، فلا يستحقني ... » (مر ١٠ : ٢٩) . فإن كان
 أصدقاؤك القدامى يعثرونك ، أو يقودونك بعيداً عن حياة التوبة ، إبعد عنهم ، باقتناع
 وفي حزم .

إن استطعت أن تحذبهم معك إلى التوبة ، فلا مانع .
 وإن لم تستطع ، فاجعل علاقتك بهم سطحية . وإن كانوا خطراً عليك ، فينبغي أن
 تفضل علاقتك بالله على علاقتك بهم .
 حتى إن وجدت صعوبة ، إحتمل من أجل الرب . وتذكر أن إبراهيم أباً الآباء ، لما
 دعاه الرب ترك أهله وعشيرته وبلده وسار وراء الله (تك ١٢ : ١) .
 وأنت أيضاً ، لتحفظ بتوبتك ، أترك من أجل الله كل من يعوقك ...

قصيدة كيف أنسى

وسأنسى فترة في العمر قد ضاعت سدى	سوف أنسى الأمس واليوم وقد أنسى غداً
حين قال القلب يوماً في ارتباك كيف أنسى	غير أنى سوف لا أنسى سؤالاً واحداً
حين كان القلب رخواً كلما قام كبا	كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا
كلما يشرب كأساً يلاً الشيطان كأساً	أسكرته خمرة الإثم فنادى طالباً
وأراني قلبه الحاني أنا الهارب منه	كم دعاني الرب يوماً فأشحت الوجه عنه
كان قلبي في صدرى مثل صخر كان أقسى	قال كن صدرأ لقلبي غير أنى لم أكنه
فأعاد القول في رفق وعطف فضجرت	قال هل تحضر يا صاحب عرسي فاعتذرت
لم تكن في القلب أشواق لى أحضر عرساً	فتولى بعد أن قال انتظرنى فانتظرت
قائم ضدى في صحوى وأيضاً في هجوى	كجحيم ذلك الماضى كشیطان مريع
إيه يا ظلمة نفسى هل ترى أبصر شمساً	كم مضى الليل وقد بللت فراشى بدموعى
قال لى هيا اصطليح بالرب هيا فاصطلحت	قرأ الكاهن جلاً فوق رأسى فاسترحت
حسن يا قلب أن أنسى ولكن كيف أنسى	قلت أنسى الأمس لكن صرخ العقل فصحت
كيف أنسى الرب مصلوباً وقلبي صالبا	كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا

كُتِبَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ حَوْلَى سَنَةِ ١٩٦٠ .

محتويات الكتاب

صفحة

٥ قصة هذا الكتاب

٧ الباب الأول : ما هي التوبة

٨ ١ - ما هي التوبة ؟

١٤ ٢ - نحو التوبة وكما لها

١٧ ٣ - دعوة إلى التوبة

٢١ ٤ - لا تيأس

٢٥ ٥ - التوبة بين الجهاد والنعمة

٢٧ ٦ - أهمية التوبة

٢٨ ٧ - عوائق التوبة

٣٠ ٨ - التوبة والكنيسة

٣٣ الباب الثاني : دوافع التوبة

٣٤ الفصل الأول : إن عرفت من أنت ، تسمو عن الخطية

٣٤ أنت نفخة قدسية خرجت من فم الله

٣٥ أنت ابن الله ، أنت صورته ومثاله

٣٨ أنت مسكن الله ، وهيكلك للروح القدس

٤٠ أنت أخ للمسيح ، شريك للمسيح ، ووارث معه

٤٢ أنت شريك للروح القدس ، شريك للطبيعة الإلهية

٤٣ أنت عضوفي جسد المسيح ، من لحمه وعظامه

٤٥ أنت الذي تتناول جسد الرب ودمه

٤٧ الفصل الثاني : إن عرفت ما هي الخطية تهرب من الخطية

- ٤٧ الخطية هي موت
- ٤٩ الخطية ضلال وضياح
- ٥٠ الخطية هزيمة لا نصرة
- ٥٣ الخطية انفصال عن الله
- ٥٤ شتان بين دالة وخصومة
- ٥٩ الخطية حرمان من الله
- ٦٠ الخطية معاندة للروح القدس
- ٦١ الخطية فساد للطبيعة البشرية
- ٦٢ الخطية نجاسة وزنى وعار

٦٥ الفصل الثالث : إن عرفت نتائج الخطية ، تنفر من الخطية

- ٦٥ الخوف والقلق
- ٦٧ عذاب الضمير
- ٧٠ نتائج أخرى للخطية

٧٣ الفصل الرابع : إن عرفت عقوبة الخطية ، تخاف من الخطية

- ٧٤ لطف الله وصرامته
- ٧٦ عقوبات الله المخيفة
- ٧٩ عذاب الأبدية المرعب
- ٨٣ عقوبات للخطية : أرضية وأبدية
- ٨٧ عقوبات لأحباء الله القديسين

٩٥ الفصل الخامس : دوافع أخرى للتوبة

٩٩ الباب الثالث : وسائل التوبة (كيف تتوب)

- ١٠١ ١ - إجلس مع نفسك وحاسبها
- ١٠٨ ٢ - لا تستخدم أسلوب التبريرات والأعذار
- ١٢٤ ٣ - لا تؤجل التوبة
- ١٣٣ ٤ - إبعد عن قساوة القلب

- ٥ - إبعاد عن الخطوة الأولى ، واحترس من الثعالب الصغار ١٤٩
- ٦ - إبعاد عن العثرات ١٦٢
- ٧ - إبعاد عن التساهل مع الخطيئة ١٧٩
- ٨ - أعد تقييم سلوكك ، واحترس من ثياب الحملان ١٨٧
- ٩ - إهرب من خطاياك المحبوبة . وعالج نقط الضعف فيك ١٩٦
- ١٠ - إهتم بخلاص نفسك ، واحسب حساب النفقة ٢٠٢
- ١١ - إقتن محبة الله ، لتطرد منك محبة الخطيئة ٢٠٦
- ١٢ صارع مع الله ، وخذ منه معونة ٢١١
- الباب الرابع : علامات التوبة ٢١٩**

- ثمار تليق بالتوبة ٢٢٠
- ١ - الإعراف بالخطأ ٢٢٠
- ٢ - الخجل والخزي ٢٢٦
- ٣ - الندم والألم والدموع ٢٢٨
- الدموع ٢٣٠
- ٤ - الإنسحاق والإنضاع ٢٣٦
- ٥ - إصلاح نتيجة الخطأ ٢٤٠
- ٦ - الإشفاق على المخطئين ٢٤١
- ٧ - مشاعر أخرى ٢٤٣
- ٨ - الحرارة الروحية ٢٤٣
- ٩ - السير في الحياة الفاضلة ٢٤٥
- ١٠ - النقاوة ٢٤٦

الباب الخامس : نقاوة القلب ٢٤٧

- النقاوة من الخطيئة ٢٤٧
- إختبار النقاوة ٢٥٣
- النقاوة من الأفكار والأحلام والظنون ٢٥٥
- النقاوة من الأباطيل ٢٥٧

٢٦١	 الناحية الإيجابية في النقاوة
٢٦٢	 نقاوة القلب من معرفة الخطية
٢٦٤	 ترتيلة « بللت فراشى بدموعى المرة »
٢٦٥	 الباب السادس : حفظ التوبة
٢٦٦	 إمكانية الرجوع
٢٦٧	 بدأوا بالروح وكملاوا بالجسد
٢٧١	 الكنعانيون في الأرض
٢٧٩	 لا تعرجوا بين الفرقتين
٢٨٣	 الفصل بين النور والظلمة
٢٨٧	 الإهتمام بالروح
٢٩٣	 وسائل أخرى
٢٩٦	 بعض أسئلة عن التوبة
٣٠٠	 قصيدة كيف أنسى
٣٠١	 محتويات الكتاب

صدر مع هذا الكتاب

① كتاب : سنوات مع أسئلة الناس « الجزء الثاني »

* خاص بالأسئلة اللاهوتية والعقائرية

يسأل أكثر من ثلاثين سؤالاً ، في ثمانين صفحة

② الطبعة الثانية من كتاب : الرجوع إلى الله

فهم الكتاب



بسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

ليست التوبة مرحلة نجتازها
وننتهي منها . إنما هي حياة
إنها عمل يومي نمارسه كل يوم ،
لأننا في كل يوم نخطئ ، ونحتاج إلى
توبة . كلنا بلا استثناء .

إذن فهذا الكتاب لجميع الناس .
لكل إنسان يعترف أنه خاطئ
نقرأ فيه : ما هي التوبة ؟ وما
كمالها ؟ وما أهميتها ؟ والدوافع التي
تدفع الإنسان إلى التوبة .

ويشرح أيضاً : كيف تتوب ؟
وما هي علامات التوبة ؟
وكيف نحفظ توبتنا مستمرة بلا
نكسة .

وما هي حياة النقاوة وكيف
نختبر ؟

ومع ذلك فالموضوع طويل يحتاج
إلى تكملة . لذلك إقرأ أيضاً كتب :
اليقظة الروحية - السهر الروحي
الرجوع إلى الله - غسالة الله
شهوده الثالث